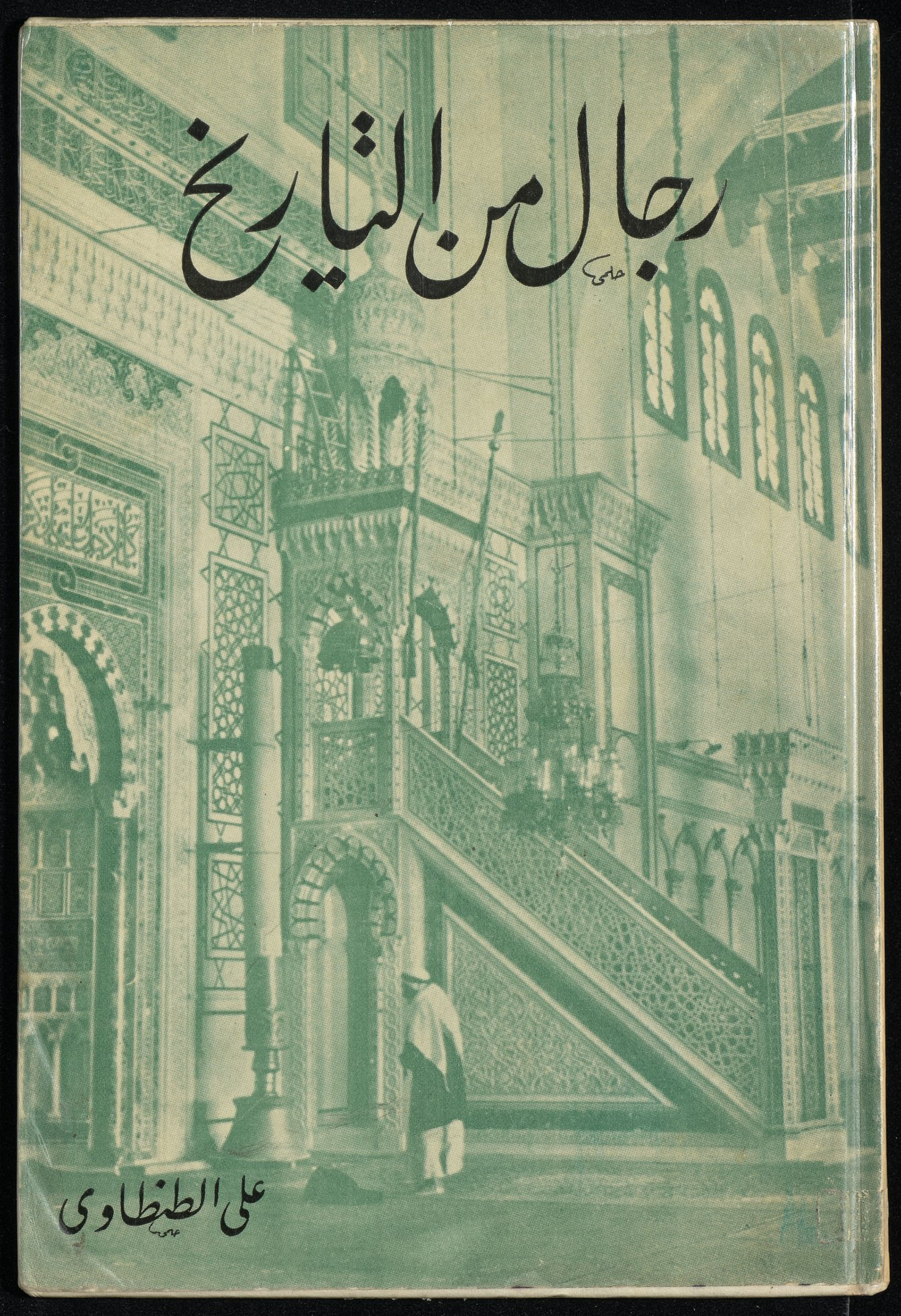
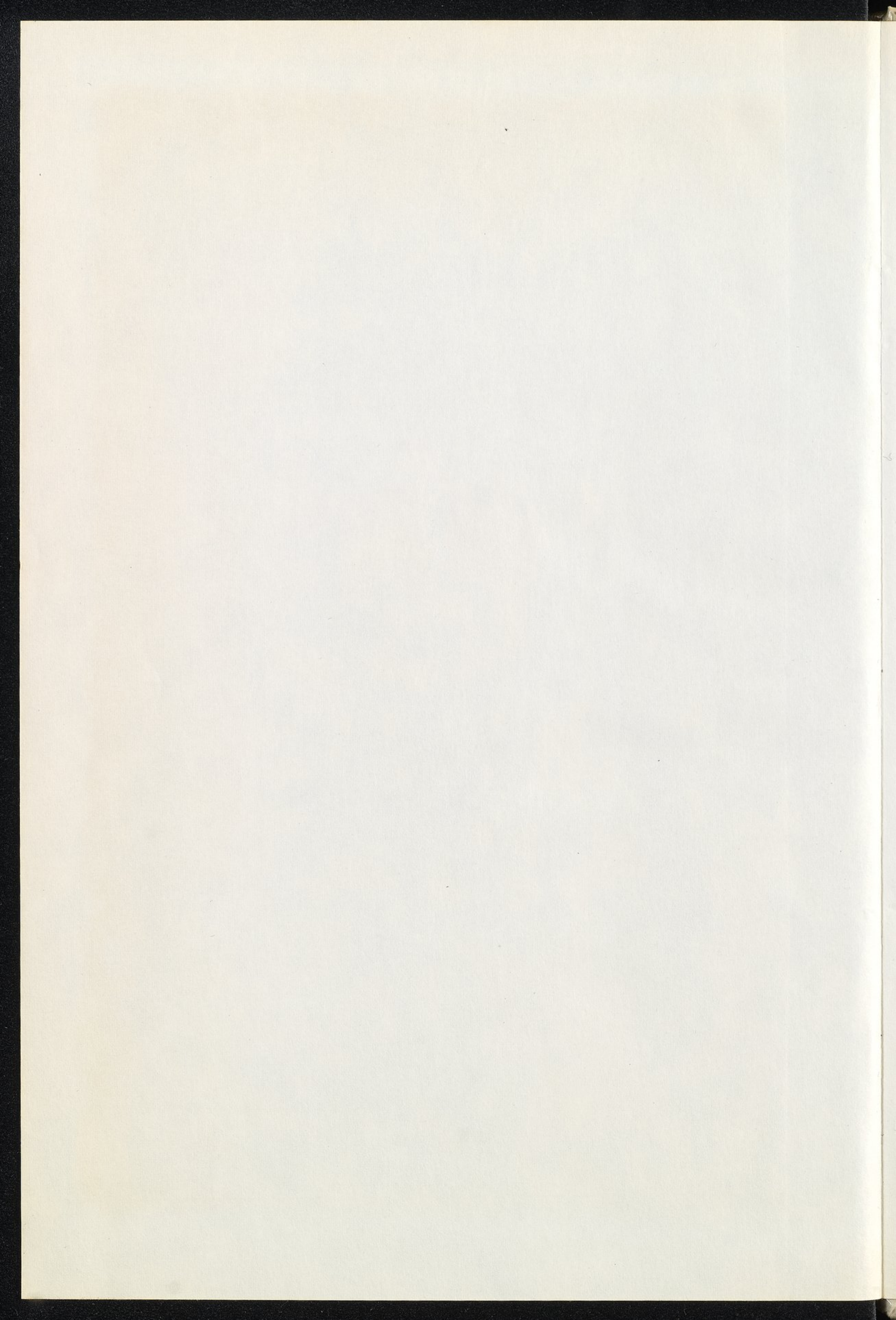
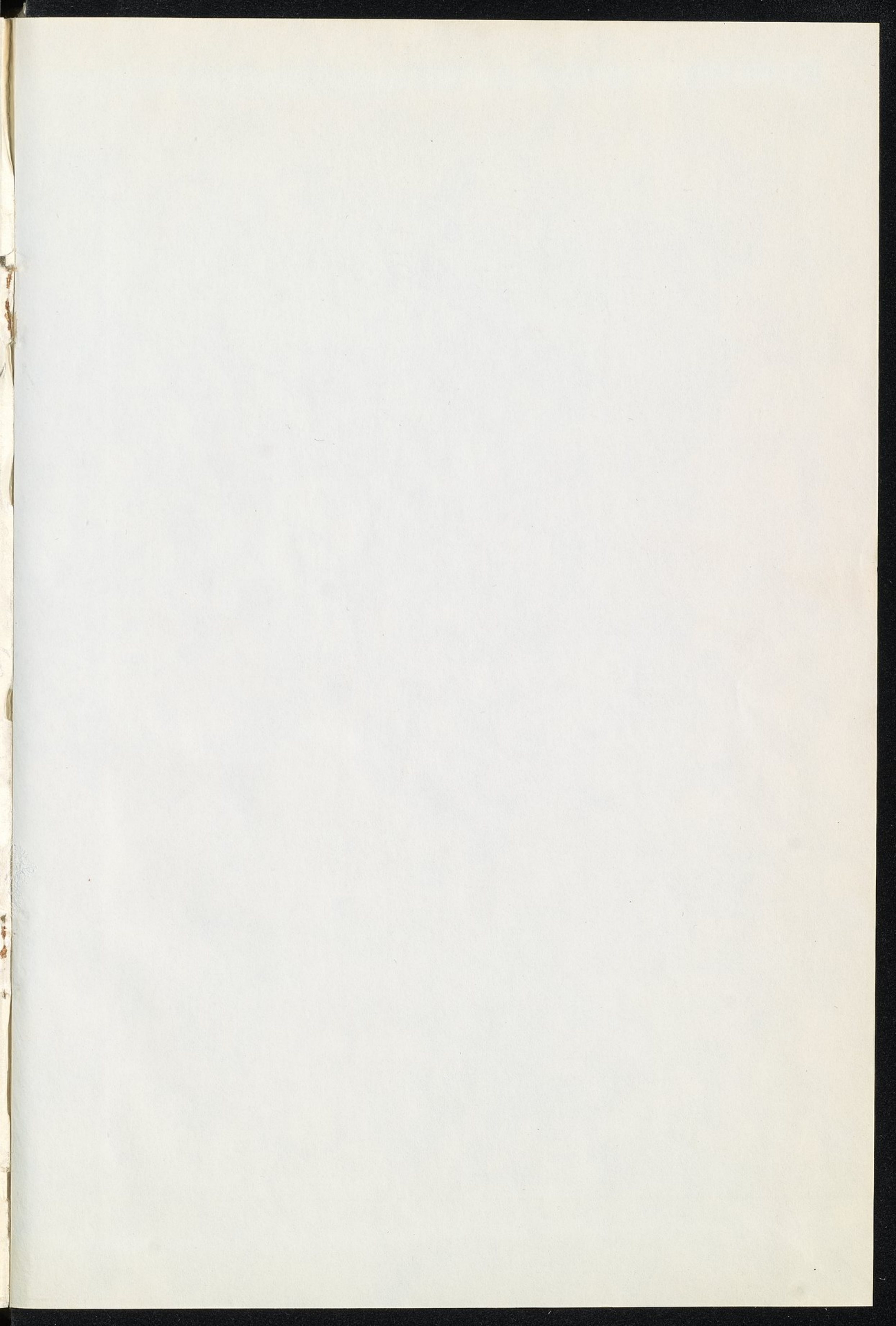

رجال من التاريخ
على الطنطاوى


BOBST LIBRARY
3 1142 02768 4425





علي الطنطاوي

رجال من التاريخ

منشورات

مؤسسة دار السلام للطباعة والنشر

دمشق، سورية – هاتف ٢٣٦٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا

من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له

اللهم اهدنا الصراط المستقيم وارزقنا الإخلاص في العمل

وثبتنا عليه وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه

هذه أحاديث ، حدثت ببعضهـا من (اذاعة الحجاز) وباكثرها من (اذاعة الشام) ، وقد كانت تزيد على مئة حديث فضاع اكثرها ، فيما يضيع من مقالاتي ، التي لااحسن (مع الاسف) حفظها والعناية بها ، وانا اكتب باستمرار من سنة ١٩٢٧ الى الآن ، وقد لبثت سنين مرتبطـاً بجرائد يومية اكتب لها كل يوم ، وسنين اكتب في الاسبوع مقالة او مقالتين . ولو جمعت كل ماكتبته لكان تحت يدي اكثر من عشرة آلاف صفحة ولكني اضعتها ، وارجو الا اكون قد اضعت ثوابها عند الله — وان كنت اعترف باني لااستحق هذا الثواب ، الا ان يتغمدني الله برحمته .

وانا اشكر للاخوان الاكارم ، شباب مؤسسة دار السلام جزاهم الله خيراً ، ان تداركوا هذه البقية الباقيـة منهـا ، فاودعوها هذا الكتاب .

واذا ذكر القراء ان اول مايتعلمه التلميذ في المدرسة ان الفصاحة هي خلو الكلمة من الغرابة والتنافر ، وان البلاغة هي مطابقة الكلام لما تقتضيه الحال ، عرفوا السر في اختيار هذا الاسلوب لهذه الاحاديث .

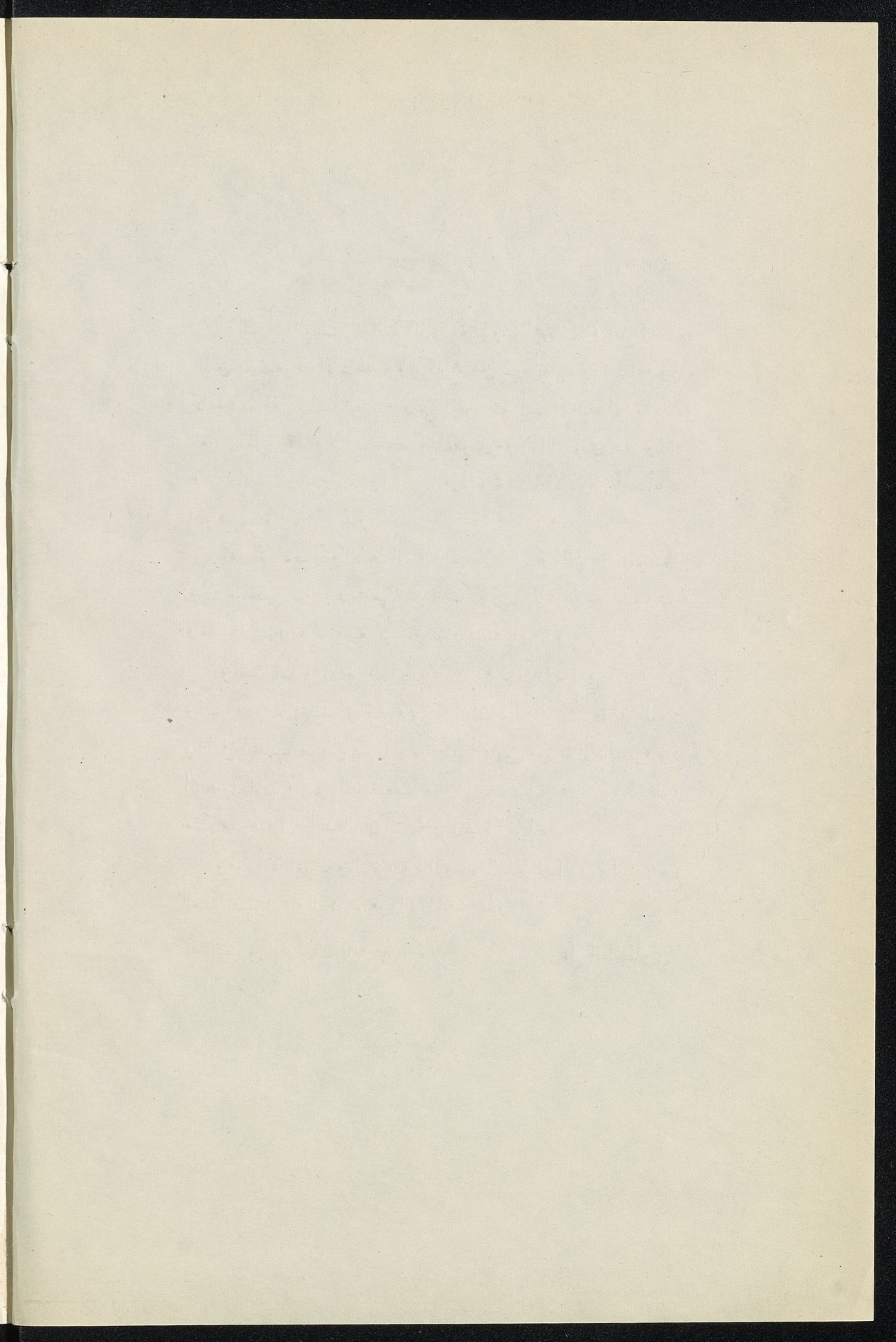
ذلك انها ليست للخاصة الذين يقرؤون المجلات ، بل للعامة الذين يستمعون الاذاعة ، واكثرهم من غير العلماء والادباء، وان كان فيهم الاديب والعالم ، وعلى المتحدث اليهم ان يقول ما يفهمه العامي ، ولا ينكره اللغوي ولا النحوي ، وليس هذا بالمطلب اليسير ، وربما اراده محدث الاذاعة فأخطأه فيه التوفيق .

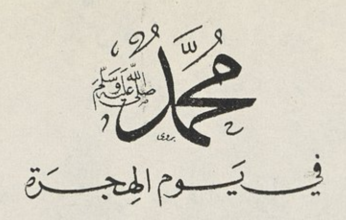
أما الاختصار والايجاز ، واني لا أجمع اطراف الموضوع ولا استقصي فيه ولا اتعمق ، فلأن وقت الاذاعة محدود ، ومداها قصير ، لايتسع لأكثر مما وسعته هذه الاحاديث .

ولقد كان في النية ان أجدد كتابتها عند طبعها في كتاب وان اقدم لها بمقدمة وافية ، ولكن الله لم يرد ذلك فقد طبعت وانا في اعقاب مرض طويل لم أكد أتخلص من عقابيله ، وفي الذهن كلال ، وفي اليد ضعف ، وانا اكتب هذه السطور متكلفاً مجهداً ، أعد الكلمات ، وأرقب الفراغ .

ومن الله العون والشفاء ، وان مع اليوم غداً ، وان مع العسر يسرا ، والكريم من القراء من عذر .

دمشق : رجب ١٣٧٧ — علي الطنطاوي





في يوم الهجرة

اليوم تغلق الدواوين ابوابها ، وتسرح المدارس طلابها ، وترفع الاعلام في النهار ، وتوقد السرج في الليل ، احتفـاء بذكرى الهجرة ، ثم يمر اليوم ، كما مر الامس ، ويمر الغد ، لا يسأل ولد أباه ، مامعنى الهجرة ؟ وإلام يشير هذا العيد ؟ ولا يحدث أب ولده واهله حديث الهجرة ، لان أكثر الآباء لايعرفون من سيرة نبيهم وهاديهم ، الا القليل الغامض ، الذي لايفيد علماً ، ولا ينفي جهلاً ، ولا يأتي منه شيء .

مع ان الواجب وجوباً على كل رب امرة ، ان يكون في بيته كتاب جامع من كتب السيرة ، وأن يقرأ فيه دائماً ، وأن يتلو منه على اهله واولاده وأن يجعل لذلك ساعة كل يوم ، لينشَؤوا على معرفة سيرة الرسول الاعظم ، صلى الله عليه وسلم ، فان سيرته الينبوع الصافي لطالب الفقه ، والدليل الهادي لباغي (١) الصلاح ، والمثل الاعلى للاسلوب البليغ ، والدستور الكامل الشامل لكل شعب الخير .

وانا من ثلاثين سنة اكتب واخطب في الهجرة (٢) ماانقطعت عن ذلك سنة ، ولا ازال مع ذلك ، كلما فكرت فيها بدت لي في اخبارها ، ملاحظات وعبر ، لم تكن قد بدت لي من قبل ، ونظرت اليهـا من جوانب جديدة ، فرأيت قديمها جديداً ، فهي كالنبع الذي لايزداد على الاستقـاء الا غزارة وعذوبة وصفاء .

* * *

---

(١) اي قاصد

(٢) خطبت اول خطبة فيها سنة ١٣٤٥ هـ في الاحتفـال السنوي المدرسة الامينية وكنت معلماً فيها .

ومن المعروف المشاهد ، ان الألفة تذهب العجب ، ونحن لانعجب لطيران بيت ضخم من الحديد والفولاذ ، ولا لنطق صندوق صغير من المعادن والاسلاك ، لاننا ألفناه وعرفناه ، مع ان ذلك عجيب في ذاته ، وفوق العجيب .

وكذلك نحن حين نقرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، نمر بخبر الحادث المدهش ، فلا نكاد ، من ألفتنا اياه وتكرار سماعه ، نفكر فيه ، او ندهش منه ، ولو سمعنا الآن ان رجلا أمياً ، لم يدخل مدرسة ، ولم يحضر حلقة علم ، ولم يتعلم القراءة ولا الكتابة ، وقام (مع ذلك كله) في قرية معتزلة في صحراء واسعة ، ليصلح وحده الدنيا كلها ، ويمنع الحروب منها ، وينزع سلاح الدول القوية العاتية ، ويكلفها بان تترك دنياها وعتوها ، وان تتبعه .. لبلغت بنا الدهشة ابعد الغايات ! فكيف ان سمعنا بعدُ ، بان هذا الرجل تبعه نفر قليل من الضعفاء المساكين ، وانه حمل هو وهؤلاء النفر ، اشد انواع الاذى الجسمي والنفسي ، فثبت وثبتوا على ذلك كله ثباتاً ليس له نظير في تاريخ البشر ...

وكيف لو سمعنا بان هذا الرجل قد نجح ، وانه لم تمض على دعوته ثلاثون سنة ، حتى خضعت لها اكبر دولتين في الدنيا اليوم : روسيا واميركا مثلا ، واتبعتا ماجاء به ، وقبل به وتحمس له شعباهما ، حتى سبقا في ذلك اتباعه الاولين .

وان هذا الرجل ، الاميّ الذي لم يتعلم ، قد جاء بكتاب ، هو دستور ، وهو قانون مدني ، وهو قانون للاحوال الشخصية ، وهو قانون جزائي ، وهو قانون دولي ، وهو مذهب اخلاقي ، وفيه تاريخ ، وفيه لفتات علمية عجيبة ، وفيه رفع للنفس البشرية الى اعلى اجواء الطهر والعبقرية والعظم وهو بعد ذلك مكتوب باسلوب ، لايمكن ان يجاريه انسان ، أو ان يجيء بمثله ، لأنه جاوز ارفع طبقات البلاغة البشرية ...

وان هذه الدعوة لم يكن نجاحها ، فورة سريعة ، ولا كانت وثبة

كنار القش ، تشب في لحظة ، وتخمد في لحظة ، بل كانت شيئاً اخلد من الخلود ، وابقى من الدهر ، وانها ، بعد ما مر عليها اربعة عشر قرناً من الزمان ، وبعد مامرت باربعين الف كيل على الارض ، وبعد ما بلغت آفاق الدنيا ، لاتزال في نفوس اتباعها على القوة التي كانت عليها في ابتدائها ولا تزال على صفائها وطهرها ، كلما علقت بها اوضار الزمان ، انتفضت انتفاضة فعادت كما كانت .

كم يكون عجبكم من هذا الرجل ، لو ظهر مثله من جديد ؟

هذا الذي صنعه محمد ، ياأيها السادة - هذا هو بالضبط !

نزل عليه جبريل ، وهو منفرد في جبل قفر ، في قرية صغيرة متوارية في واد ضيق ، وراء الرمال المحرقة ، والصحراء المهلكة ، في قرية لم تسمع بها رومة ، ولم تحس بها القسطنطينية ، ولم تبالها مدائن كسرى ، فقال له : انهض انهض ياأيها الرجل ، قف وحدك في وجه قريش فاكسر أصنامها ، وحطم آلهتها ، ثم أبدل العرب بانقسامهم وحدة ، وجهلهم علماً ، واجعلهم اساتذة العالم ، وحملة لواء الحضارة ، وادع كسرى وقيصر والدنيا كلها الى الحق والخير والعدل ، فان لم تسمع لك ، واعتدت وبغت ، فحاربها لالتستعمر بلادها ، وتملك اعناقها فما كان النبي داعية ظلم ، ولا كان الاسلام دين (استعمار) [1] ولا كان الجهاد ، حرب عدوان ، انما الجهاد ، دفاع عن دعوة الحق امام من بغى لها الاذى ، وسد على اهلها الطريق الى الشعوب ، ومنعهم ان يحملوا اليها العلم والحضارة والخير .

حارب اهل الارض ان حاربوك ، وجاهدهم ولو بقيت وحدك : (لاتكلف الا نفسك) !

وكانت ياسادة محن شداد ، وكانت اهوال ، ولكن محمداً احتمل مالا تحتمله الجبال . ان الواحد منا يخشى ان قال كلمة حق ، او دعا الى

---

(١) بالمعنى الذي يراد اليوم ، وان كان مايسمونه استعماراً انما هو في (الحقيقة) (استخراب) ، وهم المخربون المدمرون ، لاالمستعمرون .

خير ، ان يناله إعراض من أمير ، أو يسمع كلمة سوء من الناس ، أو ينقص مرتبه ، أو يمزق ثوبه ، أو يشتم أو يضرب ،وسيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم ، شتمه قومه ، وآذوه ، وسخروا منه ، وقالوا عنه عنه مجنون ، وقالوا ساحر ، وقالوا كذاب ، وكانت ام جميل بنت حرب بن أميه ، تحمل الشوك فتلقيه في طريقه ، حتى اذا خرج تعثر به ، وهي (حمالة الحطب) . وكان أمية بن خلف يهمزه ويلمزه ، وهو (الهمزة اللمزة) . وبلغ بهم الامر ان جاء عقبة بن ابي معيط بسلا جزور (كرش جمل وسخ) فالقاه فوقه وهو ساجد ، وسخروا منه : فقالوا له ،سل ربك ، ان ينزل ملكا يدافع عنك فانك تقوم في الاسواق مثلنا ، وتلتمس المعاش . وقال آخر ، اسقط علينا السماء كسفا ، كما زعمت . وقال الثالث ، انا أعرف من أين تجيء بهذا القرآن يعلمك اياه رجل في اليمامة ، يقال له الرحمن ... وهم خلال ذلك ، يضحكون ويقهقهون ، وكلما فتح فمه ليتكلم لقوه بمثل هذه الاقوال . وقال آخر ، يامحمد ، لن نؤمن لك حتى تتخذ سلماً تصعد به الى السماء ، فتأتي بالله والملائكة معك لينصروك علينا ... فأنزل الله عز وجل حكاية لاقوالهم هذه (وقالوا لن نُؤْمنَ لك حتى تَفجُر لنا من الارض يَنبوعاً ، او تكونَ لك جَنَّة من نخيل وعنب فتفجِّر الانهار خلالها تفجيراً ، او تسقط السماءَ كما زعمت علينا كِسَفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، او يكون لك بيتٌ من زخرف أَو ترقى في السماء ، ولن نُؤمنَ لرقيّك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً) .

وقالوا له ، لماذا لاينزل علينا ملك ؟ فرد الله عليهم ان لو كان سكان الارض ملائكة لانزل ملكا ، ولكن في الارض بشراً ، فكان رسولهم بشراً مثلهم .

وكان النضر بن الحارث ، كلما قام الرسول من محله ، قعد مكانه وحدثهم من حديث ملوك فارس ، وقال: حديثي والله احسن منحديث محمد وكانوا كلما جاء يتلو عليهم القرآن ، شغبوا عليه وصاحوا ، وقالوا

(لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) ولما نزلت عليه آية (عليها تسعة نفر) قال ابوجهل ضاحكا ساخراً : يامعشر قريش زبانية جهنم التي يخوفكم بها محمد تسعة ، فهل يعجز كل مئة منكم عن رجل منهم ؟! فنزل قوله تعالى (وما جعلنا اصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدّتهم الا فتنة للذين كفروا) وقال ابوجهل : يامعشر قريش ، هل تعرفون ماهي شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد ؟ هي عجوة يثرب بالزُبْد ، فنزل قوله تعالى (ان شجرة الزقوم طعام الاثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم)

ولم يكفهم ذلك كله حتى قاطعوا محمدا واصحابه ، وحبسوهم في الشعب امدا طويلا لايبيعونهم ولا يكلمونهم .

فهل ترونها اثرت هذه الاهوال كلها في عزيمة محمد ؟ او نقصت من ايمانه بدعوته وحماسته لها ؟ لقد عرضوا عليه معها اقوى المغريات : ان يملكوه عليهم ، وان يعطوه الأموال ، وان يقدموا اليه أجمل النساء ليتزوج منهن بمن شاء ، فكان موقفه بعد هذه المغريات كلها ، وهذه المصائب كلها ، ان قال لعمه ابي طالب : والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري لأترك هذا الامر ماتركته .

فهل تعرفون في تاريخ الجنس البشري ، موقفاً آخر كهذا الموقف ؟

واستمر هذا كله ، وامتد ، لايوماً ولا يومين ، ولا اسبوعاً ولا شهراً امتد سنوات طوالاً ، ولو ان رجلا غير محمد ، لقال : حسبي . لقد عملت ماعليّ ، وبذلت الجهد ، فاذا النجاح مستحيل ، وقد آن لي ان انسحب واقعد في بيتي

ولكن الانسحاب لامكان له في منهج محمد ، وكلمة المستحيل لاوجود لها في معجمه ، واذا لم ينجح في مكة فلينتقل الى غيرها . فان الدعوة للدنيا كلها ، وللعصور كلها - وانتقل الى الطائف ، والنقلة الى الطائف عسرة ، والطريق اليها طويل ، ولكن محمداً ﷺ لايصرفه عن الغاية عسر المسلك ، ولا طول الطريق .

وبلغ الطائف وقصد سادة ثقيف الثلاثة لعله يلقى عندهم ، مالم يلق

عند زعماء مكة ، وبدأ يعرض عليهم دعوته ، فاذا أولهم يقول له : انا أمرط [1] ثياب الكعبة ان كان الله ارسلك ... وقال الثاني : اما وجد الله احداً يرسله غيرك ... وقال الثالث : انا لا اكلمك ابداً ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لأنت أعظم من ان ارد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ، فما ينبغي لي ان اكلمك !

قال : اما ان رفضتم ماجئت به فاكتموه عني . لجأ الى نبلهم بعد ان يئس من عقلهم ، فما كانوا نبلاء ، واغروا به السفهاء والعبيد ، يلحقونه ويدفعونه ، ويسبونه ويصيحون به ، حتى اخرجوه الى طرف البلدة ، وهنا وقد بلغ الهول هذا المبلغ ، دعا رسول الله ﷺ دعاء ، ماتلوته مرة الا فاض الدمع من عيني ، وما احسب أحداً يسمعه ويفهمه ، يملك قلبه ان يسيل من الرقة دمعامن عينيه .

قال : اللهم اني اشكو اليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس .ياارحم الراحمين ، انت رب المستضعفين ، وانت ربي ، الى من تكلني ؟ الى بعيد يتجهمني ! ام الى عدو ملكته امري !

ان لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ، اعوذ بنور وجهك الذي اشرقت له الظلمات ، وصلح عليه امر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، او يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك .

وهنا موقف عجب من العجب ، الرسول في هذه الحال من الشدة ، وفي هذا الموقف الذي يُقنط اجلد الابطال ، رأى بادرة قبول للدعوة عند عند عبد ضعيف يقال له عداس ، فلم يمنعه كل مالقي من ان يبلغه دعوة الله ، وينصرف اليه ، وينسى المه وتعبه ، حتى أسلم .

هذا موقف صغير بالنسبة للرسول ، ولكنه عظيم عظيم بالنسبة الى

---

(١) انتف وامزق

دعاة البشر في كل تواريخهم ، ولا يستطيع باحث ان يلقى في الاخلاص للدعوة ونسيان الذات في سبيلها موقفا مثله لرجل آخر غير محمد .

* * *

هاهو ذا قد جرب الدعوة في مكة ، وفي الطائف ، فلم ينجح ، وصبر ثلاث عشرة سنة ، اربعة الاف وستمئة وثمانين يوماً ، كل يوم من طوله وشدته سنة ، فهل بعد هذا مجال للصبر ؟ الا يعذر لو ألقى السلاح ، بعد هذا كله وانسحب ؟

ولكن كلا !

ان قريشاً بجهلها وحماقتها تريد ان تصد النور عن الارض كلها ، تريد ان تمنع الخير عن العصور القادمة التي ستتلقى هذا النور ، تريد ان تمنع قيام بغداد والقاهرة ، وجامع قرطبة ، والمدرسة النظاميـــة ، تريد ان تطمس الحضارة التي جاء يقيمها محمد فتمتد من اقصى الغرب الى آخر جاوة ، فمـــاذا يصنع محمد ؟

يهاجر ليفتح للدعوة باباً آخر تطل منه على الدنيا

وكان هذا الباب هو يثرب التي صارت به (المدينة المنورة)

وسيّر اصحابه اليها ، وتأخر هو ، لم يترك مكة دار الفزع ، الى يثرب دار الامان ، حتى لم يبق فيها احد من المسلمين .

لم يترك الا عليا ، وهو منـه ، وهو كولده ، نام في فراشه ، ليؤدي الودائع التي كانت عنده لقريش ، ولقـد قلت من قبـل اني قرأت هــذا الخبر مئة مرة فما انتبهت الى مافيه الا تلك المرة ، حين فكرت في قريش ، كيف تودع محمداً أموالها وذخائرها رغم كل ما كان بينه وبينها ، وهل يودع حزب أوراقه ووثائقه عند فرد من حزب آخر معاد له ، لولا ان محمداً كان في امانته ، وفي قوة خلقه ، امة واحدة ، وانه كان من طراز ليس له في البشر ثان .

* * *

وهاجر مختفياً مع صفيّه وخليله شيخ المسلمين ابي بكر ، لم يختـف

من ضعف ولا جبن ، ولكنه كان كالقائد المسافر ليدير المعركة الكبرى ، فهل يظهر نفسه ويقف على الطريق ، ليحارب فصيلة لحقت به ، فيظفر عليها ، ويعطل المعركة الكبرى ؟

انها تنتظر محمداً معارك اكبر ، تنتظره بدر ، والفتح ، وهوازن والقادسية واليرموك ، وجبل طارق ، ومعارك الفتح الاسلامي ، التي امتدت من بعد سلسلة مظفرة خيرة ، نثرت شهداء الحق في كل ارض ، ونصبت راية العدل على كل جبل ، واضاءت بالاسلام القلوب والبلاد في كل مكان ، وتنتظره المعركة مع الجهل والفقر والظلم والفسق ، وسائر الاوضار الخلقية التي جاء ليطهر المجتمع البشري من آثارها .

ودخل المدينة لايرفرف على رأسه علم ، ولا يمشي وراءه موكب ، ولا يقرع له طبل ، ولكن ترفرف على رأسه راية القرآن ، وتمشي وراء العصور القوادم ، ويخفق له قلب التاريخ مابقي في الدنيا تاريخ .

وختمت في تاريخ الدعوة صفحة ، وفتحت صفحة اخرى ، ومضى عهد الضعف والاذى وبدأ عهد القوة والظفر ، وكانت الهجرة هي الحد الفاصل بين العهدين .

* * *

فيا أيها المسلمون

اذكروا كلما احتفلتم بالهجرة ، انها كانت هي الحد الفاصل بين الذلة والعزة ، والخيبة والنجاح ، وانها كانت الفصل الاول في كتاب المكارم والمفاخر والامجاد وان على المسلم كلما ضاقت به سبل النجاح في حي او بلد او قطر ، ان يهاجر الى حيث الظفر والعزة والحرية ، وحيث يكون ذلك كله ، وحيث تسود العدالة ويعم النور ، وحيث ينادي المنادي :

لااله الا الله محمد رسول الله – فذلك وطن المسلم !

من صور الهجرة

نحن الآن في مكة والحرب قائمة بين التوحيد والشرك ، بين الاصلاح والجمود ، بين محمد وقريش ، وبذلت قريش قوتها ، وبذلت قريش مالها ، وقدمت دنياها كلها ، في شيء واحد : هو أن تمنع هذا الخير عن الدنيا .

قال محمد : افتحوا لي الطريق لأخرج الى الأرض الفضاء ، فأنصر الضعيف ، وأنجد المظلوم ، وأعيد للبشرية كرامتها ، وللعقل سلطانه .

قالوا : لا .

قال : افسحوا لرسالتي لتنطلق في الزمان ، فانها ليست لبلد واحد ، ولا ليوم واحد ، قالوا : لا ! ولكن تعال نملك ان شئت علينا ، ونمنحك أموالنا ونجعلك سيّد هذا البلد كله . وسخر التاريخ من قريش ... يدعوهم محمد ليعطيهم سيادة الارض ، وزعامة الدنيا ، ويضع في أيديهم مفاتيح الكنوز : كنوز المال ، وكنوز العلم ، ويمنحهم مايملك كسرى وقيصر ، وهم يدعونه ليعطوه إمارة هذه القرية ، النائمة بين جبلين ، وراء رمال الصحراء .

وانطلقوا يؤذونه ، ويتوعدونه ، لعل الترهيب يفعل فيه مالم يفعل الترغيب .

رموا في طريقه الشوك وهو ماش ، وألقوا عليه كرش الناقة وهو ساجد ، ورموه في الطائف بالحجارة وأسالوا دمه ، وهزئوا به ، وسلطوا عليه سفهاءهم .

فلم يثر هذا كله غضبه ولكن أثار إشفاقه ، اشفاق الكبير على الاطفال المؤذين ، والعاقل على المجانين ، وكان جوابه : اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون .

ولم يصرفه عن وجهته شيء ، الا إن صرف القمر عن مسيره في قبة الفلك زرّ وردة تلقيه عليه ، او حجر ترميه به .

وآذوا المسلمين الأولين ليفتنوهم عن دينهم ، وعذبوهم ، وكانوا يبطحون المسلم عاريا على الرمال الملتهبة التي يشوى عليها اللحم ، ويضعون عليه الصخرة الهائلة ، ويلوّحون له بالماء ، ويقولون: اكفر برب محمد حتى نسقيك وننجيك، فيقول : أحد ! أحد !

وتشغله لذة المناجـاة ، عن لذعة العذاب ، ونشوة الأمل بالجنّة ، عن شقوة الألم في الدنيا .

احتملوا في سبيل الله كل شيء ، الضرب ، والجرح ، والحرق ، والجوع ، والسهر ، واستحلَوا في سبيل الله المرائر ، واستحبوا أبغض المكاره الى النفوس ان كان فيها رضا الله .

ودعاهم الرسول الى ما هو أشد من هذا كله ، الى فراق الوطن ، وترك الأهل ، وأن يمشوا فراراً بدينهم الى بلاد ليسوا منها ، وليست منهم ، ولا لسانها لسانهم ، ولا دينها دينهم ، الى الحبشة يجاورون فيها النصارى ، ونصارى الحبشة أولى بهم من مشركي العرب ، ولتجدن أقرب النـاس مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى[1] ، فخرجوا من منازلهم وهجروا أهليهم، ومشوا الى الحبشة فلحقهم أذى قريش الى الحبشة .

وأوغلت قريش في كفرها وصدها وعنادها ، ولكن هل تقدر قريش أن تطفىء نور الله ؟

ان البخار الذي من طبعه الانطلاق الى العلاء لايحصر في زجاجة ، وان حصرته وجد منفذاً او مزق الاناء ، وكذلك صنع الاسلام .

وهاجر المسلمون مرة ثانية ولكنها هجرة الى ديار عربية ، الى قرية قدّر لها ان تبقى الدهر كله خاملة ضائعة وراء الرمل ، حتى تتشرف بمحمد ، فاذا هي أم المدائن ، وعاصمة العواصم ، منها تنبع عيون الخير والهدى لتسيح في الأرض ، فتسقيها وتعمها بالخيرات ، واليها تنصب أنهـار الملك والغنى والسلطان من كل مكان .

---

(١) انظر سياق الآية وسبب نزولها في التفاسير الموثوقة .

هاجر المسلمون جميعاً ولم يبق في مكة الا النبي ورجلان اثنان ، مرافقه في السفر ، ووكيله في مكة . رجلان كانا اول من أسلم . وآخر من هاجر سيد الكهول ابو بكر وسيد الشباب عليّ .

تأخر محمد كما يتأخر الربان الشريف على ظهر الباخرة الميئوس منها فلا ينزل حتى ينزل الركاب جميعاً .

وكما يتأخرْ الراعي الأمين ، عند المفازة فلا يجوز حتى يجوز القطيع كله .

تأخر يحمي اتباعه ، ويستقبل بصدره الخطر .

وجاء الخطر على أشد صوره وأشكاله .

اتفق زعماء قريش على ارتكاب اكبر جريمة في تاريخ الجنس البشري .

جريمة لو تمت ، لما كانت في التاريخ دمشق ولا بغداد ولا القاهرة ولا قرطبة ، ولا كانت للراشدين دولة ، ولا للامويين ، ولا للعباسيين ، ولا فتح بنو عثمان القسطنطينية ، ولا بني الأموي ، ولا النظامية ولا الحمراء ، ولما قامت الحضارة التي قبست منها اوربا حضارتها : من الشام في الحروب الصليبية ، ومن الاندلس بعد ذلك ، ولبدل التاريخ طريقه ، ولكنا اليوم على حال لا يعلمها الا الله .

وهنا تتجلى رجولة محمد وشجاعته ، وثبات أعصابه ، وهنا يظهر نصر الله لأوليائه - حين فتح محمد الباب ، وخرج يشق صفوفهم ، يقتحم الجموع ، التي جاءت تطلب دمه ، وروعتهم المفاجأة ، وأعمت ابصارهم ، وما عادوا الى أنفسهم حتى كان محمد قد مضى ، وصحوا كأن حلماً مرّ بهم ، وشقوا الباب ونظروا ليتوثقوا ، فرأوا فراش محمد وفيه رجل نائم ، ففركوا عيونهم وتنفسوا الصعداء .

* * *

وأدركت قريش الحقيقة بعد ما مضى محمد ، وعم الصريخ مكة وضواحيها ، وخرج القرشيون فرساناً ومشاة يركضون خيولهم ، ويعدون الى كل ناحية ، يتلفتون مذعورين .

مالهم ؟ مالهم وهم حماة الديار ؟ وفرسان المعارك ؟ قد أطار الفزع ألبابهم وصدع الذعر قلوبهم ؟ مالكم ياناس ؟ قالوا خرج محمد !

وماذا تطلبون منه ؟ أخذ أموالكم ؟

قالوا : معاذ الله انه الأمين المأمون أداها عن آخرها ؟.

أجرم جريمة فأنتم تطلبونه بها ؟

قالوا : حاشا لله ، انه أحسن الناس خلقاً ، وأطهرهم يداً .

ماذا تريدون منه ؟ قالوا : انه سيجند الدنيا كلها ، لمحاربة أربابنا وأصنامنا وجهلنا و كبريائنا ، سيضطرنا الى هدم الحجارة الجامدة ، وعبادة الله الواحد. واتباع سبيل الهدى ، والخير والسداد .

أهذا الذي تنقمون من محمد ؟

وسخر التاريخ من قريش مرة ثانية !

وعادت قريش بخزيها ، وأهاجت الجزيرة ضد محمد ، ووضعت الجوائز ، مئة ناقة لمن يأتي بمحمد حياً او ميتاً .

وكان محمد وصاحبه في الغار فلحقهم فارس وخاف ابو بكر وقال : والله ماعلى نفسي خفت ، ولكن عليك ، فأجاب محمد بالكلمة التي تجمع وحدها معجزات الايمان كلها ، مهما تعددت صورها ، من الشجاعة والتضحيه والثبات والايثار ، قال : لاتحزن ، ان الله معنا .

ان الله مع من يكون مع الله ، ان الله ينصر من ينصره ، فلا يحزن من كان الله معه .

ان جبهة معها الله ، لا تنكسر ولو كان ضدّها الوجود كله !.

* * *

ومشى الموكب الى الدنيا الواسعة . موكب صغير ، ولكنه أجل من أعظم موكب أحست بوطئته هذه الكرة التي نمشي على ظهرها ، ولم تعرف

موكباً أنبل منه قصداً ، وأبعد غـــاية ، وأخلص نية ، وأعمق في الأرض اثراً .

موكب صغير يمشي في الصحراء الساكنة، لا رايات ولا اعلام، ولا ابواق ولا طبول ، ولا تقوم له الجند على الصفين، ولا يصفق له الناس من النوافذ ، ولكن تصفق الرمال فرحاً بالذي سيضفي عليها ثوب الخصب والنمو ، وتزهى الجبال طرباً ، بالذي سيقيم عليها أعـلام النصر والعز ، وتبرز من بطن الغيب جحافل القواد والعلماء والادباء الذين انبتهم مسير محمد في هذه الصحارى . . .

حتى أشرف على المدينة .

وأقبلت جموع كالجميع التي خلفوها في مكة .

ولكن تلك كانت للشر ، وهذه للخير ، وتلك تنـــادي بالموت لمحمـد ، وهذه تنادي بالحياة لرسول الله .

وكانت هذه نقطة التحول في التاريخ الاسلامي .

كل ما قبلها هزائم ، وما بعدها انما هو نصر إثر نصر .

ولذلك جعلناها عيدنا الاكبر ، وجعلناها ابتداء تاريخنا .

* * *

ها نحن اولاء الآن على ابواب المدينة ، وقد خرجت كلها تستقبل محمداً ، ولو استطاعت من الحب لفرشت له الطريق بقطع أكبادها ، حتى يمشي على قلوبها ، وكانت تنشد نشيد الاستقبال .

طلع البـدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعـا لله داع

وهاهم الناس يسألون : أيهم هو ؟ أيهم محمـد ؟

لا يعرفونه ، لأنه لم يكن ملكاً ، ولا يلبس الحرير ، ولا تـــلوح عليه شارات الملك ، ولا يتألق على جبينه التاج ، بل كان عبداً متواضعـاً ، يلبس ما يلبس الناس ، ويأكل ما يأكلون ، ويجوع ان جاعوا ، ويشبع انشبعوا ، ولقد كان في أصحابه الاغنياء الموسرون ، ولكن محمداً أحب ان يعيش فقيراً

وأن يموت فقيراً .

وحسبوا ابا بكر هو النبي ، فكانوا يسلمون عليه ، وهو يشير الى الرسول ، يقول لهم بيده : هاهوذا محمد . واقبلوا يدعونه لينزل فيهم يتسابقون على هذا الشرف الخالد .

فماذا صنع ؟ انظروا الى لطفه ولباقته ، انه لايريد أن يؤذي أحداً بالرفض ، فقال : اتركوا الناقة فانها مأمورة ، ومشت الناقة حتى بركت عند دار أبي أيوب الانصاري .

أبو أيوب ، الذي كتب الله له أن يحضر بعدُ حربَ القسطنطينية وأن يوغل في الهجوم يريد أن يموت في أبعد مكان ، فمات ودفن على ضفاف البوسفور ، وبقي قبره يدعو المسلمين الى فتحها قروناً طوالاً ، حتى كتب الله هذا الثواب للسلطان محمد الفاتح .

نحن الآن مع محمد ﷺ في المدينة . انه يؤسس الدولة الجديدة ، فبم ترونه يبدأ ؟ بمهرجان فخم يبايعونه فيه بالملك ؟ انه لايريد الملك ! يبني ثكنة باحتفال عظيم ويجيّش جيشاً ؟ انه لا يبتغي العلو في الارض ! يفرض الضرائب ؟ لا ولكن يبدأ بعمارة المسجد .

انها ظاهرة عظيمة يحسن أن يقف القارىء عندها . يبدأ بالمسجد ، كما بدىء الوحي بآية (القراءة) و (التعليم) بالقلم .

بدأ بالمسجد ، والمسجد في الاسلام ، هو المعبد (رمز) الايمان ، وهو البرلمان (رمز) العدل ، وهو المدرسة (رمز) العلم .

ولم يغصبه بل شراه بالمال وذلك (رمز) الانصاف .

ولم يأمر ببنائه ويقعد ، بل شارك أصحابه العمل ، وحمل الحجارة بيده ، وهذا (رمز) الديموقراطية . وبناه من اللبن والطين ، بلا زخارف ولا نقوش وهذا (رمز) البساطة .

فكان من هذه (الرموز) الايمان والعدل والعلم والانصاف والديموقراطية والبساطة مجموعة شعائر الاسلام .

معلمة الرجال

هذا الحديث عن السيدة التي أثبتت للدنيا منذ أربعة عشر قرناً ، ان المرأة يمكن أن تكون أعلم من الرجال ، حتى يتعلّموا منها ، وان تكون أرجل من الرجال ، حتى يقتدوا بها ، وأن تكون سياسية ، وأن تكون محاربة ، وأن تخلـّف في التاريخ دوياً تتناقل أصداءه العصور .

لم تتخرج في الجامعة ، ولم تكن في أيامها الجامعات ، ولكنها كانت ، ولا تزال كما كانت ، تدرّس آثارها في كلية الآداب ، كما تدرس أبلغ النصوص الأدبية، وتقرأ فتاواها في كليات الدين ، كما تقرأ الأحاديث النبوية، ويبحث أعمالها كل مدرّس لتاريخ العرب والاسلام .

امرأة ملأت الدنيا ، وشغلت الناس ، على مرّ الدهور .

ذلك لأنه أتيح لها مالم يتح لأحد ، فلقد تولاها في طفولتها ، شيخ المسلمين وأفضلهم ، أبوها الصديق ، ورعاها في شبابها خاتم الرسل ، واكرم البشر زوجها رسول الله ، فجمعت من العلم والفضل والبيان ما لم تجمع مثله امرأة أخرى .

كانت امرأة ، كاملة الأنوثة ، تؤنس الزوج ، وترضي العشير
وكانت عالمة ، واسعة العلم ، تعلم العلماء ، وتفتي المفتين
وكانت بليغة ، بارعة البيان ، تبذّ الخطباء ، وتُزْري باللُّسن المقاويل .
وكانت لقوة شخصيتها ، زعيمة في كل شيء: في العلم ، وفي المجتمع ، وفي السياسة ، وفي الحرب . أما منزلتها في الاسلام ، فهي أعلى منازل التقديس ، ولكن ليس في الاسلام تقديس لأحد يعلو به عن منزلة البشر ، او يمنحه

صفات الالوهية ، او يعطيه العصمة المطلقة ، او يرفعه عن ان تقال في نقده كلمة الحق .

فهي أفضل امرأة في الاسلام بعد خديجة وفاطمة ، أما خديجة فلأن لها مزايا قلما اجتمعت لامرأة ، لها عقل لاتوازيه عقول المفكرين من الرجال ، ولها رأي ومنزلة ، وهي اول من رعى هذا الدين ، لما كان نبتة ضعيفة ، وماتت قبل ان تشهد كيف صارت هذه النبتة دوحة باسقة ، امتدت في المكان ، حتى أظلّت الدنيا وامتدت في الزمان حتى لامست فروع أغصانها حدود الخلود . أحبت محمداً وأخلصت له ، وكانت له زوجاً خير زوج ، وكانت له أماً ، وكانت له درعاً من سهام الحياة . أما فاطمة فلأنها على نادر سجاياها ، وعظيم مزاياها بضعة من رسول الله ، وحسبها ذلك فضلاً على النساء .

* * *

ولقد عد الزركشي (في الاجابة) اربعين منقبة لعائشة ، لم تكن لغيرها ، تزوج الرسول نساءه كبيرات ثيبات (زواج مصلحة سياسية او ادارية او تعليمية ، لا كما يقول الجاهلون) ، وتزوجها بكراً ، وكانت أحبّهن اليه ، وكانت آثرهن عليه . اختار الاقامة عندها لما مرض ، وتوفي بين سَحْرِها ونَحْرِها ، ودفن في بيتها ، وكان ينزل عليه الوحي وهو معها ، وكان براً بها ، قام لها لما جاء الحبشة يلعبون بحرابهم في المسجد ، فوضعت خدها على كتفه لتنظر اليهم حتى اكتفت ، وسابقها مرتين ، فسبقته اولاً ، ثم لما سمنت وركبها اللحم سبقها ، وقال لها : هذه بتلك . ولما دخل عليها ابو بكر ، وهي تقول للنبي ﷺ شيئاً مما يقوله الزوجات عند الغضب ، همّ بضربها فحماها الرسول منه ، فلما خرج قال لها مباسطاً : ارأيت كيف حميتك من الرجل ؟!

كذلك كانت معاملته ﷺ لأهله : معاملة ايناس وبرّ وانبساط ، لا كما يظن بعض الرجال ، يحسبون ان من الرجولة ان يبقى الرجل في بيته عابساً باسراً مقطباً ، وأن يأمر زوجته امراً عسكريا ، وأن يبطش بها بطش الطغاة ،

كلا . ما هكذا كان رسول الله ، ولا بهذا أمر الاسلام .

قال رسول الله ﷺ : خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي .

ومن بره بها أن فارسياً دعاه الى وليمة (قبل ان يضرب الحجاب على زوجات الرسول) ، فقال الرسول : وهذه معي ؟ (يقصد عائشة) قال : لا . وعاد فدعاه فقال : وهذه معي ؟ قال : لا . فدعاه الثالثه . فقال : وهذه معي ؟ قال : نعم ، فانظروا الى هذه السماحة من الرسول ، وهذه الصراحة من الرجل ، وقيسوهما بما نعرفون من أحوال الناس اليوم ، ولما نزلت آية تخيير زوجات الرسول ، بين الحرية والانطلاق فيطلقهن رسول الله ، وبين البقاء عنده ، بلغ من حرص الرسول عليها ان قال : لا تبادريني بالجواب ، حتى تستأمري أبويك ، خشية ان تسرع فتختار الدنيا ، فقالت : أفيك استأمر ؟ واختارت رسول الله ، وتبعتها بقية أمهات المؤمنين .

أما علمها فقد بلغت فيه الغاية . حتى قال ابو موسى الأشعري : كنا أصحاب رسول الله ، اذا أشكل علينا أمر سألنا عائشة .

وكانت بلاغتها نعادل علمها . قال الأحنف : سمعت خطب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء الى يومي هذا ، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ، ولا أحسن منه ، من فم عائشة .

وكانت كريمة النفس ، كريمة اليد ، صبرت مع الرسول على الفقر والجوع حتى كانت تمرّ عليها الايام الطويلة ، وما يوقد في بيت رسول الله نار لخبز او طبخ ، وانما كانا يعيشان على التمر والماء ، ولما أقبلت الدنيا على المسلمين أُتيت مرة بمئة ألف ، وكانت صائمة ، ففرقتها كلها ، وليس في بيتها شيء ، فقالت لها مولاتها : أما استطعت ان تشتري بدرهم لحماً تفطرين عليه ؟ قالت : لو كنت ذكرتني لفعلت .

لم يزعجها الفقر ، ولم يبطرها الغنى ، لأنها لما عظمت نفسها ، صغرت عليها الدنيا ، فما عادت تبالي اقبالها ولا ادبارها .

وأطرف ما في عائشة ، انهـــا كانت النموذج الأتم للمرأة ، للمرأة في طبيعتها وفي طموحها ، وفي مزاياها ، وفي عيوبها .

كانب خير زوجة ، والزواج هو عمل المرأة الاول ، وان اكبر غايات المرأة ان تكون زوجة وأن تكون اماً ، لا يغنيها عن ذلك شيء ولو حازت مالاً يملأ الارض ، ولو نالت مجداً ينطح السماء ، ولو بلغت من العلـــم والرئاسة ما تتقطع دونها الاعناق ، ما أغناها ذلك كله عن الزواج ولا محا من نفسها الميل اليه ، والرغبة فيه .

وكانت شابة جميلة ، تشعر بشبابها وجمالها ، ومحبة الرسول لهـا ، وتتيه بذلك على ضرّاتها ، وتتخذ من حفصة حليفاً لها عليهن ، تصارعهن بلسانها ويدها ولو خلا بيت من سخط المرأة حيناً ، وخلافها حيناً ، لخلا بيت رسول الله ، فليجد الازواج في ذلك سلوةً لهم وأسوة ، فانها طبيعة المرأة . ولكنها كانت موقرةً لرسول الله ، في رضاها وسخطها ، جاء في الحديث أنه ﷺ قال لها : اني لأعرف رضاك من سخطك . قالت : وبمَ ؟ قال : ان رضيت قلت لا ورب محمد ، وان غضبت ، قلت لا ورب ابراهيم .

وكانت مدللة ، والدلال طبيعة المرأة الجميـــلة المحبوبة ، وهو الثمرة الاولى للجمال ، وللشعور بالحب ، قالت مرة لرسول الله : كيف حبّك لي ؟ قال : كعقدة الحبل ، (أي هو متين مثلها) فكانت تسأله مرة بعد مرة ، كيف العقدة ؟ فيقول ﷺ : على حالها .

وكانت تغار ، والغـــيرة هي الثمرة الثانية لذلك ، ولكنها غيرة مقبولة ، تنبّه الحب ولا تقتله ، وتذكيه ولا تطفئه ، ورب منبّه لفرســـه بضربة شدّدها فقتلها ، ومُزْكٍ لناره بنفخة قوّاها فأطفأها .

وكانت عالمة لأن العلم لا ينافي طبيعة المرأة ، لم يمنعهـا كونها أنثى ، من ان تكون فيه للذكور اماماً .

ولكنها لما جاوزت حدّها وخالفت طبعها ، ودخلت غمار السياسة ، التي يطالب بعض النساء اليوم بخوض غمارها ، لا أقول لكم ماذا صنعت ، ولكن سلوا رحاب البصرة ، كم حوى بطنها من جثث ؟ سلوا الجمل المشؤوم ، كم سال على جنباته من دم ؟ سلوا تلك الأرواح فيم أزهقت ؟ سلوا تلك الضحايا فيم ذهبت ؟.

أنا لا أتهم السيدة بانها هي المسؤولة قضائياً ، عن هذه الأرواح ، ومن انا حتى أتهم أم المؤمنين ؟ بل أقول انها باشتغالها بما لم يخلقها الله له ، ولا يدعوها الاسلام اليه ، جرّت هذا كله . ونحن حين نكره للمرأة السياسة ، لانريد ان نستأثر دونها بمتعها ، ولا ان ننفرد بخيراتها ، بل نريد أن نزهها عن اوضارها ، ونبعدها عن نارها .

وموقف آخر في حياة السيدة هو التهمة الشنيعة التي أتهمت بها ، وهي أبعد عنها ، من الأرض عن السماء ، السماء التي نزل منها الحكم ببراءتها بآيات نقرؤها في صلواتنا الى يوم القيامة ، ولم تكن إلا درساً ألقاه الله علينا في شخص أكمل امرأة وأفضلها ، ليبتعد النساء عن مواطن الشبهات ، ولو كن تقيات نقيات ، وليعرفن انه إذا اتهمت عائشة أم المؤمنين ، فليس في الدنيا امرأة هي فوق التهم .

وبعد فلقد مرّ على عائشة أربعة عشر قرنا ، ولم تعرف الدنيا امرأة مثلها ، وما أظن أن كثيرات مثلها ستعرفهن هذه الدنيا رضي الله عنها وأعلى في الجنان منازلها .



سيدة جليلة

من سيدات المجتمع الاسلامي الاول

يا أيها السيدات اسمعن قصة هذه السيدة . سيدة ابوها عظيم ، وزوجها عظيم ، وابنها عظيم ، وهي عظيمة في مواهبهـــا ومواقفها ، عظيمة في نفسها وفي أعمالها .

سيدة ذات (مبدأ) وفت له ، وثبتت عليه . سيدة شاركت في أجلّ الاحداث ، في السلم وفي الحرب . سيدة كانت ربة بيت صبرت على مرّه ولم تبطر بحلوه . سيدة كان لهـــا من نبل القلب ، وكبر العقل ، وثبات الأعصاب ، ما لم يكن مثله إلا للقليل من عظماء الرجال .

وفي قصتها بعدُ عبرة للنساء ، وأمل لمن ابتليت بالفقر من الزوجات ، واثبات لمن يحتقر النساء ، ان المرأة قد تكون أعقل وأنبل من الرجال ، وبيان لمن لايريد بالمرأة الا أن تكون متعة ، لاهم لها الا زينتها وتبرّجها ، انها قد تترفع عن زخارف (الأزياء) ، وألاعيب النساء ، حتى تكون ركناً في بناء الأمة ، وعوناً على تحقيق مثلها العليا .

هذه السيدة يا أيها المستمعون والمستمعات . . .

أبوها المسلم الأول بعد رسول الله ، شيخ الاسلام أبو بكر ، وزوجها حواريّ رسول الله ، وأول من سل سيفاً في سبيل الله ، رائد الجهاد ، البطل السمح الكريم ، الزبير . وابنها الفـــارس البطل الشهيد ، أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير .

وهي أسماء ذات النطاقين ، أسماء العظيمة ، العجوز التي وقفت يوم مقتل ابنها موقفاً لاتقوى عليه صناديد الرجال .

وهي أخت عائشة الكبرى .

أسلمت بعد سبعة عشر انساناً ، فكانت في طليعة جيش الحق والهدى، جيش الاسلام ، الذي ملأ الأرض نوراً ، وبايعت الرسول على الوفاء لشرعة السماء ، والثبات عليها ، وبلغ من عمق الايمان في نفسها ، انها لما رأت الايمان قد تعارض مع أقوى عواطف النفس البشرية ، مع حب الأم غلّبت ايمانها على عاطفتها .

جاءت أمها تزورها ، وكانت مشركة لم تدخل بعدُ في الاسلام، فهشت للقائها بعد طول الفراق ، وتفتح لها قلبها ، وقفز ليكون بريقاً في عينيها ، وابتساماً في شفتيها ، وتحية حلوة على لسانها ، وضَمّة دافئة في ذراعيها ، ثم ذكرت أن أمها مشركة ، وان رابطة الدين أقوى من رابطة النسب ، وان الله يقول (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حادّ الله ورسوله) فتراخت الذراعان ، واغضت العينان ، وجمدت التحية على اللسان ، وأرسلت الى عائشة أن اسألي رسول الله : أ أصل أمي وهي مشركة وأستقبلها ؟

فقال الرسول ﷺ : نعم صلي أمك واستقبليها .

وعلّمها أن الاسلام لايحول أبداً ، دون عواطف الخير في البشر ، ولا يقتل ابداً دوافع النبل في النفوس .

* * *

وكان ايمانها كعقلها ، وكانت متحكمة ابداً في أعصابها .

لما كانت الهجرة حمل ابو بكر ماله كله معه ، لاليحرم منه أسرته ، بل ليعين به محمداً على دعوته ، التي كان يراها أولى من نفسه وأسرته .

وبلغ ذلك أبا قحافة والد أبي بكر وكان مكفوف البصر فجاء متأسفاً غضبان وقال :

– ما أراه إلا قد فجعكم بماله ، كما فجعكم بنفسه .

– قالت : لا ياجدي .

وأخذت حجارة فوضعتها في كيس كان يضع مـــاله فيه ، وألقته في صندوقه ، وقالت :

– تعال انظر .

ووضعت يده على الكيس .

فقال : ان كان ترك لكم هذا فقد أحسن .

* * *

وكانت الهجرة ، وهي حادث هين في ذاته ، رجلان خرجا من مكة الى يثرب ، يخرج مثلهما كثير كل يوم ، من كل بلد ، من يوم خلق الله الدنيا حتى يأذن في خرابها ، ولكنه عظيم في نتائجه ، لأنه لم يكن سفراً من بلد الى بلد ، بل انتقال الدعوة من طور الى طور ، من طور الاسرار والضعف ، الى طور الاعلان والقوة ، طور الظفر والعلاء .

وما كان لمحمد موكب تحقق فيه على رأسه الرايات وتقرع أمامه الطبول وتمشي وراءه الجند وما كان في موكبه إلا هو وصاحبه والدليل ، ولكن كانت تمشي فيه الملائكة وتحف به الرحمة ، ويهرب من أمامه الماضي الاسود ، ويتبعه المستقبل المنير .

موكب ما مشى من مكة الى يـثرب فقط ، بل الى دمشق والبصرة والكوفة ، ثم الى بغداد والقاهرة ، ثم الى قرطبة وسمرقند ودهلي ، الى الدنيا العريضة التي حمل اليها أتباع محمد الخير والهدى ، حين حملوا اليها الاسلام ، ثم مشى في الزمان الى العصور الآتيات الى ساحات الخلود . . .

موكب كان فيه رجلان وامرأة ، امرأة نابت عن النساء حين مثلتهن في هذا الموقف العظيم ، امرأة لم تقطع معها الطريق كله ، ولكن أمدتهما بالطعام والزاد ، وكذلك تصنع المرأة ، إذا لم تصل مع الرجل الى كل ميدان وصل اليه ، فان لها الفضل في امـــداده وعونه ، فلولا المرأة (المرأة اماً ، والمرأة زوجاً وسكناً) ما استطاع الرجال خوض هذه الغمرات :

كانت أسماء تعدّ الطعام وتحمله الى الرسول وصاحبه ، وهما في الغار ، وتمزقت مرة سفرتهـــا (السفرة زاد المسافر او وعاء الزاد) فشقت نطاقها (زنارها) اثنين ، فربطتها بواحد وتمنطقت بالآخر فسميت ذات النطاقين .

وكانت تعد لهما الطعام مرة ، فجاءها ابو جهل واصحابه ، في زهوه الباطل ، وكبره السخيف ، فسألها عن ابيها .

وكانت الهجرة سراً لا يعرفه في مكة إلا رجل وامرأة ، عليّ واسماء ، فأبت ان تذيع السر ، فهدّدها ، فلم تخف ، فرفع يده فضربها وهي حامل .

وكذلك يفعل الجبان

عجز عن أن يضرب الرجال فضرب امرأة حاملاً .

وكذلك يفعل الجبناء في كل عصر .

عجز اليهود عن مواجهة الابطال في الحومة فواجهوا العجائز والاطفال في دير ياسين ، ولكن ضربة أبي جهـل دمرت الشرك ، وذكرى دير ياسين ستدمر صهيون .

* * *

ولحقت أباها ، ودخلت في الموكب القـدسي الانور ، موكب الهجرة ، حتى اذا قطعت الصحراء المقفرة ، وأشرفت على أوائـل النخيـل في قباء ، وضعت عبدالله ، فكان اول مولود في الاسلام ، وكان عيد ميـلاده هو عيد ميلاد الحضارة واليمن والخير .

* * *

ياسادتي ، لما تزوج الزبير اسماء ، لم يكن له في الدنيا شيء لامال ولا عقار ، ليس له الا فرسه ، فلم يكن عليها ان تصبر على الفقر فقط ، ولا أن تروض نفسها على الحرمان ، وتخدم زوجها وحده ، بل كان عليها ان تخدم هذا الفرس ، تمشي تجمع له نوى التمر ، ثم تدق النوى وتعلف الفرس .

وصبرت على هذا كله ، وكانت مطيعة لزوجها ، حريصة على مرضاته .

رآها رسول الله مرة وهو على ناقته ، وهي تحمل النوى ، وهي اخت زوجته ، وزوجة ابن عمته ، فقال لناقته : اخ اخ . ينيخها ليركبها معه .

قالت : فذكرت غيرة الزبير فأبيت .

ابت ان تركب مع الرسول ، الطاهر المطهر المعصوم ، خوف سخط زوجها ، وما كان زوجها ليسخط ، ولكنها المبالغة في مرضاته .

ولما اعطاها ابوها خادماً ترعى الفرس ، رأت نفسها قد غدت ملكة .

ياأيتها القارئة ، يامن لها زوج فقير ، فهي تتألم للحرمان ، وتكاد تذم القدر . اسمعي بقية الخبر .

انها صبرت على هذا كله ، فكانت العاقبة انها اغتنت ، وانصبت عليها وعلى زوجها النعم ، حتى انه لما مات كانت تركته ....

من يحزر كم كانت تركة الزبير ؟ كم خلف زوج اسماء بعد جمعها النوى ودقه وصبرها على الفقر ؟

خمسة ملايين درهم ومئتي الف فقط لاغير .

لم يجمعها من الحرام ، ولا من أخذ أموال الناس ، ولا لانه قعد في المجلس فدرّس ووعظ ، وقال : انا حوارى رسول الله ، وابن عمته ، فأعطوني بل تاجر مثلما تاجر عبدالرحمن بن عوف والصحابة ، وصار كما صار الكثيرون منهم من اصحاب (الملايين)

وكذلك كان المسلمون ، كانوا رجال دنيا ودين ، ومال وتقى ، كانوا جناً في النهار ، ورهبانا في الليل .

وكان الزبير مع ذلك سمحاً كريماً ، كان له هذا المال ، وكان له الف

مملوك يشتغلون لحسابه ، ولم تجب عليه زكاة ، لأنه لم يكن يدخر شيئاً .

اما هذه السيدة الفاضلة فلم تخجل أولا من فقر زوجها ، ولم تبطر بغناه وبقيت كما كانت امرأة خير وبر واحسان .

* * *

وكانت في شجاعتها اخت الرجال مثل حماتها صفية بنت عبد المطلب .

شاركت يوم اليرموك في القتال وفعلت فعل الابطال .

ولما كانت الفتنة أيام سعيد بن العاص ، واضطرب حبل الامن ، اخذت خنجراً فجعلته على جنبها ، لتدافع به عن نفسها وبيتها ، ولو ان كل فتاة تعرف كيف تدافع عن نفسها ، لا بالخنجر ، فما نحتاج الآن الى الخناجر ، بل بأن تمشي مرفوعة الرأس ، ثابتة النظر ، شاعرة بالكرامة ، وبأن ترد كل متعرض لها ، طامع فيها ، كما ترد الكلب العقور ، لذهب من الارض ثلاثة أرباع الفساد .

وكانت فصيحة بينة ، أديبة شاعرة ، ولها في رثاء زوجها مقطوعات .

* * *

وها كم موقفها العظيم حقاً ، الموقف الذي لم تقفه امرأة اخرى ، وهل سمعتم ان اماً تحكم على ولدها بالموت ؟

كان عبدالله قد ملك الحجاز والعراق وفارس وخراسان ، وانقادت له مصر ، وكان له في الشام حزب ، والتقت في كفه اطراف دنيا الاسلام ، ولم يبق لبني امية الا قليل من الشام ، ثم تقلص هـــذا الملك وانتقص من اطرافه ، وضاقت دنياه باتساع دنيا امية ، فلم يبق من جيشه الذي خفقت راياته على المشرق والمغرب ، الا نفر يحيطون به في الحرم ، ذلك كل مابقي له ، والمنجنيق ينزل عليه ، والعدو يحيط به ، وعرض عليه الفرار فأباه ، ولم يرض أن يختم هذه الحياة الطويلة ، الحافلة بالبطولات والامجاد ، بابشع خاتمة بل آثر ان يموت ميتة أبيه ، ان يسقط في المعركة الحمراء ، وسط المعمعة ، في الحرب الشريفة ، وان يغسل بالدم ، ويوسد تراب الحرم .

، وذهب يودع أمه ويستشيرها ، وكانت عجوزا مكفوفة ، قد قاربت المئة . وقال لها :

— يا أم قد خذلني الناس حتى اهلي وولدي ، ولم يبق لي أمل ، والقوم يعطونني ماأردت من الدنيا ، فما رأيك ؟

وترددت الام ، وذكرت في لمحة مولده في قباء ، وذكرت نشأته وقلبت حياته صفحة صفحة ، فكادت تغلبها نفسها وعاطفتها ، ثم ذكرت ان هذه الحياة التي تختارها لولدها ، حياه تسلبه مجده وكرامته ، والموت خير من حياة بلا كرامة ولا مجد .

فتشددت وتثبتت وقالت .

— لا يتلاعبن بك صبيان بني امية عشت كريماً فمت كريماً !

اعطت الام قرارها ،وحكمت على ولدها بالموت ، وهي تنتزع مع كل حرف من هذه الجملة قطعة من روحها ،فكأنها لم تحكم عليه وحده ، بل حكمت على نفسها أيضاً بالموت .

وضمته اليها تتحسسه وتشمه ، تأخذ من هذه اللحظات ، الذخر الوحيد الذي ستعيش به بقية ايامها .

ولما انصرف احست في قلبها بفراغ لايسده شيء ، شعرت انه لم يبق لها قلب .

* * *

اما ان هذا الموقف لوكان لامرأة فرنسية او انكليزية لنظمت فيه مئة قصيدة ، وألفت فيه مئة قصة ، ولكن اسماء كانت عربية مسلمة ، والعرب قد أضاعوا بيانهم وأدبهم ، مع ماضاعوا من تراث الجدود .

هذه (اسماء) السيدة الجليلة التي يتشرف بها تاريخ الامة الذي تكون سيرتها فيه !

أعظم قواد التاريخ القديم

ليست سيرة ابي بكر ، ولا سيرة عمر ، وليست سيرة سعد وخالد ، واولئك الابطال العظماء ، الا فصولاً متشابهة ، او نسخاً مكررة ، من سيرة المعجزة الكبرى في تاريخ البشر ، سيرة الانبعاث الاعظم لقوى الخير في الانسان ، سيرة الفتح الذي حير نوابغ القواد ، وأعلام المؤرخين .

سيرة الصحارى المتسعرات المقفرات ، التي لبثت دهوراً لاتسقى بغير الدم ، ولا تنبت غير الاحقاد والثارات ، فلما مرّت يد محمد على هذه الصحارى ، انبتت رمالها الدوحة الباسقة التي ظلّلت الشام ذات الاعناب ، والعراق ذات النخيل ، ومصر ذات النيل ، والقسطنطينة ذات الابراج والقباب ، وماشرّق من الارض وما غرب ، دوحة العدل والحضارة والخير

سيرة (الجندي) الذي كان منزوياً وراء الرمال ، نائماً في وهج الشمس ، لايعرف المجد الا في الحب والحرب ،في كأس او قصيدة، او غزوة سلب ونهب ، فلما هذبته مدرسة محمد ، صيرته الجندي الاكمل في تاريخ الحروب ، لم يعرف التاريخ جندياً اخلص منه لفكرته ، ولا اقدم منه الى غايته ، ولا يعرف نفساً اطهر من نفسه ، ولا سيفاً أمضى من سيفه ، الجندي الذي مشى في كل واد ،وصعد كل جبل ، خاض البحار ، وعبر الانهار ، وجاب الارض كلها ، حتى نصب للاسلام على كل رابية راية ، وابقى للاسلام في كل ارض وطناً لاتقوى على استلابه من أهله مرده الشياطين .

المدرسة التي اخرجت هؤلاء القواد الذين دانوا التاريخ ، وكانوا اعاجيب في الذكاء والمضاء والعبقرية ، وما تعلموا في كلية عسكرية ، ولكنهم

تعلموا في هذه المدرسة فخرجوا منها بـ (شهادة) الدنيا التي فتحوهـا ، والحضارات التي اقاموها ، والمآثر التي تركوها ، اعظم القواد واجلّ الابطال سعد هادم عرش الطغيان الفارسي في القادسية ، وعمرو باني صرح الحضارة الاسلامية في مصر ، وابن نافع بطل المغرب وقتيبة وابن القاسم بطلا المشرق، والعشرات الذين ساروا في موكب النبوغ العسكري العربي الى سوح الخلود ، وكان اعظمهم بلا جدال ، بل كان اعظم قائد في التاريخ القديم كله بشهادة نابليون ، وششترازه ، وشهادة سيرته واخباره وشهادة من سماه (سيف الاسلام) وحسبكم بها وحدها شهادة : خالد بن الوليد .

* * *

خالد الذي بدا ينبوغه العسكري من صغره ، فكان قائد فرسان قريش ، ولولا الاسلام ، لبقي نبوغه حبيس مكة ، واسمه لقريش وحدها . ولكان منتهى امره ان يكون فارس قبيلته ، ولولا الاسلام لما خرج نبوغ خالد من بوادي الحجاز ، ولما قضى سيف خالد على كتائب فارس والروم . ولما نقش اسم خالد مع اسماء القواد الخالدين . خاض خالد المعارك حياته كلها فما أخطأه النصر ، ولا أفلت منه بعدما ظن انه امسكه بيده الا مرّة واحدة كان خصيمه فيها رجلا لايقاس به الرجال ، وكان خصمه رجلا لا يعاب احد بالهزيمة امامه ، لانه لايستطيع احد ان يحارب الله ورسوله .

اقام رسول الله الرماة في احد ، على الجبل ،وامرهم الا يزايلوه ، فلما انهزمت قريش ، وولت واقبل المسلمون على الغنائم ، وخالف الرماة وظنوا انه النصر الاكيد ، رأى ذلك خالد وكان قائد فرسان قريش ، فوثبت عبقريته ، وتيقظت ، لتحوّل هزيمة قريش نصراً ، وهجم فزلزل بعض المسلمين وفوجئوا وهربوا . ولكن رسول الله وقف أمامه بقليل من الرجال المثخنين بالجراح المحطمين من التعب . فلم يستطع خالد بعبقريته وفرسانه اختراق هذا السد من الاجساد المحطمة ، لأن في هذه الاجساد ايماناً ...

واذا كان البارود يرتد امام الاسمنت المسلح بالحديـد ، فان قوى الشر كلها ، والقنبلة الذرية معها ، ترتد كلها امام اللحم والدم ، اذا كان مسلحا بالايمان .

وكان خالد يعلم مدى نبوغه وقدرته ، فلما رآها لم تصنع شيئاً ، ورأى النصر قد انتزع بعدما صار في كفه ، تيقن انه ليس امام بشر مثله ، ولكنه حيال شيء فوق البشرية . وما طالت به الايام حتى علم انها النبوة .

وضعفت عبقرية الارض امام وحي السماء ، وأسلم خالد اسلام اقتناع ويقين ، ونقله الاسلام من افق الى افق ، ورفعه من جو الى جو ، حـــتى اشرف بهعلى الدنيا كلها ، فاراها هذه العبقرية التي كانت حبيسة في بطن مكة ، لاتراها الدنيا .

كان يرى الظفر ، ان تنكل قبيـلة من العرب ، بقبيـلة من العرب ، وان يذبح العربي ابن عمه العربي ، ابتغاء الغزو ، او اظهار الشجاعة ، او طمعاً بغنيمة وكسب ، فصار بعـد الاسلام ، يرى الظفر في ان يدفع عن الحق ، اعداء الحق ، ولو كانوا اشد قوة ، واعز نفراً ، وكان أول امتحان له في الدرس الجديد الذي تلقاه في مدرسة محمد ، يوم مؤته .

حين التقى ثلاثة آلاف عربي ، ممن تخرج في هذه المدرسة ، بمئتي الف ، وحين قضى القائد الاسلامي شهيداً في المعركة ، فأخذ الراية خلفه جعفر فقضى ، فأخذ الراية ابن رواحة فقضى ، فلم يجدوا من يولونه القيادة الا خالداً .

وحمل الراية ، وما معه الا بقية الثلاثة الآلاف ، وحوله من العدو مئتا الف ، وليس في الدنيا قائد يستطيع ان ينقذ هذه القبضـة من الرجال ، من وسط هذا اللج ، الا أن يأتي باعجوبة ، وقد أتى بها خالد .

واستطاع ان يخرج من لجة البحر من غير ان يبتل ، وان (ينسحب) من وسط اللهب من غير ان يحترق ، وان يسجل للذكاء العربي ، الذي هذبـه الاسلام ، هذه المنقبة في تاريخ الحروب .

* * *

ولم تكن بعد ذلك معركة في تاريخ الجهاد الاسلامي ، الا كان فيها خالدٌ البطلَ المعلم ، والقائد العبقري ، ويوم نفخ الشيطان في آناف الاعراب فارتدوا بعد محمد ، وارادوا ان يزلزلوا بناء الاسلام ، كان من نعم الله على خالدٍ ، ان جعل على يديه تثبيت البناء ، وان يرد عنه عادية المخربين .

فلما استقر الامر في الجزيرة ، وثبت العرب على الاسلام وكتب الله لهم ، شرف حمل النور الهادي ، الذي جاء به محمد ، الى آفاق الارض ، ليضوّئوا القلوب بالايمان ، والعقول بالعلم ، والارض بالعدالة والامان كان خالد في مقدمة الابطال الذين قادوا هذا الزحف المبارك ، فمشى اولا ، الى العراق ، ليواجه الدولة الطاغية المتجبرة ، دولة كسرى ، فخاض فيه سلسلة من الوقائع المظفرة ، كانت المعاول الاولى ، التي صدعت هذا الصرح العاتي .

ولما جاءه امر الخليفة بان يذهب الى الشام ، اتى بما لم يأت بمثله الانفر من عباقرة القواد في تاريخ الحروب في الدنيا ، حين اقتحم البادية ، بادية الشام .

ومن المعروف ، ان الجيش العربي ، اجرأ جيش واخفه واسرعه انتقالا ، شهد بذلك الاصدقاء والاعداء على السواء ، ولكن الجيش العربي لم يعرف حركة اجرأ ولا أسرع ولا أعجب ، من انتقال خالد بعشرة الاف ، من العراق (من الحيرة) الى الشام ، مخترقا الصحراء التي ليس فيها نقطة ماء الا ماحمله على ظهور الابل ، وما ابتكره من حمل الماء في بطونها ، وكان جنده يطيعونه ويتبعونه راضين ، واثقين ، ولو كلفهم خرط القتاد . رحلة عجيبة لايتسع الوقت لوصفها ، فارجعوا الى من شئتم من المؤرخين فسلوه ماخبرها تسمعوا قصة من اروع قصص المغامرة ، ومثلا من اعلى امثلة الرجولة والعزم

* * *

وماذا تظنونه صنع بعدما وصل ديار الشام ؟

ان الواحد منا يقطع هذا الطريق اليوم ، في سيارة (نرن) ، مضطجعاً يأكل ويدخن ويتحدث وينام ، وعنده المدفأة في الشتاء ، والمروحة

في الصيف ، فلا يشكو برداً ولا حراً ، ثم اذا وصل استلقى من تعبه على الفراش ...

وخالد ، قطعه على ظهور الابل ، تحت شمس الهاجرة ، ووسط برد الليل ، مع الجوع والعطش والخوف ، فلما وصل ، رأى امامه جيشاً كثيفاً من الروم ، وجيشاً أكثف منه يتجمع قريباً منه ، والمسلمين فصائل ليس لها قيادة موحدة ، فما شكا تعباً ولا ابتغى راحة ، ولا انتظر الاوامر من المدينة ، بل حمل التبعة كاملة ، وبادر الى العمل ، فجمع الفصائل الاسلامية وقادها ، وعمد الى الجيش الرومي الادنى ، فضربه في (اجنادين) ضربة ، اذهبت روعه ، واطارت صوابه ، ومزقته شر ممزق ، ثم وثب الى الجيش الآخر ، في اليرموك .

واليرموك ، هو اليوم الاغرّ في سيرة خالد ، وهو من أيام الاسلام المعدودات .

ولقد كنت اتمنى ان أفصل لكم حديث هذا اليوم ، ولكن الوقت لايتسع لتفصيل ولا إيجاز ، ماهي الا اشارة وتذكرة ، وكان العرب لايزيدون على خمسة واربعين الفا ، سلاحهم ضعيف ، ومنزلهم بعيد ، والميرة والمدد منقطعان عنهم ، الا ان ينتظروا اياماً لاتنتظرها المعركة ، والروم نحو مئتي الف قد احتلوا من اليرموك موقعاً حصيناً ، ومعهم الذخائر والميرة ، وهم في بلاد كانوا يحكمونها ، ويملكون مواردها وخيراتها ، وان تكن بلاداً عربية من الازل ، وكانوا على تعبئة فنية ، والعرب بشجاعتهم ، وقوة قلوبهم ، لايعرفون التعبئة ، انما يعرفون الهجوم هجوم النمر الكاسر ...

... ولم يكن خالد رأى تعبئة حربية من قبل ، فلما رآها لم يُستَطر لبه ، ولم ينخلع قلبه ، بل احاط بها بنظرة ، وتعلمها في لحظة ، وعبأ الجيش العربي تعبئة كانت هي الاولى في تاريخ العرب .

فانظروا الى عبقرية خالد حين تعلم من نظرة ، ماتفنى الايام ، وتنقطع

السنون دون تعلمه ، والى مرونة الجيش العربي ، وذكائه وسرعة اقتباسه ، حين تلقى هذا الدرس من مرة واحدة ، وادّى فيه (الامتحان) العاجل ، وكان من (الناجحين)

وطهرت هاتان المعركتان ارض الشام ، من الروم ، وعادت عربية مسلمة ، وكانت احدى حسنات خالد .

* * *

واسمعوا الان خبر اعظم نصر ناله خالد .

لقد انتصر على خصوم قريش في الجاهلية ، وانتصر على مشركي قريش في الاسلام ، وانتصر على المرتدين حتى ردّهم عن ردّتهم ، وأيقظهم من سكرتهم فعادوا الى طريق الحق والهدى ، وصاروا جندهما واعوانها ، وخضع لعبقريته اكبر جيشين عرفها التاريخ القديم : جيش كسرى وجيش قيصر ، ولكن اعظم انتصار ناله خالد ، هو انتصاره على نفسه .

تلك الانتصارات حاز مثلها قواد كثيرون ، من قواد المبادىء كخالد وسعد وابن العاص ، وقواد المطامع كانيبال (هاني بعل) والاسكندر ونابليون ، وقواد التخريب والتدمير كجنكيز وهولاكو وتيمور ، ولكن هذا الانتصار لم يحزه قائد قط قبل خالد ، ولا سمعنا انه حازه قائد بعده هو انتصاره على نفسه ، على ميوله وغرائزه ، على طبيعته الارضية .

وذلك انه لم يكد يفرغ من اليرموك ، ويقف ليقطف ثمرة النصر : التهاني والدعوات ، حتى لقيه كتاب العزل ، وكان قد وصل من قبل المعركة ولكن ابا عبيدة كتمه حرصاً على المصلحة ، ووفاء لخالد .

وعمر لم يعزله بغضاً به ، ولكن ضحى به في سبيل المبدأ ، في سبيل التوحيد ، رأى الجند متعلقين به ، معتمدين على عبقريته فعزله ليفهمهم ان النصر من الله ، وان الله ينصرهم بخالد وبغير خالد ، ليتكلوا على الله لاعلى بشر مهما سما .

ثم انه لم يعزله ، انما يعزل من يولى وخالد لم يولّ القيادة العامة ، بل كانت (شاغرة) فعين لها ابا عبيدة .

ولسنا في الكلام عن عمر ، ولكنا في الكلام عن خالد ، افتدرون ماذا كان اثر العزل في نفسه ؟

قال : والله لو ولّى عليّ عمر امرأة لسمعت وأطعت !

الله اكبر . هذا والله النصر الحق .

رحم الله خالداً ، ورضي عنه وجزاه خيراً .



قاهر كسرى

نحن الآن في قرية صغيرة ، في واد ضيق ، ليس فيه زرع ولا ضرع ولا بساتين ولا عيون ، تفصلها عن العالم صحارى بعد صحارى ، يضل فيها الهدى ويَخاف فيها الخوف ، وتشكو حرّها عند الظهيرة الشمس ، وتسأم سكونها في الليالي النجوم ، فيها قبائل تتنقل كما تتنقل اكوام الرمل ، وتقتتل كما تقتتل وحوش البراري ، لاتجمعها جامعة ، ولا تقودها حكومة ، ولا يهديها دين ، الا ديناً يدفعها الى عبادة اصنام من حجر ، ولا يمنعها من شر ولا ضرر و ليس لها من علم ، الا علماً هو الفاظ منمقة بليغة (هي الشعر) ، وخرافات مهوشة مضحكة (هي الكهانة)

تلك هي مكة ، واولئك هم العرب .

وكان يسير في مكة شاب عمره تسع عشرة سنة ، قصير القامة عظيم الهامة ، شديد التركيب ، ضخم الجسد ، كثير الشعر كأنه أسد صغير ، أو كأنه ركيزة متينة من الاسمنت المسلّح ، وكان يمشي الى الكعبة ليصلي لهبل وهاتيك الاصنام صلاة الصباح .

وكان الشاب سعد بن أبي وقاص .

وكان في مكة كهل يجلّه هذا الشاب ويوقره ويتخذه اماماً فلقيه في ممشاه فأخذه ناحية واسرّ اليه كلاماً ، توجها بعده الى دار متوارية وراء صخرة عند جبل الصبا ، وهنالك تشرّف هذا الشاب بالانضمام الى اتباع الدين الجديد فصاروا به سبعة .

سبعة نفر فقط ، ستة رجال وصبي لم يكفر بالله قط وهـو عليّ ابن عم رسول الله ﷺ .

سبعة كان عليهم ان يحملوا امانة الاسلام حتى يوصلوها الى كل مكان في الارض ، ولم ييأسوا من ايصالها .

وتزايد عددهم حتى بلغوا الاربعين ، وانضم اليهم الرجـل القويّ العبقري العظيم عمر ، فخرجوا يعلنون دينهم بمظاهرة ، مظاهرة مشى فيها اربعون رجلاً فقط ، أربعين متراً فقط ، ولكنهـا كانت أعظم مظاهرة في التاريخ لانها لم تقف عند آخر هذا الطريق القصير من الصفا الى الكعبة ، بل مشت ، مشت في البـلدان ، ومشت في الزمان ولا تزال تمشي ، حتى طـافت الارض ، وجزعت القرون .

وكانت معركة الكفر والاسلام ، وكان في المسلمين مسالمون ومناضلون ، وكان (سعد) ممن صاول وناضل .

وبشر محمد اتباع دينه بان الظفر لهم وانهم سيغلبون كسرى وقيصر فسخرت منهم قريش ، لانهـا كانت ترى النصر على كسرى وقيصر احد المستحيلات .

ولكن محمد كان واثقاً .

ولما استخفى محمد وصاحبه في الغار ولحقه سراقة ليقتـله قال له محمد : كيف بك ياسراقة اذا لبست سوارى كسرى ؟

ولم يصدق سراقة وظن محمداً مجنوناً كما كانت تقول قريش .

* * *

وانتقلت المعركة من صراع فردي ، الى حرب منظمة وقدر لهـذا الشاب ، سعد بن أبي وقاص أن يكون له شرف اطلاق اول سهم في الاسلام شرف ابتداء الحرب المقدسة على الكفر والبغي والشر والفساد .

وقدر له ان يدافع عن الرسول ﷺ في احد ويحميـه بنفسه ، وكان

الرسول يناوله السهام ويقول له : ارم فداك أبي وأمي ، وما فدى رسول الله بأبويه غيره .

وقدر له ان يكون بطل معركة من أعظم معارك التاريخ المعركة التي انهد فيها عرش كسرى ، اقدم عروش الطغيان على ظهر الارض ، وسقط فيها تاجه ، وان يكون له فيها شرف (فتح) ابواب العراق وفارس لنور الاسلام .

اتقدم بكم الان قليلا في السنين ، لقد تبدلت الدنيا وشملت المعجزة الجزيرة العربية كلها ، فذهب الخلاف بين القبائل ، وجاءت (لأول مرة في التاريخ) وحدة عربية تحت راية الاسلام ، ووصلت جداول النبع الذي انبثق من حراء الى أطراف الجزيرة ، بعدما سقتها جميعا ، وغمرتها بالخصب واليمن والبركات ، وبلغت رسل محمد حدود العراق تحمل النور والعدل والسعادة الى الدنيا ، ولكن العدو وقف امامها يمنعها من أن تحمل الى الدنيا السعادة والعدل والنور . من ؟ العدو القديم ، فارس .

ولم تكن عداوة دولة لدولة ،ولم تكن تنافساً في سلطان ، ولا تزاحماً على ارض ، بل شيئاً اعمق من هذا كله ، خلافاً بين نظامين ، بين الشرك وتأليه كل شيء وبين الوحدانية التي تعتقد انه لايحيي ولا يميت ، ولا يضرّ ولا ينفع ، ولا يعطي ولا يمنع الا الله ، بين العقل الذي استعبدته الخرافات والاوهام ، والعقائد الباطلة ، والعقل الحرّ الذي لايعبد الا من خلق العقل ، ومكّن له هذا التمكين ، واعطاه هذا السلطان ، بين الملكية الاستبدادية المتوارثة ، وبين الرياسة الشورية الانتخابية .

تنازعاً بين الرجعية الماضية التي تتبع ماوجدت عليه الآباء ولو كان الكفر والجهل والضلال ، وبين الأمامية [1] ، التي تتبع سبل الخير انى توجهت في الخير السبل .

(١) او التقدّمية كما يقولون ، وصوابها اليَقْدَمية او التَقْدَمية .

انتقل بكم الى (القادسية) الى المعركة التي نشبت لتحدد مصير العالم ،
أإلى الامامية البصيرة أم الى الرجعية العمياء ..

الى الجبهة ...

هاهنا جيش عربي فيه ثلاثون الف مقاتل ، فيهم آلاف مؤلفة من النساء
النساء الممرضات المدافعات الدّينات الصينـــات ، العفيفات الشريفات ،
لاالمتبرجات ولا المكتشفات ،جئن مع ازواجهن أوجئن مـع آبائهن ، فكان
مع فرقة النَخَع وحدها سبعمئة امرأة منهم ، ومع بجيلة الف امرأة ، وكان
الجندي العربي لايجيء إلا متطوعاً ، وكان هو الذي يعدّ لنفسه الراحلة ويعدّ
لنفسه السلاح ، ويعد لنفسه الزاد ، فان لم يجد مايتزود بـه ، عاش على التمرة
او التمرات اليوم كله ، فهل سمعتم ان في تاريخ البشر جميعاً مثل هذا الجندي

انه المثل الاعلى في الجندية في كل مكان وكل زمان ، كان يقـاتل وهو
جائع ، ويقاتل وهو تعبان ، ويقاتل وهو مثخن ، ويقـاتل وهو مريض ،
قاتل في الصحارى المتوقدة في المناطق الحارة ، وقاتل على السفوح المغطـــاة
بالثلج في المناطق الباردة ، وقاتل في آسيا وفي اوربا وفي افريقية ، وقاتل في
البر، وقاتل في البحر ، وكان الشاب يقاتل ،والشيخ يقاتل ، والمرأة تقاتل ...

وزرع شهداءه في كل ارض ، وسقى بدمه كل ميـدان ، حتى نشر
راية القرآن على ثلث المعمور من العالم في ثلث قرن .

وما قاتل قط الا فئة اكثر عَدداً ، واكمل عُددا ،وما قاتل الا انتصر
وما قاتل الا دفاعاً عن الحق والخير والمثل الاعلى ...

* * *

وكان امامه جيش فيه مئة وعشرون الفا ، جيش منظم مرتب ، يقدم
للجندي فيه الطعام واللباس والسلاح والمطايا ، جيش معه الذخائر ومعه المال
ومعه الدنيا .

ولكن لم يكن مع الله فلم يكن الله معه .

ولست اقدر ان اصور لكم معركة القادسية في ربع ساعة ولا ذلك بالمستطاع .

ولكن اعرض عليكم لوحات منها :

طلبت القيادة الفارسية من سعد ان يبعث اليهم بجماعة يفاوضونهم ، يبينون لهم ماذا يريد العرب ، فارسل اليهم واحداً هو المغيرة بن شعبة .

وهنا يتجلى لكم وجه فارس ووجه الاسلام .

حشد الفرس مااستطاعوا من الابهة والفخفخة ، وفساطيط الحرير ، وستائر الديباج ، والوسائد المرصعة ،والجند بابهى الثياب ، وافخم الازياء ، وجاء المغيرة ، بثيابه التي لايملك غيرها ، بثيابه المرقعة ، وعباءته البالية ، وسيفه الملفوف بالخرق ، وارادوا نزع سلاحه فأبى وثار في وجوههم ، على انفراده وكثرتهم ،ثورة الاسد بأمة الطواويس ، فاجفلوا وارتاعوا وتركوه يدخل كما هو ، فاقبل يطأ على هذه البسط وهذه الوسائد مزدرياً لها ، مشمئزاً منها ، ومن كان همه الحقيقة لايبالي بالمظاهر ، وقد علمهم محمد ان التقى تقى القلب ، وان العظمة عظمة النفوس ، وان متاع الدنيا ظل زائل ، حتى بلغ سرير رستم فجلس عليه ... فطارت عقولهم وصاحوا به ، فقال :

– يامعشر العجم ، قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ، ونحسب ان لكم عقولا ، فالان عرفت انكم لاعقول لكم ، وانكم ترضون ان تكونوا عبيداً لامرائكم ، ونحن لافرق فينا بين امير ومأمور ، بل الامير فينا هو اكثر الناس عملا ، واثقلهم حملا ، لان الامارة فينا واجب وتكليف ، لالذة وتشريف ...

فتركوه

وقال له رستم – واسمعوا هذا الحوار الذي يدلكم على ماصنع محمد بالعرب .

يحسب رستم ان هؤلاء الذين اقبلوا بجيوشهم على ارض فارس ، هم

العرب الذين يعء فهم من قبل ، والذين كانوا يهابون عاملا من عمال كسرى ، وهو النعمان ، ويسمونه ملك العرب ، وانهم لايأتون الا طالبي رزق ، او سائلي حاجة ، ولم يدر اي روح وضعها فيهم محمد ، واي خلق جديد خلقوه مذ شرفهم الله برسالته .

قال : اننا نعلم سوء حالكم ، وفقركم واقفار بلادكم ، وانكم كنتم تأتوننا سائلين راغبين ، وانني سأعطي كل واحد منكم حمل بعيره قمحاً وتمراً ، واعفو عن جرأتكم علينا .

قال المغيرة : لقد كنا على شر مما ذكرت ، وكنا نأكل من الجوع الحشرات والهوام ، وكان احدنا يقتل ابن عمه ليسلبه ماله ، وكنا اهل جهالة وضلالة ، ولكن الله بعث فينا نبياً ، ارشدنا الى طريق الهدى ، ودلنا على ابواب الخير ، فألّف الله به بين قلوبنا ، وانار به عقولنا ، واثار به هممنا .

ومضى يشرح له مزايا الاسلام .

واراد رستم ان يداعبه وان يصغر منه فاشار الى سيفه محتقراً ، وجاء بسيف مرصع باللآليء والجواهر ، وقال : خذ هذا بدله .

فسلّ المغيرة سيفه ، فبدا كأنه شعلة نار ، وضرب به سيف الفرس ، فقطع سيف محمد الملفوف بالخرق سيف رستم المرصع بالجواهر واللآليء ، وقال : والان اما الاسلام او الحرب . فنخر رستم لما ذكر له الجزية وشخر ، وعتا وتكبر ، وقال : لولا انك رسول لقتلتك ، ولكن غداً ، غداً سامحوكم من الارض محواً .

* * *

وهذه لوحة اخرى ، قدم الفرس الفيلة ، وكانت الفيلة يومئذ كالدبابات في هذه الايام ، ولم يكن للعرب بها عهد ، فاضطرب منها الجيش ، ولم يدر كيف يردها فانبرى لها طائفة من الابطال عمرو بن معد يكرب ، وأصحابه ، فواجهوها بالسيوف يقطعون به خراطيمها ، فولت تدوس من سيروها

ليحتموا بها ، وهكذا يقلب الله كيد الكافرين عليهم ، وينصر أولياءه ، ماداموا مخلصين في نصرته .

ان تنصروا الله ينصركم

وكان سعد مريضاً لايستطيع حراكا ، وكان مع ذلك في دار تقوم وسط المعركة ، لايتزعزع ولا يضطرب ، حتى شهدواله أن هذا المقام كان أبلغ في الشجاعة من مجال الفرسان بين الصفين ، وكان يسيّر المعركة ويأمر فيها بأمره ، وينظر ، فرأى فرسه يركبها فارس يجول فيها يصرع الكماة ، ويفرق الجموع ، ويفعل الافاعيل ، فعجب وإذا هو أبومحجن ، وكان يشرب الخمر ، فحبسه معه في الدار وقيده ، وكان ابومحجن قد رأى المعركة وهوسجين ففاردمه فقال لزوجة سعد ، اطلقيني ، ولك علي عهدالله أن أعود حتى اضع رجلي في القيد ، وصدقته ، وما كان في المسلمين الأولين من يعطي عهدالله ، ويكذب فأطلقته ، وأعطته فرس سعد ، وكان فارسا شجاعاً لايشق له غبار ، ففعل في ذلك اليوم الافاعيل .

فلما رأى ذلك منه سعد ، قال : لن احبسك في الخمر بعد اليوم ، يريد سعد ان يثير الى تركها مروءته ويحرك نخوته ، فقال أبو محجن : وانا لن أشربها بعد اليوم . فنفع فيه هذا المقال مالم تنفع قيود الحديد .

وكان الفتح ، وملك العرب ياسادة كنوز العجم وأرسلوا حصة بيت المال الى المدينة فكانت شيئاً لايتصور الا في الروايات الخيالية ، وكان من ذلك بساط طوله ستون ذراعاً ، وعرضه ستون ذراعاً فيه صورة بستان ونهر وازهار ، مصنوع من الديباج فيه قضبان من الذهب ، وانواع الجواهر يشربون عليه في الشتاء فكأنهم منه في ربيع ، وجاء مع الغنائم تاج كسرى ، وسواراه ، فقال عمر : أين سراقة ؟ سراقة الذي لحق رسول الله يوم الغار .. فجاء فالبسه تاج كسرى وسواريه ، وقال :

قل الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسها أعرابياً من بني مدلج .

وتحقق وعد محمد وخاب وعيد رستم ، فلم يمح جيش العرب ولكن محيت دولة كسرى من خريطة الدنيا .

وهاهو ذا ايوان كسرى اليوم ، الايوان الذي لم تكن تجرؤ الطير ان تطير فوقه أو النسيم ان يدخله الا باذن ، صار مقفراً خالياً ، يقوم وحيداً في الصحراء ، يسكنه البوم وتصفّر فيه الرياح ،وإلى جانبه قبر سلمان عليه بلد كامل .

القبر صار لسلمان المؤمن مدينة ، والقصر قصر كسرى ، صار يا كسرى خراباً ، تلعب فيه صبيان العرب .

* * *

هذه هي القادسية ، احدى المعارك الكبرى في تاريخ الحروب العالمية حلقة ذهبية في سلسلة الوقائع التي فتحت ابواب العالم لنور الاسلام : بدر واليرموك والقادسية وجبل طارق وعين جالوت وحطين ومعركة أخرى ياسادة ستأتي، معركة تل أبيب ،التي سيقرأ خبرها اولادنا في المدارس ، حين يدرسون ،قصة طرد اليهود من فلسطين .

نعم وانّا لها ، مافقدنا سلائفنا ، ولا أضعنا ارثنا من خالد وسعد وصلاح الدين . نعم ، وإن في قلوبنا لذلك الايمان ، وعلى السنتنا لذلك الهتاف ، وفي سواعدنا لهاتيك العزائم ، وان الشعب الذي اطاح تيجان كسرى وقيصر وخاقان ، لن يعجزه ان يطيح رأس صهيون .

مأساة عالم

أعود بكم اليوم ثلاثة عشر قرناً ، رحلة بعيدة في الزمان ، ولكني لن ابعد بكم في المكان ، سأقف بكم على باب الأموي ، الباب الجنوبي ، ثم اسير بكم وراء جدار القبلة الى هذا الزقاق الحقير الذي اتخذناه سوقاً لبيع القباقيب ، وهذه الحارة الضيقة التي لاتراها عين الشمس ، ولا يدخلها الهواء . لقد كانت هذه البقعة يوماً من الأيام ، عاصمة الارض كلها , ومدار رحاها ، ومحط كل رغبة ، ومصدر كل رهبة ، وكان فيها الغنى والسلطان ، وكان فيها الجمال والجلال ، وكانت الكلمة تخرج منها فلا يردها شيء حتى تصل الى أقصى المشرق ، وأبعد المغرب ، يوم كانت هاهنا الدار الخضراء ، قصر الخلافة الأموية التي كانت تحكم ما بين كراتشي ومدريد ...

فتضاءل ذلك المجد ، وتقلص ذلك الظل ، وذهب الغنى والجاه والعظم والسلطان ، حتى لم يبق من اسم الخضراء ، الا عَلَم على مصبغة تحت الارض ، في هذا الزقاق الضيق .

وكذلك الدنيا ، تعطي يوماً وتمنع يوماً ، ويتعاقب فيها البؤس والنعيم ، فلا يدوم سرور على بشر ، ولا تدوم عظمة لمكان ...

وما أدرى متى يبحث الشاميون عن التاريخ في أرض هذا البلد ؟ متى يعلمون ان تحت تراب دمشق القديمة ، عاماً ان استخرج غير وجه التاريخ القديم ، وأحاديث عن الماضين لم تسمعها بعدُ اذن بشر ، وكنوزاً وتحفاً ، تغني أهل دمشق ، وتحقق لهم (ان باعوها) كل مشروع خيالي ، يحلمون به ، وان تركوها وجعلوا من هذه المنطقة (بعد التنقيب فيها منطقة أثرية ، كان

منها أعظم المناطق الأثرية في العالم ، لأن دمشق هي أقدم المدن العامرة في الدنيا . وصارت مقصد السياح من آفاق الارض ، وكان منها مورد دائم ، نستطيع أن نبني به خـــلال عشر سنين فقط ، مدينة جديدة ، لهؤلاء الذين يسكنون في حارات دمشق القديمة ، كالذي صنعناه في تدمر .

ولكن متى تنال الاماني ؟

* * *

نحن الآن ياسادة في الدار الخضراء ، قصر الخلافة الاموية ، في يوم من أيام سنة ست وثمانين للهجرة ، في أزهى عهد من عهود أمية في الشرق ، في عهد الوليد ، الذي حقق هذا الحلم الذي لا يزال يتعلل بذكره ، قادة المعسكرين الشرقي والغربي ، حلم العدالة الاجتماعية ، فجعل الامة كلها أسرة واحدة ليس فيها عاجز ولا محتاج ، وفعل في القرن السابع الميلادي ، مالم تفعل مثـله دولة في قرن العشرين ، قضى على الفقر والمرض والجهل ، أحصى المرضى الزمنين ، ورتب لكل زمن خادماً يخدمه وهو في داره ، وأجرة هذا الخادم على خزانة الدولة ، وجعل لكل أعمى مرافقاً يقوده وأجرة هـــذا المرافق على خزانة الدولة ، وجمع الايتام ، فجعل لهم مدارس مجانية وتولت الخزينة الانفـاق عليهم ، وحارب الجهل بان جعل للفقهاء والعلماء مرتبات من خزانة الدولة ، ومنـع (الشحادة) والسؤال ، ورتب للفقراء العاجزين ملاجيء ، وقرر لهم رواتب ، يعيشون منها ليستغنوا عن سؤال الناس .

ولو كان الحديث عن الوليد لسمعتم من سيرته العجب العجاب .

نحن الآن في قصر الخـــلافة ، ولكن القصر لايضحك بالبشر ، ولا يرقص من الفرح ، انه واجم كئيب لأن ضيف الخليفة مريض ، وقد حشد له الأطباء ، فجاؤوا من كل مكان ، وحمـــلوا معهم كل ما وصل اليه الذهن البشري من معلومات وتجارب ، فهم مجتمعون يفحصون ويبحثون .

وأنتم تقولون : ومن هو هذا الضيف ؟ أي أمـير هو من أمراء البيت

الأموي ؟ أي ملك من ملوك الاطراف ؟ أي قائد من أعاظم القواد ؟:

انه أعز من كل أمير ، واكبر من كل ملك وقائد ، انه عالم من أجلّ علماء المسلمين ، وأعجب من ذلك أنه من الاسرة التى طالما عادت أمية ، وناصبتها الحرب ، ونازعتها الملك بالسيف ، وكادت تهدّ عليها عرشها ، وتغلبها على بُرْدة الخلافة ، وتسكن من دونها الدار الخضراء ، انه من آل الزبير :

هو عروة بن الزبير شقيق الخليفة الشهيد عبد الله ، وابن أبيه وأمه ، ولكنه كان رجل علم وورع فلم يشترك في المغامرة معه ولا عليه .

* * *

اجتمع يوماً في الحرم ، على عهد معاوية ، عبد الله بن الزبير وأخواه عروة ومصعب ، وعبد الملك بن مروان ، فتمنوا ، فقال مصعب : أنا أتمنى أن أحكم العراقين ، وأتزوج عقيلتي قريش ، وأجمل جميلات العصر : سُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، وقال عبد الله : أنا أتمنى أن أنال الخلافة وأملك الحرمين . وقال عبد الملك : أنا أتمنى أن أقعد مقعد معاوية ، وأحكم الارض . أما عروة فقال : أنا لست في شيء من ذلك ، أنا أتمنى أن أكون عالماً ، وأن ادخل الجنة .

فلم تكن الا سنون ، حتى نال كل من الثلاثة ما تمناه ، حكم مصعب العراقين ، وتزوج العقيلتين ، وبويع عبد الله بالخلافة ، وكان له الحجاز والعراق ومصر وأطراف الشام ، وكاد يدخل دمشق ويتم له الأمر ، لولا انه كان في ميدان الحرب أبرع منه في مجال السياسة ، ولولا أن كان الله قدَر فيه وفي أمية ، فقضى شهيداً كريماً ، وعاد الأمر الى عبد الملك فحكم الارض ، وكان يذكر هذا ويقول : من أراد أن ينظر الى رجل من أهل الجنة فلينظر الى عروة .

هذا هو عروة ، العالم الأجل ، الكريم الأب والأم والنفس واليد ،

وكان أحد الفقهاء السبعة في المدينة ، يقرأ ربع القرآن [1] كل ليلة ، يقوم به الليل ، فما تركه إلا الليلة التي أحدثكم عنها ثم عاود القيام من الليلة التالية .

وكان إذا كان أيام الرطب ، ثلم حائطه (ثقبه) فيدخل النـــاس ، فيأكلون ويحتملون ، وكان إذا دخله قرأ قوله تعـــالى (ولولا إذ دخلتَ جنّتَك قلت ماشاء اللهُ لاقوةَ إلا بالله) .

هذا هو ضيف الخليفة ، الذي حشد له الأطباء من كل مكان ، ليداووه من هذا الداء الذي نجم في رجله ، وخرج الأطباء ، وقد قرروا انه لابد من قطع الرجل .

وجزع الخليفه ، ولم يدع باباً من أبواب الترغيب والترهيب إلا فتحة لهم ، وعرض عليهم كنوز الخزائن ، ولكنهم عجزوا .

وترك لنـــا التاريخ وصفا لهذه (العملية الجراحية) التي تمت قبل الف وثلاثمئة سنة في الوقت الذي كان أهل أوربة يسرحون فيه مع الأنعام . . .

عرضوا عليه الخمر ليسكروه ، فلا يحس بألم القطع ، فأبى وقـــال : لا أستعين على قَدَر الله بمعصية الله . فأرادوه على أن يشرب المرقد (البنج) فقال : لا ، فاني ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائي ، وأنا لا أجد ألم ذلك لاحتسبه عند الله .

يفضل أن يتألم ويلقى الثواب ، عن أن يفقد الألم ويحرم الثواب .

وورد على الأطباء مالم يكونوا يتوقعون ، وسمعوا عجباً ، كيف يحتمل هذا الشيخ قطع رجله ، وهو صاح واع ، ولم يدروا ان عنده ماهو أشد اثراً من المسكر ومن المرقد ، لديه شيء يستطيع أن يغيب به عن الدنيا كلها ، وينساها ولا يعود إلى التفكير فيها .

---

(١) كان من السلف من يستكثر من التلاوة ، واكثرهم كان يؤثر القليل مع التدبر ، على الكثير مع الاسراع ، وكلهم فاهم للقرآن ، عـــامل به ، يعلم انه امر ونهى انزل لفهمه والعمل به ، لا لتصحيح مخارجه ، وتجويد ادائه ، والتغني فيه فقط ، ولا لحفظه وتلاوته جهراً بلا فهم ولا علم .

وعرضه عليهم فشُدهوا .

قال : اني ســأدخل في ذكر الله ، فاذ رأيتموني استغرقت فيه فشأنـكم بها .

وذكر الله لا كما نذكره نحن ، حين نذكر بألسنتنا ، وقلوبنا في غفلة عن الذكر ، ولكنْ ذكرَ اللســان والقلب والجوارح ، ذكر من يحس إذ يدخل فيه كما يحسه راكب الطيــارة ، حين تعلو به عن الارض فتصغر ، ثم يمضي صعداً حتى تصير الدنيا كلها ، بملذاتها وآلامهـــا ، ومسراتها وأحزانها ، وكل ما فيها نقطة ضائعة في الحضيض ، وذكرُ الله يعلو بصاحبه إلى حيث لا تبلغ الطيارة ، ولا يصل اليه خيال من أبدعها .

فلما رأوه استغرق بدأت العملية قطعوا الحكم بالسكين المحمى بالنار[1] ، حتى إذا بلغوا العظم نشروه بالمنشار ، وهو يهلل ويكبر ، وقد جلله العرق ، ثم عمدوا الى طريقة التعقيم ، التي كانوا لا يعرفون غيرها ، فحموا الزيت في مغارف الحديد حتى إذا غلى كووه بها فأغمي عليه .

* * *

وكان الخليفة نفسه قاعداً ناحية ، أبى إلا أن يحضر العملية إكراماً للشيخ ، ولكنه لم يستطع أن يرى ، فلما شم رائحة الزيت علم أنها قد انتهت ، ولما أفاق الشيخ من غشيته ، رأى القدم في أيديهم ، فأخذها يقلبها ، قدمه التي كانت بضعة منه ، فصارت قطعة من لحم وعظم ، وأدركه الضعف البشري ، فقال : أما والذي حملني عليك ، إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى معصية قط !

وكان قلب الخليفة يتقطع أســفاً وحزناً ، ولكن ماذا يصنع له ، مادامت أموال الارض ومغرياتهـــا لا ترد عليه رجله التي قطعت ، وماذا يصنـع له ؟ وهو رجـل قد فرغ من حب الجـاه ، وحب الغنى ، فـكان

---

(١) للتعقيم .

أغني الناس لا لأنه نال كل شيء ، فلا يمكن أن ينال أحد كل شيء ولكن لأنه زهد في كل شيء .

وإنه لفي هـذه الغمرة ، وإذا بصرخة تخـرق حجب الصمت ، أن لقد مات ابن الشيخ .

ابنه محمد ، الشاب العالم الصالح ، الذي كان أمل أبيه ، وكان قرة عينه ، يدخل الاصطبل ليخرج فرساً له ، فيرمحه فيموت لساعته .

وهكذا تجتمع المصائب .

وفي هذه المحن ، يظهر الايمان ، ويكون الصبر .

وترنح الشيخ ، وكاد يميل ويتزعزع ، ثم تماسك واحتمل ، وعـاوده ايمانه ولا ينفع شيء في هذه المواقف إلا الايمان ، وما زاد على أن قال : لقد لقينا في سفرنا هذا نصبا .

* * *

وقدم على الوليد من الغد وفد بني عبس ، وفيهم رجـل ضرير ، فسأله ما حاله فقال : يا أمير المؤمنين بت ليلة في بطن واد ولا أعلم عبسياً يزيـد ماله على مالي فطرقنا سيل فذهب بما كان لي من أهل وولد ومال غير بعير وصبي مولود وكان البعير صعباً فند فوضعت الصبي واتبعت البعير فلم أجـاوز إلا قليلاً حتى سمعت صيحة ابني ورأيت رأسه في فم الذئب وهو يأكله فلحقت البعير لأحبسه فرماني فذهب ببصري . فقال : أرسلوه إلى عروة ليعلم أن في الدنيا من هو أشد منه مصابا .

واتعظ عروة ، وقال : اللهم إن كنت أخذت طرفـاً ، لقد أبقيت أطرافاً ، وإن كنت أخذت ولداً لقد تركت أولاداً ، ولك الحمـد على ما أعطيت وما أخذت .

وكل مصاب يا أيها السامعون ، في الدنيا هو من أشد منه مصاباً ، ومن نظر إلى من هو دونه رضي واسـتراح ، وليس إلا الصبر ، والثقة بالله ، فيا أيها المصابون ممن يسمع حديثي ...

... يا أيها الشاب الذي كتب إليّ من مصر الجديدة : إنها ما أغرقت أخاك في مياه النيل عمته ، ولكن أغرقه الأجل ، ونفذ فيه حكم القدر ، وسيدركم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ، فقل لأمك ، إن الله هو الذي أعطى وهو الذي أخذ ، وما دفن ابنها في التراب ، ولكن ذهب إلى ضيافة أكرم الاكرمين ، فهل تأسى لو كان استضافه ، قريب كريم ، او صديق مخلص ؟ فكيف وقد صار الى كرم الله ؟

ويا أيها المصابون جميعاً ، إن هذا الحديث عزاء لكم وتصبير .

* * *

وعاد عروة الى المدينة ، وتلقاه الناس يعزونه ، فكان أبلغ ماسمع ، قول ابراهيم بن محمد بن طلحة إذ قال له :

والله ما بك حاجة إلى السعي ، ولا أرب في السباق ، وقد أبقى لنا الله منك مانحن أحوج اليه ، علمك ورأيك وفضلك ، وإن الله وليّ ثوابك ، والضمين بحسابك .

* * *

يا أيها السامعون :

إذا كتب الله لكم الحج ، وزرتم المدينة ، فأمّوا (وادي العقيق) الذي قيل فيه من روائع الشعر مالم يقل مثله في واد في الدنيا ، واسألوا عن (بئر عروة) التي نظم فيها الشعراء دواوين من الشعر والتي كانوا يتزودون من مائها في أسفارهم ، والتي كان يحمل ماؤها من طيبه إلى عبد الملك في دمشق وإلى الرشيد في الرقة ، يُغلى ثم يجعل في قوارير ويسيّر .

فقفوا عليها وأشربوا من مائها [1] ، واسألوا الله الرحمة لعروة بن الزبير ، الامام العالم الصابر المحتسب .

---

(١) زرناها سنة ١٩٣٥ مع الشيخ الباقعة الامير ابن ابراهيم رحمه الله امير المدينة يومئذ ، وكناضيوفاً عليه .

العالم العامل

نحن اليوم مع علم من الاعلام الشوامخ ، وامام من الأئمة الكبار .
ونادرة من نوادر الزمان ، مع رجل ملأ في زمانه القلوب والعيون والاسماع ،
ولا يزال وقد مرّ عليه ثلاثة عشر قرناً يملأ الاسماع والعيون والقلوب .
مع رجل كان في الورع والتقوى آية ظاهرة ، وكان في العلم بحراً زاخراً ،
وكان في الفصاحة والبيان علماً مفرداً ، وكان أعظم وعاظ الاسلام في تاريخه
كله ، هو سيد التابعين ، الحسن البصري .

وكان الوعاظ يُدْعون القصاص ، وكان اكثرهم ممن يتخذ الدين حرفة ،
والتقوى صناعة ، يأكلون بها الدنيا ، ويجمعون بها المال ، يخرقون على العامة
باللفظ الجميل ، والمظهر الخداع ، والخشوع الكاذب ، يتكلمون من ألسنتهم
لا من قلوبهم ، لذلك منع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب القصاص من دخول
المسجد في البصرة ولم يستثن الا الحسن البصري ، لأنه كان يقول الحق ،
ويروي الحديث الصحيح ، لايسرد الاسرائيليات ولا ينقل الموضوعات .
ولأنه كان يتكلم من قلبه ، يزهد الناس في الدنيا وهو أول الزاهدين فيها ،
لايزهدهم فيها ، ليخالفهم اليها ويزاحمهم عليها ، ولا يأخذ منهم أجراً ، ولا يقبل
منهم هدية ، ولا يتخذ جاهه وسيلة الى الحظوة عند الملوك ، والقرب
من السلاطين .

وكان الحسن نفسه حرباً على هؤلاء القصاص من علماء السوء الذين
يدعون للآخرة ويطلبون الدنيا ، ولقد قال فيهم كلمة الحق التي
أثرت وحفظت :

دخل المسجد مرة ومعه فرقد ، فقعد الى جنب حلقة ، فأنصت يستمع حديث أهلها وهم يتكلمون في الدين والزهد ، ثم أقبل على فرقد فقال : يافرقد ، والله ماهؤلاء إلا قوم ملّوا العبادة ، وصعب عليهم العمل ، وقلّ ورعهم ، فوجدوا الكلام أهون عليهم ، فتكلموا !

* * *

هو الحسن بن يسار البصري ، وكان أبوه في الاصل عبداً مملوكاً من سبي ميسان ، وكانت أمه كذلك ، ولكن الله أراد لهما ولذريتهما الخير ، واذا أراد الله الخير لأحد ، هيأ له أسبابه ، فصار أبوه مولى زيد بن ثابت أحد أئمة الصحابة وعلماء الصدر الاول ، وصارت أمه خيرة مولاة لأم المؤمنين وزوجة الرسول ﷺ أم سلمة ، وكان من تمام حظه أن أمه كانت تغيب فيبكي فتعطيه أم سلمة ثديها ، فربما درّ عليه اللبن من حنانها ، فهل في التكرمة اكثر من أن يلتقم ثدي أم المؤمنين زوجة الرسول ﷺ ؟!

وعاش بين الصحابة ، فأقبل على العلم ، ونشأ على التقوى ، وكان من الفصاحة والبيان في منزلة قلّ من بلغها من الادباء . وقلما قرأت كلاماً أكمل ولا أجمل ولا أنبل من كلامه ، ولقد شبهوه من قديم بكلام الانبياء وشهد له شيخ العربية وإمام أئمتها أبو عمرو بن العلاء ، بانه كان هو والحجاج أفصح الناس ، قيل له : فأيهما كان أفصح ؟ قال : الحسن .

والعجب إن مناهج الأدب في المدارس لم تعن بدراسة هذا النمط من الكلام العالي المطبوع ، وإنما اشتغلت بالمتكلف المصنوع الذي خلّفه أمثال ابن العميد والصاحب (ابن عباد) من صفافين الكلام الخالي من الروح ، الفارغ من المعني ، وتركت مثل ابن السماك الذي لا أكاد أعرف كلاماً أحلى وابلغ من كلامه والعتّابي وابن الجوزي في صيد الخاطر وتوقيعات بلغاء الخلفاء ، وكتابات أدباء العلماء ...

وهاكم طائفة من كلام الحسن البصري ، لتروا لوناً من ألوان البلاغة المطبوعة في كلام مليء بالدين والعلم ، والنظر السديد ، والرأي الصائب ، لا كمثل رسائل الصاحب في سخفها ورقاعتها وتكلفها ومجانبتها سبيل البلاغة الواضحة ...

هذه كلمة له فيها من المعاني مايشرح في كتاب ويصلح منهجاً للحياة الخلقية الكاملة ، ونتيجة لدراسة نفسية شاملة ، في أقصر لفظ ، وأوضحه وأجمعه للمعاني ، حتى لكأنها من جوامع الكلم .

سئل عن الرجل الكامل الرجولة ، والبطل الظاهر البطولة ، فقال : هو من يملك نفسه عند الرغبة والرهبة ، وعند الشهوة ، وعند الغضب .

وانظروا الى تعريفه الانسان في قصر عمره ، وأنه يضيعه بغفلته وجهله . قال : ابن آدم ، إنما أنت أيام ، كلما ذهب يوم ذهب بعضك . وانظروا الى هاتين الصورتين البيانيتين ، يرسمها هذا العبقري البين ، بألفاظ معدودة ، كما يرسم المصور اللوحة المعبِّرة ، بالخطوط القليلة . صورة في وصف أهل الخير والكمال من صحابة رسول الله ﷺ وصورة لعلماء السوء الذين يتخذون مظهر الدين ، وزى التقي ، سلماً لنيل الاموال والحظوة عند الامراء .

أما الاولى فقد قال له بعض القوم ،أخبرنا عن صفة أصحاب رسول الله ﷺ ، فبكى ، وقال : ظهرت منهم علامات الخير في السيماء والسمت ، والهدى والصدق ، وخشونة ملابسهم بالاقتصاد ، وممشاهم بالتواضع ، ومنطقهم بالعمل ، ومطعمهم ومشربهم بالطيب من الرزق ، وخضوعهم بالطاعة لربهم تعالى ، واستقادتهم للحق فيما أحبوا و كرهوا ، وإعطائهم الحق من أنفسهم ، ظمئت هو اجرهم ، ونحلت أجسامهم ، واستخفوا بسخط المخلوقين لرضا الخالق . لم يُفرطوا في غضب ، ولم يحيفوا في جور ، ولم يجاوزوا حكم الله في القرآن ؛ شغلوا الألسن بالذكر ،بذلوا لله دماءهم حين استنصرهم ، وبذلوا أموالهم حين

استقرضهم ، ولم يمنعهم خوفهم من المخلوقين ؛ من انفاذ حكم الخالق ، حسنت أخلاقهم ، وهانت مؤنتهم ، وكفاهم اليسير من دنياهم إلى آخرتهم .

وأما الثانية ، فانه مرّ بباب الأمير ابن هبيرة فاذا هو بالقراء على الباب ؛ فقال : ما يجلسكم هاهنا ؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء ؟ أما والله ما مجالسهم بمجالس الابرار ، تفرقوا فرق الله بين أرواحكم وأجسادكم ، قد شمرتم ثيابكم ، وجززتم شعوركم ، فضحتم القراء فضحكم الله ؛ أما والله لو زهدتم فيما عندهم ، لرغبوا فيما عندكم ، لكنكم رغبتم فيما عندهم ، فزهدوا فيما عندكم .

ووصف الصالحين فقال : إن لله عز وجل عباداً كمن رأى أهل الجنة في الجنة خالدين ، وكمن رأى أهل النار في النار خالدين ، قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، حوائجهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة ، صبروا أياماً قصاراً تعقب راحة طويلة ، أما الليل فصافّة أقدامهم ، تسيل دموعهم على خدودهم ، يجأرون إلى ربهم : ربّنا ربّنا ؛ وأما النهار فحلماء علماء ، بررة أتقياء . كأنهم القداح ، ينظر اليهم الناظر فيحسبهم مرضى ، وما بالقوم من مرض ، ويظنهم خولطوا ولقد خالط القوم من ذكر الآخرة أمر عظيم .

* * *

وكان الحسن صداعاً للحق ، لا يسكت عن إنكار منكر ، ولا تمنعه منه هيبة أمير ، ولا بطش ملك ، وكان حيناً يعرّض تعريضاً ، وحيناً يصرح تصريحاً فمن تعريضه بالأمراء وترفهم وسرفهم ؛ وصفه رسول الله ﷺ بقوله :

لما بعث الله محمداً ﷺ يعرفون وجهه ، ويعرفون نسبه ، قال : هذا نبيّي ، هذا خياري ، خذوا من سنته وسبيله ، أما والله ما كان يغدي عليه

بالجفان (الموائـــد) ولا يراح ، ولا تغلق دونه الابواب ، ولا تقوم دونه الحجـــاب ، وكان يجلس على الارض ، ويوضع طعامه على الارض ، ويلبس الغليظ ، ويركب الحمار . ثم قـــال : ما أكثر الراغبين عن سنة نبي الله وما أكثر التاركين لها .

ثم راح يعرّض بعلماء السوء الذين يفتون كل حاكم بما يرضيه فقـال : ثم إن علوجـــاً فسقة ، قد أضلَّهم ربي ومقتهم ، زعموا أن لا بأس عليهم فيما أكلوا وشربوا ، وشادوا وزخرفوا . يقولون : من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، ويذهبون بها إلى غير ماذهب الله بهـــا اليه ، في كلام طويل جليل تلقونه في حلية الأولياء لأبي نعيم الاصبهاني يقول ذلك في مجلس وعظه الذي كان يحضره عشرة الآلاف من الناس .

* * *

ومن صراحته أن عمر بن هبيرة لما ولي العراق ، أرســـل إلى الحسن والشعبي وابن سيرين والثلاثة من أعلام التابعين ، وأئمة المسلمين . فقـال لهم : إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إليّ في أشياء ، أن أطعته فيهـــا أغضبت الله ، وإن عصيته لم آمن بطشه وغضبه ، فهل ترون لي في متـابعتي إياه فرجاً ؛ فتكلم الشعبي وابن سيرين كلامـــاً فيه تقية ومداراة والحسن ساكت ؛ قال له : ماتقول أنت يا أبا سعيد ؟

قال : أقول يا عمر بن هبيرة ؛ يوشـك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ ؛ فيخرجك من سعة قصرك ؛ إلى ضيق قـبرك ، ياعمر بن هبيرة أن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك ، وأن تطع يزيد لايعصمك من الله ؛ يا عمر بن هبـــيرة لاتأمن أن ينظر اليك الله على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك ، نظر مقت ، فيغلق باب المغفرة دونك ؛ ياعمر بن

هبيرة : لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة كانوا والله على الدنيا وهي مقبلة ، أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة ؛ يا عمر بن هبيرة أن تكن مع الله في طاعته يردّ عنك كيد يزيد بن عبد الملك ؛ وأن تكن مع يزيد بن عبد الملك في معاصيه وكلك الله اليه .

فبكى عمر حتى أخضل لحيته ؛ وزاد في إكرامه على الشعبي وابن سيرين .

* * *

وكان له مع الحجاج مواقف عظام لم يسكت عنه يوماً ؛ ولم يكن في العراق والمشرق لسان يستطيع أن يقول الحق عالياً في الحجاج إلا لسان الحسن ، وسلمه الله منه باخلاصه وابتغائه وجه الله وحده ؛ وكان يطلبه أبداً واختفى منه مرة في دار علي بن جدعان سنتين ؛ ومرة في بيت أبي محمد البزاز . وأدركه الشرط مرة فساقوه إلى الحجاج ؛ وأيقن الناس أنه قاتله ؛ فلما رآه قال له : أنت الحسن ؟ قال : نعم . قال : أنت القائل ما بلغني عنك . قال : وما بلغك عني ؟ قال : قولك ، اتخذوا عباد الله خولا وكتاب الله دغلا ، ومال الله دولا ، يأخذون من غضب الله ، وينفقون في سخط الله ، والحساب عند البيدر . قال : نعم . قال : وتكنى بذلك عنا ، قال : نعم . قال : ولم قلته ويلك ؟ قال : لما أخذ الله ميثاق الفقهاء في الازمنة كلها ليبيّنُنّه للناس ولا يكتمونه .

ثم قال له : كم بينك أيها الأمير وبين آدم من أب ؟ قال : كثير . قال : أين هم ؟ فأطرق الحجاج ساعة مفكراً . ثم قال : يا جارية الغالية . (اي الطيب) فخرجت بها . فقال : ضمخوا رأس الشيخ ولحيته بالطيب . ثم قال : إنصرف إلى أصحابك فنعم المؤدب أنت .

وانصرف وعاد إلى ما كان عليه ، حتى بلغه موته وهو مختف منه في المسجد فسجد شكراً لله .

وبعد فان سيرة الحسن البصري أجلّ من أن يتسع لهـــا حديث أو أحاديث ، وكيف وهو علم الاعلام ، وواعظ الاسلام ، الذي بلغ من خلود اسمه إنه إذا قيل الحسن فقط انصرف ذلك اليه وحده .

وأختم هذا الحديث بوصف خالد بن صفوان إياه لمـــا سأله عنه مسلمة ابن عبد الملك . قال : أخبرك عنه بعلم أنا جاره إلى جنبه ، وجليسه في مجلسه ، وأعلم الناس به ، هو أشبه الناس سريرة بعلانية ، وقولاً بفعل ، أن أمر بأمر كان أعمل الناس به ، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له ، رأيته مستغنياً عن الناس ، ورأيت الناس كلهم محتاجين اليه .

رحمة الله عليه ، ورضي الله عنه ، وأسأل الله أن يمنّ على أمة محمد ﷺ فيجعل فيها علماء من أمثال الحسن .



الخليفة الكامل

يا أيها السامعون : أريد منكم أن تأخذوا الأقلام بأيدكم ، وتجمعوا أذهانكم ، وتكتبوا كل صفة تتمنون أن يتصف بها الحاكم ، في نفسه وفي أهله ، وفي أمانته وسياسته ، وفي لينه وشدته .. حتى إذا اكتملت الصورة الخيالية التي صورتها أمانيكم وآمالكم ، جئتكم بحقيقة واقعة لملك من ملوكنا تعدلها وقد تزيد عليها .

حاكم كانت حياته المثال الكامل لما يمكن أن يبلغه خيال أديب قصاص ، أو أمل عالم مصلح .

خليفة كان نموذجاً من النماذج التي لا ترى إلا مرة واحدة في القرون الطوال ، وليس من أمثاله في تواريخ الأمم كلها إلا آحاد .

كان عالماً : العلماء الكبار تلامذة أمامه ، وكان كاتباً : الكتاب البلغاء مبتدئون لديه ؟ وكان دَيِّناً دين فعل لا دين قول ، دين إخلاص وخلوة ، لا دين رياء واعلان ، وكان يتواضع لله حتى ليكبر عنده الصغير المسكين ، ويشتد لله حتى ليذل عنده الطاغية الجبار . وكان يعيش عيش الفقر وبيده خزائن الأرض . ويحيا حياة العفاف والحرمان ، وتحت سلطانه كل جميلة في الدنيا ..

مَلِك لولا أنه كان بشراً لقلت إنه مَلَك

* * *

يا سادة : لنرجع إلى الوراء ثلاثة عشر قرنا .

نحن الآن في مرج دابق في أوائل سنة ٩٧ للهجرة :

ودابق قرية في جهات حلب ، من أعمال عَزَاز [١] ، كان فيها المعسكر الأمامي للجبهة الرومانية ، وفي دابق الخليفة الشاب سليمان بن عبد الملك ، ومعه الجيش ورجال الدولة ، وهو مرابط فيها منذ شتاءين . يمد الجيش المحاصر للقسطنطينية ، الذي يقوده أخوه مَسْلَمة ، والمعركة لا أمل في ربحها ، وقد فشا الضرّ في جيش مسلمة ، وضعفت روح الجنود المعنوية ، ووجب فك الحصار ، وسليمان يصرّ عليه خلافاً لآراء الخبراء العسكريين وعقلاء اليوم .

وفشت الحمى في الجيش ، وتتابعت الوفيات ، حتى لم يجد الخليفة من الخدم واحداً صحيحاً يوضئه ، وعلا المنبر يخطب ، وصوته يملأ المسجد ، فأصابته الحمى ، فما زال يضعف صوته ، حتى حمل إلى بيته محموماً . وعهد إلى ولده الصغير ، فحوله عن ذلك مستشاره الخاص رجاء بن حَيْوه وما زال به ، حتى رضي أن يعهد إلى الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز . فقال سليمان : نعم الرجل هو لولا أن أبناء عبد الملك لا يرضون أن تصرف الخلافة عنهم . قال : فاجعلها بعده ليزيد بن عبد الملك .

وكتب العهد على ذاك .

ودعا إليه الأمراء الأمويين ، وأشراف الناس ، وأخذ بيعتهم على ما في الكتاب مختوماً .

وجاء عمر إلى رجاء ، قال : يا رجاء إني خشيت أن يكون قد عهد إلي ، وأنا والله لا أطيقها ، فخبرني الآن وهو حي ، لأصرفها عني ، وأنا أشكر لك صنيعك . قال : لا والله لا أخبرك بشيء . فانصرف مغضباً . وجاءه هشام ، فقال : يا رجاء ، أخشى أن يكون قد عهد إلى غيري ، وأنا أشكر لك وأثيبك ، فخبرني الآن وهو حي ، حتى أحوّلها إليّ . قال : لا والله لا أخبرك

---

(١) ويسمونها اليوم أعزاز .

شيئاً ، فانصرف مغضباً .

ومات سليمان . وجمع رجاء الناس وفتح الكتاب فإذا هو عمر .

فضج أبناء عبد الملك ، فلما سمي يزيد بعده سكتوا ، وصعق عمر حتى ما يستطيع القيام ، وقال : والله ما سألتها الله في سر ولا علن ، فأخذوا بكتفيه حتى أقاموه إلى المنبر ، وسكت الناس . فقال :

يا أيها الناس . إني ما استؤمرت فيها ولا خُيّرت ، ومالي بها من حاجة ، وقد خلعت بيعتي من أعناقكم ، فبايعوا من شئتم ، فضجوا وصاحوا من كل طرف :

ـ لا نريد غيرك .

فقام عند ذلك فألقى خطبة العرش ، وأعلن فيها (بيانه) ، وسياسة حكومته ، وأنه لا يملك التشريع لأن الشارع هو الله ، ولكن له السلطة التنفيذية وحدها ، وأنه إن خالف الشريعة ، وجبت مخالفته . وأن الخليفة ليس سيد الأمة ومالكها ، ولكنه أجيرها وخادمها فقال :

أما بعد ، فإنه ليس بعد نبيكم نبي ، ولا بعد القرآن كتاب ، ألا ما أحل الله فهو حلال إلى يوم القيامة ، وما حرم الله فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا لست بشارع ولكني منفذ ، ألا وإني لست بمبتدع ، ولكني متبع ، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله . ألا وإني لست بخيركم ولكني رجل منكم ، غير أن الله جعلني أثقلكم حملا .

* * *

وارتجت الأرض من دبدبة الموكب الرسمي . واعدت السرادقات الملكية ، فأبى ذلك كله وقال : مالي ولهذه المراكب ؟ نَحّوها وقربوا إلي بغلتي ، فركبها وسار إلى فسطاطه ، وأمر بإبطال الموكب الرسمي ، وبيع أثاث الفساطيط الملكية ورياشها وإدخالها في بيت المال .

لما كانت البيعة يا سادة ، حسب الناس أنه أمر كالذي عرفوا من الأمور .

خليفـــة يمضي ، وخليفة يأتي ، ويبقى كل ما كان على ما كان .

يتبدل الرَّفْرَف الأعلى من البناء ، فماذا ينفع المقيم في الأقبية المظلمة ، والغرف البارءة أن تتبدل رفارف البناء ؟

ولكن لم يكد يصعد الخليفة الجديد المنبر ، ويلقي خطبة العرش ، ولم يكد يصدر أمره في دواب الموكب وأثاث الخلافة حتى أدرك الناس أنه أَمر ليس كالذي عرفوا من الأمور ، وليس خليفة كالذين رأوا من الخلفاء .

وليس تبديلًا في ذرى البناء ، ولكنها بوادر تبديل شامل ، إصلاح أساسي ، يبدأ من أسس البناء ، لا يقتصر على الزخارف والألوان ، إصلاح يبدأ من جذور الدوحة ، لا من الفروع وحدها والأغصان .

ولم يدم هذا الأمل الا مثل ما تَبرِق في الجو بارقة وتختفي ، خافوا أن يكون هـذا الخليفة الذي يزهد في الملك ، ويعلن التنازل عنه ، ورد أمره للناس ، خافوا أن لا يكون منه إلا رجل صالح متعبد ، ولكنه مغفل ضعيف يعجز من أول يوم عن إدارة هذه الآلة الضخمة ، الممتدة أجزاؤها من فرنسا إلى الصين ، نعم من حدود الصين إلى أطراف فرنسا ، الآلة الهائلة التي يسمونها الدولة الأموية ...

وأمسكوا بقلوبهم خشية أن يتبدد هـذا الحلم الذي برقت لهم بوارقه من خطبة العرش .

ولكنَّ الحلم يا أيهـا السامعون ... ، إن الحلم تحقق . وصار الخيال في تاريخنا حقيقة واقعة !..

إن عمر بن عبد العـزيز لم يذهب إلى زاوية ليقرأ الأوراد ، بل قعد من فوره يملي الكتب إلى الأطراف ويضع البرنامج للحكومة الجـديدة ، وكان أول أمر أصدره ، الأمر بفك الحصار عن القسطنطينية ، ورجوع الجيش ،

فرجع بعد ما قاسى الجند الاسلامي الويلات من هـــذا الحصار ، ثم أصدر تشكيلات سـريعة (كما يقال باصطلاح اليوم) في المناصب الكبرى ، فعزل الأمراء الظلمة الطغاة ، وكان منهم والي إفريقية يزيد بن أبي مسلم العاتي الظالم، المتهم بحبس الناس وتعذيبهم وضربهم بلا وجه شرعي ، وأسـامة بن زيد التنوخي ، رئيس المالية في مصر ، وكان يقطع الأيدي ويشق البطون ، ويرتكب الجرائم الكبار ، وحكم عليه بالحبس سنة في كل مركز من مراكز الدولة ، أي بالسجن المؤبد ، وعزل عمال الحجاج جميعاً ، وولى ناساً صالحين أهل مقدرة وأمانة وحزم .

وكان حرس الخليفـــة ، مؤلفاً من ستمئة ، ثلاثمئة حرسي ، وثلاثمئة شرطي ، فنهاهم أولاً عن القيام له .. ثم قال (حسبك بالأجل حارساً) ،وأمر بحل" فرقة الحرس كلها ، وأعطى الفقـــراء العاجزين عن العمل منهم رواتب تسريح دائمة ، وعوض الباقين مالاً ، وكان قد مر عليه ليلتان بلا منام ، فأغفى يستريح قليلاً فدخل عليه ابنه عبد الملك وقال له : تنام ولا ترد المظالم ؟ قال يا بني إنمـا هي سـاعة فإذا قمت الظهر رددتها قال : ومن لك بأن تعيش إلى الظهر ؟ ..

فنهض لرد المظالم ...

أتدرون ما هذه المظالم ؟ .. هي الأموال الهائلة ... والثروات العظيمة، التي تملكها أسرة الملك الراحل ، واخوته وحاشيته ، لقـد عزم على ردها إلى أصحابها إن عرف أصحابها ، أو إلى الخزانة العامة ، وأن ينفذ على الجميع قانون (من أين لك هذا) ؟

وبدأ في ذلك بنفسه ! فقد كان له عقارات ، أخذها أيام أسـلافه من الخلفاء ، فرأى أنـــه لم يكن لهم سلطة شرعية عليها ليعطوه إياها ، وأنها من أملاك الدولة .

وهـذا أيها السامعون هو المقياس الصحيح للدين ، أن تبدأ بنفسك فتعظها ، قبل أن تعظ الناس وإلا فما قيمة الوعظ ، إن لم يكن الواعظ لا يعظ نفسه أولاً ؟

إن من أسهل شيء على الانسان ، أن يكبر عمامته ، ويعرض لحيته ، ويوسع جبته ، ويحفظ الآيات والأحاديث والرقائق ، ثم يقعد في المساجد. فيتكلم ولا قيمة لذلك في حساب الملكين ، ولا وزن له عند الله إذا لم يكن معه صدق وإخلاص وعمل ، إن الكلام وحده لا ينفع شيئاً ، فإن اتخذه سلماً إلى الدنيا ، وطريقاً إلى الكسب ، وجعله تجارة ، حتى يضير به من أغنياء الدنيا ، فهو الخسران الأكبر ..

إن أول ما ينبغي للمؤمن حين يقرأ قوله تعالى (وفي السماء رزقكم وما توعدون) أن يكون مصدقاً بذلك ، موقناً به ، وألا يخاف إن أقام الحق ، أن يبقى هو وأولاده بلا طعام ، فإن لم يفعل كان كاذباً ، وما كان عمر بن عبد العزيز من الكاذبين .

وأحصى أملاكه فإذا هي كلها من عطايا الخلفاء ، ولم يجد إلا عيناً في السويداء ، كان استنبطها من عطائه ، والعطاء يا سادة - رواتب عامة ،تعطى من بيت المال للناس جميعاً ، نوع من الضمان الاجتماعي لم تصل إلى بعضه اليوم أرقى دول الغرب ، وفكر في أولاده ، هل تكفيهم غلـّة هذه العين ، وهي مئة وخمسون ديناراً في السنة فقط !

ثم ذكر أن الرزاق هو الله ، وأن ما كان لك سوف يأتيك على ضعفك وما كان لغيرك لن تناله بقوتك . فنزل عنها كلها ومزق سجلاتها .

وتوجه إلى أمراء البيت المالك ، فجمعهم وحاول أن يعظهم ، ويخوفهم الله ، وبين لهم أن ليس لهم من الحق في أموال الخزانة العامة أكثر مما للأعرابي في صحرائه ، والراعي في جبله ، والزارع في مزرعته ، وأن ما بأيديهم من

أموال جمعوها من حرام ليس لهم ، وإنما هو لله ، وأرادهم على ردّها فأبوا .

ودعاهم مرة أخـــرى إلى وليمة أعدها لهم ، فتركهم حتى يبلغ منهم الجوع ثم قدم لهم عدساً وتمراً وبصلاً ، وطعاماً من طعام الفقراء فأكلوا منه حتى إذا شبعوا ، جاءهم بالطعام الطيب ، فلم يستطيعوا أن ينالوا منه .

قال : أرأيتم ؟ .. فلم التقحّم في النار من أجل أكلهٍ وشربة ؟!

فلم يستجيبوا ، فلما عجزت معهم أساليب اللين ، عمد إلى الشدة ، وأعلن أنه كل من كانت له مظلمة ، أو عدا عليه أحد من هؤلاء الأمـراء ، فليتقدم بدعواه ، وألف لذلك محكمة خاصة وبدأ بجـ ـرّدهم من هذه الثروات ، التي أخذوها بغير وجهها ، ويردها على أصحابها ، أو على الخزانة العامة .

ووسطوا له عمة له ، كان يوقرها بنو أمية لسنّها وشرفها . فكلمته ، فقال لها : يا عمة ، قُبض رسول الله ﷺ ، فترك الناس على نهر جار ، فولي بعده رجل (يريد أبا بكر) فلم ينتقص منه شيئاً .. ثم ولي بعده رجل (يعني عمر) فلم ينتقص منه شيئاً .. ثم ولي رجل فشق منه ساقية صغيرة ، ثم لم يزل الناس يشقون السواقي حتى لم يبق منه شيء ، وايم الله لأسدّن السواقي حتى أعيده كما كان .

ودعا بجمر ودينار ، فألقى الدينار في الجمر حتى اذا احمر ، أخذه بشيء وقربه من جلده . وقال : يا عمة أما تشفقين على ابن أخيك أن يكوى بهذا يوم القيامة ؟ .. قالت : إذن لاتدع الناس يسبوهم . قال : ومن يسبهم ؟.. إنما يطالبونهم بحقوقهم .

فخرجت فقالت : هذا ذنبكم ، لماذا زوجتم أباه بنت عمر بن الخطاب ؟ اصبروا فإنه لا يحيد . وتجرأ عليه ابن للوليد بن عبد الملك ، فكتب إليه كتاباً شديد اللهجة ، أشبه باعلان الثورة والمبارزة بالعصيان ، فما كان من عمر ، وهو اللين المتواضع إلا أن غضب لله ، فانقلب أسداً كاسراً وقبض على الوليد ،

وحاكمه محاكمة سريعة عادلة ، كادت تودي به إلى سيف الجلاد ، لولا أن تاب وأناب .

وخضع الأمراء جميعاً ، وردوا ما كان في أيديهم من الأموال .. واكتفوا بمرتباتهم الكثيرة التي كانوا يأخذونها من الخزانة .. ولكن عمر لم يكتف ، وأمر بقطع هذه الرواتب ، وإعطائهم عطاء أمثالهم ، وأمرهم بالعمل كما يعمل الناس .

وعم الأمن ، وهمدت الثورات ، وشملت السعادة الناس . واختفت مظاهر البذخ الفاحش ومظاهر الفقر المدقع ، وصارت هذه البلاد التي تمتد من فرنسا إلى الصين ، كأنها مدرسة داخلية أو جمعية روحية ، تعيش بالحب والود والاخلاص ، وكانت كتبه ومنشوراته مناهج تهذيبية إصلاحية ، فيها علم وهدى وإدارة وتنظيم .

وبعدُ فمن هو عمر بن عبد العزيز ، وكيف نشأ مثله في أمية .. وما كان بيت أمية بيت تقى ونسك ؟ وما سيرته في نفسه وفي أهله ؟

سأحدثكم عن هذا كله في مثل هذه الساعة من الجمعة المقبلة إن شاء الله .

— ٢ —

كأني بكم تقولون وقد سمعتم حديث ابن عبد العزيز الجمعة الماضية : ومن أين لابن عبد العزيز هذه المزايا ، وهذه الخلال ، وما كان بيت أمية قط بيت زهد وورع ، ولا عرف عن أمويّ قط [١] أنه الناسك المتبتل ؟.

وإني لأرجع بكم لأجيبكم خمسين سنة أخرى . أرجع بكم إلى عهد عمر العظيم ، عمر بن الخطاب ، أكمل حاكم عرفته التواريخ كلها .

كان عمر يعسّ ليلا ، (يفتش) على عادته ، فمر بخباء قوم من الاعراب ، فسمع

(١) الا عثمان والا معاوية الصغير ، اي ابن يزيد بن معاوية .

امرأة تقول لابنتها : امذقي لبنك [1] قالت البنت : أمـــا سمعت منادي عمر ينهى النـاس عن ذلك ؟ قالت الأم : أمذقيه ، فانه لايدري بك عمر ، ولا منادي عمر . قالت : ماكنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء . وإن كان عمر غائباً ، فان رب عمر حاضر يسمع ويرى .

هكذا كانوا ياسادة ، كان الحاكم يرجو رضا الله ومصلحة الناس حين يأمر وحين ينهى ، وكان الناس يتقربون إلى الله بطاعة الحاكم لأنهم كانوا يرون طاعته من الدين .

قال عمر لغلامه : علّم الخباء . وذهبا .

فلما كان غد ، سأل عنها فاذا هي فتاة يتيمة ، فجمع ولده ، فقـــال : هاهنا امرأة صالحة ، فمن يريد الزواج منكم ؟ قال ابنه عبد الله : لي زوجة وقال الآخرون : لنا زوجات . وقال ابنه عاصم : لازوجة لي . فزوجه بها. فكانت خير امرأة وأفضلها ، فولدت له بنتاً ، دعاها أم عاصم ، ونشأت مثل أمها نشأة خير وصلاح .

وأراد عبد العزيز بن مروان الزواج ، فقال : دلوني على امرأة صالحة ، فدلوه عليها . فتزوجها فولدت له عمر .

فعمر بن عبد العزيز ، كان ابن أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، فمن هنا جاءته هذه الاخلاق العمرية . ثم إن أباه أراد له خير مايريد أب لولده، فسلمه إلى الامام الحبر شيخ المسلمين عبد الله بن عمر ، فربي باشرافه. فما ظنكم بمن يربيه عبد الله بن عمر ، ويتولاه الأئمة الفحول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأنس والسائب وعبادة ؟.

ولما سافر أبوه إلى مصر والياً عليها ، تركه عندهم في المدينة ، ووكل به صالح بن كيسان ، فتأخر يومـــاً عن الصلاة ، فزجره ، فاعتذر بأن

---

(١) اخلطيه بالمـــاء .

مُرَجّلته كانت ترجل لمته ، (أي تزيّت شعره) ، فكتب بذلك إلى أبيه ، فأمره بحلق شعره فحلقوه .

* * *

نشأ في النعيم ، وتقلب في فرش السعة . ورأى من الدلال مالم ير ولد ناشئ ، ولم لا ؟ وأبوه والي مصر (ملك مصر) وجده مروان خليفة ، وعمه عبد الملك خليفة ، ولكن إذا جاء الدين ، أو جاء الواجب فلا تدليل ولا ترفيه ، وإنما كان يؤخذ بأشد الشدة ، وأحزم الحزم ، كما رأيتم في قصة الشعر .

وما بلغ الشباب ، حتى كان من صدور العلم ، ومن علماء العصر ، ومن الصلحاء العباد . إلا أنه كان رجل ترف ورفاهية ، يلبس من الثياب مالا تلبسه الملوك ، ويلقي الثوب بعد لبسة واحدة ، ويمشي مشية خيلاء ، عرفت به وعرف بها حتى لقد صارت (موضة) يقلدها الشباب والصبايا وتسمى العمرية ، وكان يتخذ أغلى العطور ، فاذا طلع من أول الشارع هبت من طلوعه نسمة عاطرة كأنها نسمات الروض الزاهر .

ثم زوجه عبد الملك بنته فاطمة . السيدة الاولى في ذلك العصر ، بل لعلها لم تبلغ سيدة من النبالة و (الارستقراطية) ما بلغت هذه السيدة ، كان أبوها عبد الملك خليفة ، خليفة لا أمير قرية ، ولا حاكم مدينة . كان الحاكم على ثلث المسكون في الدنيا ، وكان جدها مروان خليفة ، ثم صار أخوها الوليد خليفة ، وصار أخوها سليمان خليفة ، وصار زوجها عمر خليفة ، وصار أخوها يزيد خليفة ، وصار أخوها هشام خليفة ، وصار ابنا أخيها من بعدُ خلفاء فأي سيدة في التاريخ كان من أهل بيتها الأقربين تسعة خلفاء ؟.

وكانت جميلة ، وكانت وفية . وكان عمر زينة الشباب شكلاً وقولا

وعملا ، وكان ثوب النعمة سابغاً عليها ، وكان الحب مالئاً قلبيهما ، فعاشا فترة سعادة ما عاشها زوجان .

* * *

وولي عمر المدينة فجمع طائفة من علمائها وصلحائها . من أساتذته . فجعلهم مستشاريه ، وفوض اليهم رفع كل مظلمة اليه ، فلا يجدون مظلوماً ولا شاكياً ولا محتاجاً إلا أبلغوه ، وكان يذهب بنفسه إلى دار أستاذه عبيد الله. فـيُدخله أحيانا ، وحيناً يرده من الباب . وهكذا كان الامراء في تاريخنا مع العلماء ، وكان العلماء أهل زهد وعفاف ، فلم يكونوا يطلبون من الامراء ديناً ولا مالاً ولا منفعة شخصية .

فلما ولي الخلافة . . وكان الناس يهتفون بشكر الله ، ويضحكون لهذه النعمة ، التي أنعم الله بها عليهم حين ولى أمرهم الرجل الصالح ، كانت المناحة في بيت عمر .

وعجبوا وذهبوا يسألون ما الخبر ؟.

ما الخبر ؟ الخبر أن عمر جمع نساءه وجواريه . فقال : إنه قد نزل بي ما شغلني عنكن ، فمن شاءت سرّحتها أو أعتقتها ومن شاءت أقامت ولكن لم يكن مني لها شيء .

وأقامت معه فاطمة .

ولقد حدثتكم عن عمر في إدارته وفي سياسته ، وحديثي اليوم عن عمر في نفسه وفي أسرته ، وعن هذه الزوجة الفاضلة الخيّرة . لقد عاش معها عمر بعد الخلافة وكأنها أخوان ليس بينهما إلا ما يكون بين الأخوين ، ما ذهب الحب ، ولكن ذهب فراغ الوقت ، وفراغ القلب . وملأت قلبه هموم الخلافة ، فكانت خلافته نعمة على الناس ، ونقمة على عمر وآل عمر .

قالت فاطمة لمن سألها عنه بعد موته : والله ما علمته اغتسل من جنابة أو احتلام ، منذ استخلف حتى قبضه الله .

وأهملت هي كذلك التجمل والزينة ، حتى لامهـا النساء ، وواجهتها باللوم مرة إحدى نساء الامراء فقالت لها : وهل تصنع الزوجـة لزوجها إلا مايحب ؟ قالت : نعم . قالت فاطمة : فانه يحب هذا مني .

ولم تفقد بالخلافة الحب ومتع الزواج فقط ، بل فقدت النعمة والسعة ، ولقد سمعتم أن عمر كان قد تبرع بكل أملاكه للخزانة العامة . . رَدَّها حين رد المظالم . لأنه رأى أنه كان أخذهـا من الخلفاء قبله بـلا حق . ولم يبق له كما سمعتم وعرفتم إلا مئة وخمسون ديناراً في السنة . هذا مورده كله . وأسرته كبيرة ، فألزم نفسه الحياة به وحده . فـكانت حياته كأنها حياة موظف أمين من المرتبة العاشرة اليوم .

لم يسـكن قصور الخلافـة ، وإنمـا أقـام في داره (في موضـع السميساطية اليوم بجوار الاموي عند باب العمارة) . وما زال يبيـع ما فيها من الاثاث والرياش حتى عـادت قفراً ، وكان يصلح فيهـا بيده إن وجد فراغاً .

ولقد جاءت امرأة مرة من أقاصي ايران لتقابـل الخليفة ، فسألت عن قصره فدلوها ، فوجدت داراً عادية ليس فيها إلا خادم صغـير ، فدخلت فاذا رجـل يطيّـن جـداراً وامرأة تنـاوله الطين ، قالت لها : ألا تحتجبين من هذا الطيان ؟

قالت : إنه أمير المؤمنين !!

وكانت هذه المرأة التي رضيت أن تشتغل أجيرة طيان . فاطمة زوجـة الخليفة ، وقريبة الخلفاء التسعة ! وكان أكثر طعامه العدس ، صبت

فاطمة مرة للخادم الصغير عشاءه ، فتذمر وغضب . وقال : كل يوم عدس ؟ قالت : إنه طعام مولاك أمير المؤمنين !!

وكانت تصبر راضية ، غير متألمة ولا متذمرة ، ولا تشكو بل لا تعلن ما هي فيه إلا مضطرة ، مرض عمر ، فعاده أخوها مَسْلَمَة ، فلما خرج قال لأخته : يافاطمة إغسلي قميص أمير المؤمنين فانه وسخ ، وهو خليفة والناس يعودونه ، فلما رجع بعد أيام وجده لم يغسل ، فأعاد القول عليها ، ورآه الثالثة ، فأغلظ لها الكلام ، فأحنت رأسها وفي عينيها دمعة ، وقالت : والله ماله قميص غيره !!

ورأى مرة بنتاً له اسمها أمينة تمر في الدار فناداها : يا أمين . . يا أمين . . فلم تجب فأمر باحضارها فاذا ثوبها مقطع . قال : لمَ لم تردي ؟ . . فبكت وأشارت إلى ثوبها . فدعا بمولاه مزاحم ، وقال : انظر إلى تلك الفرش التي فتقناها فاقطع لها ثوباً منها .

ثوب من ملحفة عتيقة لبنت أمير المؤمنين . فهل تقبل به بنت أحد السامعين ؟

ومرت به بناته يوماً ، فسددن أفواههن وأسرعن ، قال : ما لهن ؟ قالت فاطمة : لم يجدن ما يتعشين به إلا خبزاً وبصلا ، فسددن أفواههن حتى لا تشم ريحهن .

هذا عشاء بنات أمير المؤمنين فهل تقبل به بنت أحد من السامعين ؟

وجاءه مرة تفاح من بستان من أملاك الدولة ، فقعد يقسمه بين المستحقين ، فجاء طفل له يحبو ، فأخذ تفاحة ، فأمر بانتزاعها منه فتمسك بها وهو يبكي ، فنزعها من يده ، فذهب إلى أمه باكياً ، فأخذت درهماً فاشترت به تفاحاً . . فلما جاء عمر وجد التفاح فسر به وقال : أنا والله أشتهيه وأكل

منه ، وسألته عن الغلام فقال : لقد انتزعت التفاحة من يده ، وكأني انتزعها والله من قلبي ، ولكن كرهت أن أبيع نفسي من الله بتفاحة من فيء المسلمين .

وكان يتورع عن أقل من هذا ، طلب مرة أخرى تفاحاً ، وكانت دواب البريد قادمة في طريقها . فحملوا التفاح عليها ، فباعه ودفع الثمن للخزانة ، مقابل أجرة الدواب . وكانت دواب البريد كالسيارات الرسمية اليوم ، فمن من الموظفين يمتنع عن أكل كيلو تفاح ، إذا جاؤوه به في سيارة الدولة ، وهي فارغة وقادمة على كل حال ؟.

وسخنوا له مرة ابريق ماء في مطبخ العامة (لأن الخلفاء كانوا يطبخون ويطعمون الناس كل يوم) فاشترى للمطبخ حطباً في مقابل ذلك . وجاءه مرة موظف بأوراق رسمية ، فاقتطع ورقة بمقدار أصبعين كتب فيها شيئاً له . فلما كان الغد طلب الاضبارة ، ثم ردها ، فنظر الموظف فاذا هو قد وضع فيها ورقة مكان التي أخذها .

* * *

أما ديموقراطيته ، فكانت نموذجاً كاملاً ، وكانت سجية منه لا تكلفاً . وكان يعمل صامتاً بلا دعاية ولا إعلان . وكان خارجاً إلى الصلاة ، فاعترضه إنسان بيده شكاة مكتوبة في طومار (كرتونة) فرماه عمر بها فشجت وجهه وسال الدم ، فجزع الرجل وخاف ، فقضى حاجته ، وأعطاه ترضية لأنه خوفه .

وكان معه رجاء (مستشار الدولة) يدرسان أوراقاً رسمية ، فاحتاج السراج إلى إصلاح . ونادى الخادم فوجده نائماً ، فقام رجاء فمنعه . وقال : ليس من الكرم أن يستعمل الرجل ضيفه ، وأصلحه بنفسه. قال : أتقوم

وأنت أمير المؤمنين ؟ فقال : قمت وأنا عمر ، ورجعت وأنا عمر .

وكانت له جارية تروّحه في يوم حار فنامت وسال عرقها ، فقام اليها يروّحها .

ودخل المسجد مرة ليلا ، فداس إنساناً نائماً . فقال له : أأنت حمار ؟ قال : لا أنا عمر . فهمّ به الحرسي قال : دعه سألني أأنت حمار ؟ فأجبته : لا أنا عمر .

* * *

أعود يا سادة إلى حديث فاطمة ، لقد تخرجت من مدرسته ، وسارت على سنته . ورضيت لنفسها بما ارتضاه لنفسه . صبرت معه على الفقر ، وتحت أيديهما كنوز الارض ، وصبرت على (الحرمان) وهي تعيش مع الزوج . وكان يصلي من خوف الله ، فتصلي بصلاته ، ويبكي من خشية الله ، فتبكي لبكائه .

قال لها يوماً : أين نحن من ذلك النعيم الذي كنا فيه ؟ قالت : أنت اليوم أقدر عليه لو أردته . قال لها : يا فاطمة إن لي نفساً تواقة ، ما أعطيت شيئاً إلا تاقت إلى ماهو أفضل منه ، تمنيت الامارة ، فلما أعطيتها تمنيت الخلافة فلما أعطيتها تمنيت ...

... وماذا تظنونه تمنى ، وهل شيء أكبر من الخلافة . لقد أعطي الدنيا كلها ، فهل شيء أعظم من الدنيا كلها ؟ نعم . ما هو أكبر منها : الجنة .

لذلك قال : فلما أعطيت الخلافة تمنيت الجنة .

وتمنتها معه فاطمة وسمت مثل سموه اليها . فهانت عليها الدنيا . وكانت كراكب الطيارة إذا هي علت وضربت في طباق الجو ، رأت البلد العظيم نقطة ، والنهر الكبير خطاً ، والبحر كله بقعة حبر أزرق على صفحة ورق .

ولكن لا أنا (صدقوني) ولا أنتم تستطيع أن نتصور هذا ، إنني أتلو الحديث ، وأنتم تسمعون ، وكل منا قد ملأت ذهنه مشاغل الارض ، ولذات العيش الصغار . إننا نعمى بها عن رؤية الحقيقة الكبرى . كمن يضع كفه أمام عينيه ، فتسد هذه الكف الصغيرة الفضاء الارحب . إننا اشتغلنا بمناظر الطريق عن غاية السفر . وبصغائر الحياة عن غاية الحياة . فصرنا إذا قرأنا أخبار هؤلاء لم ندركها . . . ولكنها عندهم حقائق كبار .

إن لله عباداً فطنا طلقوا الدنيا وعافوا الفتنا

قد رأوها لجة فاتخذوا صالح الاعمال فيها سفنا

وكان لفاطمة مجموعة حلي ، ليس لامرأة مثلها ، فقال لها يوماً : يا فاطمة إن هذه لاتحل لك ، وقد أخذت من أموال الله فاما أنا وإما هي ، قالت : بل أختارك والله على أمثالها . فأخذها فوضعها في بيت المال . فلما مات عمر وولي اخوها يزيد ردها اليها . فتصورت عمر أمامها ، وفاض قلبها دمعاً من عينيها . وغلبها حبُّها لمرضاته على الحلي ولذتها وقيمتها . فقالت : لا والله ما كنت لأعصيه بعد موته ، مالي فيها من حاجة .

فقسمها بين نسائه وهي تبصر !

* * *

ولا يمكن استقصاء أخبار عمر ومناقبه في حديث ، فدعوني أختم حديثي بهذه المنقبة العمرية . بهذا الموقف الذي لايقوى على مثله إلا رجل من طراز عمر . ولقد يصبر الرجل على عضة الجوع ، وشدة الحرب ، ومعاناة الاهوال ، أما الصبر على الحب العارم ، الذي يسحر القلب ، ويسكر الجسد ، ويختصر لذات الدنيا كلها حتى تكون وصال الحبيب ، وآلام الدنيا كلها حتى تكون هجره . الحب الجارف الذي يزلزل كيان الرجل زلزالا . فذلك شيء آخر .

ويظهر أن عمر بلي بمثل هذا الحب مرة واحدة ، أحب جارية كانت لزوجته فاطمة . وجرب الاساليب كلها لتهبها له فأبت ، لأن المرأة ترضى أن تضحي بكل شيء في مرضاة زوجها إلا أن تقدم له أخرى تشاركها حبه ، وتقاسمها قلبه ، وكان يمنعه دينه أن يواصلها في حرام . ولبث كذلك يقاسي من حبها مثل كي المكاوي ، حتى إذا ولي الخلافة ، وبلغت فاطمة من الاخلاص له والتفاني فيه ، أن ذابت رغباتها في رغباته وأهواؤها في أهوائه ، قهرت نفسها ووقفت موقفاً لا تقفه امرأة ، فوهبتها له ، وتزينت الجارية ودخلت عليه ، وفرك عينيه فلم يعرف أهو في يقظة أم في منام . ثم تنبه في نفسه الشعور بالواجب ! فسألها لمن كانت ؟ . . وممن أخذت ؟

فلما تبين له أنها قد غصبت من أصحابها ، وأنه يجب ردها ، اصطرعت في نفسه قوتان : قوة هذا الحب القوي العارم ، وهذه الرغبة التي صرم السنين الطوال في انتظار تحقيقها ، وقوة الواجب الذي أخذ نفسه بانجازه . والمبدأ الذي أعلنه مبدأ رد المظالم .

وتردد قليلاً ثم أمر بردها إلى أصحابها .

فعاد بها أصحابها يهبونها لأمير المؤمنين . قال : لا حاجة لي فيها ، قالوا : فاشترها . قال : لست إذن ممن ينهى النفس عن الهوى .

قالت : فأين حبك لي يا أمير المؤمنين ؟ .. قال : على حاله وقد ازداد .

ولم تزل في نفسه حتى ماتت .

هذه أطراف من قصة رجل ، لو أن متخيلاً تخيل أنبل السجايا الانسانية لما كانت إلا سجاياه . رحمه الله ورضي عنه وأرضاه قصة حاكم لو توهم متوهم ، أكمل صفات الحكام لما كانت إلا صفاته .

فاتح المشرق

إنكم لا تفهمون هذا الحديث الا إذا وضعتم تحت أعينكم مصور العالم الاسلامي . أترون الى هذه البلاد التي تمتد من ساحل المحيط الاطلنطي ، حتى لتكاد تتصل بساحل المحيط الهادي ، من فارس إلى الصين . إننا لم نفتح هذه البلاد لهواً ولا لعباً ، ولكن أرقنا فيها أنهاراً ، (أنهاراً حقاً) من دمائنا . وضحينا فيها بجبال ، (جبال حقاً) من أجسادنا . وسخرنا لها عبقرياتنا ، ووقفنا عليها بطولاتنا ، التي لم يعرف التاريخ الا الأقل الأقل منها ، وبقي سائرها سراً في ضمير الغيب ، واحتساباً عند الله .

ولكل منطقة قصة رائعة ، تقرؤها فتقول هذه أروع قصص الفتوح ، فإذا قرأت الثانية ، رأيتها أجلّ وأكبر . ولكل معركة قواد عباقرة تسمع أخبارهم ، فتقول هؤلاء أعظم قواد الزمان ، فإذا سمعت أخبار قادة المعركة الأخرى قلت ، هؤلاء أعظم وأقدر . وإذا أنت أمام سلسلة ذهبية لا تدري أي حلقة فيها أثمن من الأخرى ، وأي مرحلة من مراحل الفتوح كانت أطول وأروع ، فتوح الشام ؟ أم العراق ؟ أم المغرب ، أم المشرق ؟ أم الروم والأناضول ؟ أم الأندلس وجزائر البحر ؟ .

لقد تعاقب على حمل هذه الراية الاسلامية حتى بلغ بها الأفقين . وركزها في المشرق المغرب مئات من القواد ، منهم من وقف يدافع عنها الا تتراجع ، ومنهم من رفعها بعد ما كادت تميل ، وأعلاها وأعاد لها مجدها .

ومنهم من مشى بها خطوات في الطـريق الوعر ، ومنهم من جزع بها أقطار الأرض ، وفتح بها الفتوح .

وهذا الحـديث عن قائد من هؤلاء القواد الكبار . واحد من سادة المعارك ، وعباقرة الحروب في التاريخ العالمى ، نابغة عبقري من طبقة انيبال والاسكندر ، وخالد وسعد ، وعقبه والمهلب وطارق ، ومحمد بن القاسم وصلاح الدين ونابوليون .

عن الرجل الذي ضم بسيفه إلى الوطن الاسلامي ، بلاداً أوسع من فرنسا وألمانيا وايطاليا وانكلترا معاً ، بلاداً يسكنها أقوى شعوب العالم القديم على الحرب . وأشدها تمرساً به ، وبراعة فيه ، وقدرة عليه .

رجل مارفعه نسبه فقد كان من أخس قبائل العرب ، وأحطها منزلة ، من قبيلة كان يستحيي أبناؤها من الانتساب اليها . ويضرب المثل بالخسة بها . ويترفع العرب عن ذكرها ، من باهلة .

هو الشاب الذي اختاره الحجاج ، دون الكهول المجربين ؛ والقواد المشهورين ، ليتولى القيادة العامـة لجيش المشرق ، ليكون خلفاً للقائد العظيم الذي لا أجد أحداً من قوادنا أشبه بخالد في براعتـه وعبقريته منه ، المهلب [١] ، والذي عجب الناس من انتخابه لها ، وأنكروه ، ولولا خوفهم من الحجاج لعابوه وأبوه ، فلم تمض إلا فترة من الزمان حتى أثبت أنه من أقدر القواد ، وأن الحجاج كان ثاقب النظر ، صادق الفراسة ، عظيم الخبرة بالرجال .

الرجل الذي فتح من حدود ايران اليوم الى أواخر تركستان ، والذي دخل الصين ، ولولا ما كان من الفواجع التي أودت به شاباً لفتح الهند والصين .

---

(١) المهلب من أعاظم قواد الزمان — ولكن أكثرنا يجهل أخباره .

ألم تعرفوا بعد من هو ؟ إنه قتيبة ، قتيبة بن مسلم الباهلي .

وكان مركز جيش المشرق مرو . وكانت الفتن قد عصفت بذلك الجيش الضخم الذي كان يقوده المهلب وأبنه يزيد ، فلما عرضه قتيبة لم يجد فيه إلا ثلاثمئة وخمسين درعاً . فالتجأ الى آخر جمى يلتجىء اليه كل جيش في الدنيا الى الحمى الذي لا ينال من احتمى به ، الى الحصن الذي لا يؤخذ من تحصن به ، الايمان ، فقام يخطب في هذه البقية من جيش يزيد بن المهلب ، ويذكرهم الله ، ويرغبهم ثوابه ، ويحضهم على الجهاد ، الجهاد لاعلاء كلمة الله لا الجهاد للمال ولا للمجد ولا للبطولة ، الجهاد الذي لا يثمر إلا إحدى الحسنيين : الظفر أو الجنة .

هز نفوسهم ، فطرح عنها أثقال الاحقاد والشهوات والأهواء ، فلما تخففت منها سمت بجناحين من الايمان والاقدام ، الى آفاق لم تكن تظن أنها تبلغها . فكانت هذه الكلمات حين مست جوانب الايمان في النفوس ، قد زادت الجيش عدداً الى عدده ، وعُدداً الى عُدده ، فإذا هو جيش جديد ، قوي ، لو رمى به المرامي لاستجاب له ، ولو قَحَم به البحر لاقتحمه ، ولو رام به الجبال لدكها .. وكذلك تجدّد الجيوش ، وتُعَد للظفر .

وتوجه الجيش المؤمن على اسم الله ، لينشر الايمان في أرض لم ينتشر فيها . ويفيض النور على أمم لم تر بعد النور ، سار يصل الحلقات القديمة من سلسلة الفتوح الذهبية بحلقات جديدة ، سار ليتمم الرسالة ، ويحقق المعجزة ، ويحمل راية الاسلام مرحلة أخرى في طريقها المرسوم ، حتى تتم رحمة الله للعالمين ، فتظلل الأرض كلها .

وما هي إلا جولات حتى عجم الأعداء عوده ، وعرفوا أي سهم ماضٍ رماهم به الحجاج ، فأقبلوا يتسابقون إلى الطاعة ، وجعلت تتساقط على قدميه التيجان ، وجاء ملك الطالقان ، وملك الصغانيان ، من ملوك الترك ، فقدما

اليه مفاتيح من الذهب على وسائد من الحرير ، رمزاً للاستسلام بلا قيد ولا شرط ، وتبعها الملك الكبير الداهية نيزك طرخان . ملك باذغيس (في طرف الأفغان اليوم) فخضع له ، وتقدمت جيوشه ، فلم تلق معارضة تذكر ، حتى وقفت للمعركة الكبرى في بيكند على أبواب بخارى ، وقد تحالفت أمم الترك كلها على قتيبة ، وحصرته فانقطعت أخبار الجيش عن الحجاج ، شهرين كاملين ، حتى يئس ولم يبق لديه إلا اللجوء الى الله ، وكذلك يا أيها السامعون يرفع الناس وجوههم الى السماء ، كلما ضاقت عليهم سبل الأرض ، فيرون باب السماء مفتوحاً أبداً ، وإن غلقت عليهم أبواب الأرض كلها ، فأمر الخطباء بالدعاء لهم على المنابر .

وكان لقتيبة جواسيس في جيش العدو . فأغروا كبيرهم بأن يكون معهم على قتيبة ، وشروه على أن يغشه فجاءه وقال ، أخلني . فاختلى به ، وما معهما إلا واحد من القواد . فقال الجاسوس : إن العدو كثير ، وإن الحجاج قد عزلك وبعث آخر في مكانك ، وأنا أرى أن تنسحب بالجيش . قال : أما كثرة العدو ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين . وأما عزلي فأنا أقاتل لله لا للحجاج ، وأما أنت فقد خنت . وقرره فأقر فضرب عنقه ، وقال للقائد : لم يسمع هذا إلا أنا وأنت ، وإن فهت به لالحقنك بالخائن .

وكانت المعركة ، واشتدت ، وصدقوا الحملة ، حتى زلزلت المدينة ، واضطرب جيش الأعداء ، فطلبوا الصلح ، وكانت المعاهدة .

ولكنه لم يكد يرجع عنهم حتى نقضوا المعاهدة ، فعاد اليهم وصدمهم صدمة صدعت قلوبهم ، وكانت الهزيمة وفتحت بيكند ، وأصابوا فيها من الأسلحة والعدد والأموال والكنوز ، ما لا يعلم عدده إلا الله ، وتولى قسمتها ابن وألان العدوي وكان يسميه الأمين ابن الأمين .

وأسمعوا هذا الخبر عن أخلاق اولئكم الجند ، لتعلموا أنهم إنما غلبوا الامم وفتحوا الأرض بهذه الأخلاق .

طلب أحد القواد من ابن وألان أن يحفظ له نصيبه من الغنائم. قال : ابعث به الى مكان كذا فترى رجلاً فادفعه اليه ، وأنا أضمنه ، وانتظره ابن وألان ، فتأخر ، فظن أنه عدل عن إيداعه فانصرف ، وجاء جندي من تغلب ، فلما وصل الرسول رآه فوضع المال وانصرف ، فلما لم ير الجندي أحداً ، أخذ المال الى منزله ، واحتاج القائد الى شيء من المال فطلبه من ابن وألان ، فقال : لم آخذ منك شيئاً ، قال : بل أخذته ، واختصما وشاع الخبر حتى بلغ الجندي فجاء يسأل القائد : وما مالك ؟ وما علامته ؟ قال : علامته كذا ، قال : هو عندي . وجاء به فدفعه اليه لم تحل عقدة حزمه ، وأبى أن يأخذ منه شيئاً. وكان الجندي فقيراً والمال خمسمئة الف درهم أي نصف مليون ...

* * *

وتوجه الجيش الى بخارى ، الى البلد الذي استعصى من قبل على الفاتحين ، فلم يُقدر عليه. فكتب إلى الحجاج ، فكتب اليه الحجاج : صور لي صورة البلد ، فأرسل له مصورها . فقال : ائتها من جهة كذا ، ورسم له الخطة وهو في العراق ! .

واجتمعت الترك من أقطارها ، وهجموا على جيش المسلمين حتى أزالوا الجناحين وصدموا القلب ، وبلغوا مصاف النساء وقتيبة ثابت ، يسأل : أين محمد بن واسع ؟ وكان رجلاً صالحاً يصحبه في غزواته . قالوا : هو هناك يدعو الله ويشير باصبعه الى السماء ، قال : لهذه الاصبع أحب الي من مئة الف سيف شهير ، جاء النصر . من يبايع على الموت ؟ من يبيع نفسه من الله ؟ فتقدم كثيرون ، فاختار منهم ثمانمئة فدائي مؤمن ، كل واحد منهم بجيش ، لأن

من أراد الموت لا يموت ، ومن استعان الله لا يغلبه بشر ، ومن نادى من قلبه (الله أكبر) لا يقوى عليه قوي ، ولا يكبر كبير ، وحملوا فكان الفتح .

* * *

وغدر نيزك ومن كان أطاع من الملوك وثاروا ، وجمعوا الجيوش ، ولكن قتيبة ضربهم ضربة قاصمة ، أطاحت برؤوسهم وأعادت البلاد الى ظل راية محمد . ومشى ، مشى الى الأمام حتى بلغ ما لم يبلغه قائد من قبل ، ولم يصل اليه فاتح ، مشى حتى فتح في عام واحد قطرين عظيمين : قحند (خوارزم) وسمرقند ، بعد معارك يشيب لها الولدان ، ثم مشى حتى دخل كاشغر أول بلاد الصين .

* * *

ولا أريد أن أصف الخاتمة المروعة التي ختم بها جهاد هذا المجاهد ، والميتة الفاجعة التي ماتها هذا البطل ، والتي كانت إحدى الثمرات المريرة ، لهذه الغرسة الملعونة التي غرسها في تاريخنا معاوية رحمه الله . لبدعته الملكية الوراثية فمن شاء فليقرأ الخبر في تاريخ الطبري ، والبلاذري وفي كل تاريخ .

واني لأختمه بأغرب قصة في تاريخ الحروب في العالم .

قصة لم يقع لأمة مثلها ولا أظن أنها ستقع لأمة .

لقد كان من قتيبة في فتح سمرقند المدينة العظيمة شيء من الغدر . كما قال الناس ، فلما كانت خلافة الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ، رفع اليه أهل سمرقند ، دعوى على الجيش الاسلامي ، يدّعون فيها أن بلدهم فتح غدراً . فأمر عمر بتأليف محكمة خاصة من قاض فرد لرؤية هذه الدعوى .

وجلس القاضي الى سارية المسجد ، وأحضر المدعين والمدعى عليه ،

القائد العام للجيش الاسلامي ، وسمع أقوالهما ثم أصدر حكماً يستطيع القضاء الاسـلامي أن يفخر به على كل قضاء في الدنيا ، حكم ببطلان الفتح لأنه كان غدراً ، ولأنه خالف قواعد الاسلام في الحروب ، وبخروج الجيش الاسلامي منها . وإعطائها مهلة للاستعداد . ثم إعلان الحرب من جديد ، ونفذ هـذا الحكم الغريب وشرع الجيش بالانسحاب ، ولكن أهل البلد ، المدعين ، الذين شدهتهم هذه العدالة الاسلامية ، والذين ذاقوا نعمة الحكم الاسلامي في هـذه السنين الطويلة ، عادوا يطلبون طوعاً واختياراً أن يبقوا تحت راية الاسلام .

بهذا الايمان وهذه الاخلاق ، لا بسيوفنا ورماحنا فتحنا العالم ، وأفضنا عليه نور الاسلام . وبمثل هذا الايمان وهذه الأخلاق نستعيد فلسطين ، ونحرر من الاستعمار كل بلد إسلامي ، ونكتب صفحة أمجادنا في التاريخ مرة اخرى إن شاء الله .



من ورثة الانبياء

هذه قصة عالم . عالم أخلص للعلم حتى جعل طلبه أكبر غاياته . . وغاية حياته ، وكان (كما قال عن نفسه) يمشي الايام في طلب الحديث الواحـد . وبلغ فيه منزلة . شهد مكحول الدمشقي العلامة بأنه طاف الارض كلها في طلب العلم ، فلم يجد أعلم منه . وكان أحد بناة هذا الصرح العلمي الذي شاده العلماء المسلمون من تلاميذ محمد ﷺ .

وكان في هيبته وجرأته وصراحته مع الملوك أمة وحده .

وله مواقف مع عبد الملك والوليد والحجـاج تقرؤها فتحسبها من أحاديث الخيال .

رفض عطاء السلطان . فتراكمت رواتبه حتى بلغت ثلاثين ألفـاً فلم يأخذ منها درهماً وكان له (٤٠٠) درهم يتجر بها بالزيت ويعيش منها .

وكان فقيهاً ، وكان محدثاً ، وكان أديباً ، وكان شاعراً .

وبقي أربعين سنة لا يسمع الاذان إلا وهو في المسجد ، ولم يبدل مكانه من الصف الاول .

طلبه عبد الملك مرة فأرسل مدير شرطته فوقف عليه في الحلقة وأشار بأصبعه ، أن تعال ، وأدار ظهره يحسبه قد مشى خلفه ، فلما لم يره ، ظن أنه لم يبصر الاشارة ، فرجع فأشار اليه . فلما لم يردّ ، قال : هيه .. أنت .. قم أجب أمير المؤمنين . قال : مالي اليه من حاجة . قال : لو كان الأمر اليّ لضربت

عنقك . . يدعوك أمير المؤمنين ولا تجيب ؟ . . قال : إن كان يدعوني ليعطيني شيئاً فهو لك ، وإن كان لشر ، فاني والله لا أحل حبوتي حتى يقضي الله ما يشاء .

ورأى الحجاج مرة يسيء الصلاة فنبهه فلم يسمع ، فرماه بكف من حصى المسجد .

* * *

وأنا محدثكم عن منقبتين فقط من مناقبه الكثيرة .

أما الاولى ، فلتروا ما كان يلقى العلماء في سبيل عقيدتهم . كانوا يضربون ويحبسون ، ويؤذون في أجسادهم وأموالهم ولا يبدلون رأياً ولا مذهباً ، ولا يبالون في الحق أميراً ولا ملكا .

وأما الثانية ، فلتعلموا أنهم كانوا اذا دعوا الى خير بدأوا فيه بأنفسهم . لم يكن العلم عندهم بضاعة للتصدير فقط ، كما هي الحال عند قوم يعظون ولا يتعظون ، ويعلمون ولا يعملون .

كان سعيد يفتي بأن الرسول ﷺ نهى عن بيعتين ، فلما أراد عبد الملك ابن مروان ، أن يبايع لولديه الوليد وسليمان من بعده ، وتبعه الناس وبايعوا لم ينس سعيد فتواه ، ولم يتناسها ، ولم يجد لنفسه مخلصاً بفتوى جديدة ، ولم يقل إني واحد من الناس ، وقد بايعوا فلأبايعن مثلهم . ولم يخدع نفسه بهذه الخدعة الشيطانية فيقول : إن القوم إذا لم أبايع نالوا من كرامتي وحقروني ، وأنا رمز العلم والدين فيكون التحقير للدين . ولكنه وقف موقف الحق فأبى البيعة .

وبذل له أمير المدينة أنواع الترغيب والترهيب فأبى ، فهدده بالجلد علناً ، وضج العلماء ، وتوسطوا الخلاف ، ففوضهم الأمير أن يفعلوا مايريدون

فذهب وفد من كبار العلماء، سليمان بن يسار، وعروة بن الزبير، وسالم بن عبد الله بن عمر. فعرضوا عليه أن يسكت فلا يقول لا ولا نعم. قال: أنا أسكت عن الحق؟ لا. وكانوا يعلمون أنه إذا قال «لا» فليس في الارض قوة تجعله يقول «نعم».

قالوا: فاعتزل في بيتك أياماً حتى تمر العاصفة. قال: أبقى في بيتي فلا أخرج الى الصلاة، وأنا أسمع، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، وما سمعتها من أربعين سنة إلا وأنا في المسجد؟ لا.

قالوا: فبدل مكانك من المسجد، حتى إذا جاء رسول الامير لم يجدك فيه فقال له لم أجده، قال: أخوفاً من مخلوق؟ لا. لا أتقدم عن مكاني شبراً ولا أتأخر شبراً.

ودعاه الامير فهدده بالقتل، فقال: نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين.. يقرر الحكم كأنه في حلقة الدرس، وكأن السيف ليس على عنقه. لا يسكت خوفاً من السيف، ولا يكتم العلم، ولا يبدل الحكم.

فأمر بأن يساق الى ساحة العقوبات، وجرد من ثيابه، إلا تباناً قصيراً [1] وضرب خمسين وأخذ الى الحبس.

وهنا حادثان طريفان جداً:

الأول: ان قتادة (العالم المشهور) أقبل عليه وهو يضرب، فقال: إني أخاف أن يموت، ويذهب علمه، وإني أحب أن أسأله عن مسائل. فتركوه يسأله وراح سعيد يجيبه ويناقشه والدم يسيل من ظهره.

فما دريت لما قرأت الخبر. أأعجب من حرص قتادة على العلم، وأنه لم يبال في سبيله بهذه المجاملات؟ أم من وقار سعيد للعلم، وأنه لم يحفل

---

(١) التبان: ثوب المصارع ونحوه، او هو شيء كالمايوه!

بالأذى في سبيله ؟ أم من هؤلاء الجلاذين الذين يتركون ماهم فيه ، ويصغون الى هذه المناقشة العلمية الغريبة ؟

تصوروا لو أن أعلم العلماء . وأوسعهم صدراً ، كان في هذا المقام ، وجاء من يسأله . . .

* * *

والثاني : أن بنته صنعت له لما سجن طعاماً كثيراً ، وجاءت به . فقال لها : هذا ما يريده هشام (الأمير) أن أفتقر ويذهب مالي ، فأحتاج الى أموالهم فيستعبدوني بها ، ولا أدري الى متى يمتد سجني ، فانظري ماكنت آكله كل يوم في بيتي فأتيني به ، فان العلماء لايذلون إلا احتاجوا لأموال الملوك [1] .

ولما بلغ عبد الملك ضربه ، كرهه ولام الامير ثم أمر بعد بعقابه . فأوقف للناس وولى مكانه الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز ، فقال سعيد

---

(١) هذه كلمة الحق ، ومـا ذل العلماء الا يوم اتكلوا على الرواتب ، وعلى اموال الاوقاف ، وهدايا الناس ، ولقد عهدنا في دمشق طبقة من العلماء التجار ، احيوا في ذلك سنة ابي حنيفة والليث وابن المبارك ، آخرهم فقيه الشافعية في دمشق الشيخ صالح العقـاد مد الله في عمره ، ووجدت رجالا من هذه الطبقة في الموصل ، ومن اعجب ما وجدت اني كنت القي محاضرة في دار الاخوان في سنة ١٩٥٤ ولقيت رئيس الجماعة وهو شيخ فاضل ، ومررت في اليوم الثاني بالسوق ، فقال لي اخي الاستاذ الصواف ، اتأكل لحماً مشوياً عند هـذا اللحام ؟ واشار اليه وقال : أتعرفه ؟ فنظرت فلم أعرفه ، فامعنت النظر فاذا هو رئيس الجماعة ، يشتغل ويعيش من كده وعمله ، فأكبرته وجعلته مثلا اضربه .

ولو ان العلماء استغنوا بمالهم عن اموال الناس ، وعن رواتب الدولة ، لرأيتم ما عزة العلم ، وما هيبة العلماء .

لأولاده وأهله : إياكم والتعرض له بعد عزله او الشماتة به لما ناله . إني ادعه حتى يحكم الله بيننا .

* * *

أما المنقبة الثانية فهي موعظة للعلماء والناس ، وهي درس اجتماعي لو حفظه الآباء لما بقي في البيوت بنت كاسدة ، ولما بقي في البلد شاب فاسق . واسمعوا القصة :

نحن في المدينة ، وفي المدينة شيء لاندري ماهو ؟ . . إن الناس قد خرجوا الى الطرق ، والنساء قد أطللن من شقوق النوافذ ، انهم يرقبون شيئاً ، تعالوا نسأل ماذا هناك ؟

إن الناس يرتقبون موكب رسول الخليفة ، المندوب الخاص لعبد الملك ، قادماً بمهمة لايعرف الناس ماهي ، فهم يتخرصون ويحزرون .

لقد وصل الموكب ، وأسرع الى المسجد ، والمسجد هو مجمع كل أمر جلل ، فيه تكون البيعة ، وفيه يستقبل الأمير ، وفيه تلتقي الوفود ، وفيه يكون القاضي وتجري المحاكمات ، وفيه تلقى الدروس ويؤخذ العلم ، فهو البرلمان وهو القصر وهو المحكمة وهو الجامعة .

وأقبل الرسول حتى وقف على حلقة سعيد ، فأبلغه سلام أمير المؤمنين ، وأنه قادم يخطب اليه ابنته ، للوليد ولي عهد المسلمين ، وغبط الناس سعيداً على هذه النعمة ، التي نزلت عليه وعلى هذا التشريف الذي ناله ، وعلى الدنيا التي سيقت اليه ، بنته زوجة الوليد ولي عهد المسلمين اليوم ، وأمير المؤمنين غداً ، وسيد البلاد الاسلامية كلها .

وارتقبوا ان يهش سعيد ويبش ، ويطير فرحاً بهذه النعمة ، ولكن موازين الناس غير ميزان سعيد ، ميزانه ميزان الشرع ، الناس يفتشون

عن المال والجاه ، ولكن سعيداً يفتش لابنته عن السعادة الزوجية ، عن الخلق والدين ، عن الطهر والفضيلة ، وماذا تفيده دنيا الوليد ، ان مهرت ابنته بهذه الدنيا دينها ؟.

ان الرجل الديّن الحسن الخُلق الفقير ، خـــير للمرأة من ابن أمير المؤمنين ، لأن هذا يكون لها وحدها وذاك تشركها فيه الزوجات والجواري ومن تدري ومن لاتدري ...

وإذا كان لك عبد مخلص ، يحبك ويشكر فضلك ، ويطيـع أمرك ، وأرسلته بأمانة ليدفعها الى زيد فأعطاها عمراً ، هل تكون عنه راضياً ؟

كذلك أنت أيها الأب .

انك عبد الله ، والبنت أمانة عندك ، وقد أمرك ان تعطيها لمن يماثلك في مسلكه ومشربه ، ويرضيك دينه وخلقه ، فان رفضته وبحثت عن الغنى . او جعلت بنتك سلعة تباع ، فقد أسخطت ربك وآذيت بنتك .

وهل البنت فرس او نعجة حتى تباع لمن يدفـع فيهـا الثمن الاكبر ؟ وماذا يفيدك كثرة المهر . والزواج إذا كان موفقاً كان لها ماله وله مالها . وان لم يكن موفقاً لم ينفع البنت ما أخذت من مال .

فكر سعيد في هذا كله في لحظات . والرسول واقف ينتظر جوابـه ، ولا يشك في أنه جواب الموافقة ولا يشك الناس .

وإذا بسعيد يقول : لا .

لا ! إنه رفض ان يعطي ابنته لأمير المؤمنين .

ومرت أيام ، وكان له تلميذ اسمه ابو وداعة متين الدين ، رضي الخلق ، انقطع عن الدرس ، ثم جاء فسأله فقال : مرضت زوجتي فمرّضتها وعنيت بها ، ثم توفيت فدفنتها .

فقال : هل تزوجت غيرها .

قال : ومن يزوجني ولا أملك إلا أربعة دراهم ؟ فمن يزوجني بأربعة دراهم قال سعيد : أنا .

هل سمعتم يا أيها السادة ، سعيد الذي رفض ابن أمير المؤمنين ، الذي يملك ما بين البحر الاطلنطي وجبال الصين ، يزوج أبا وداعة الذي لا يملك إلا أربعة دراهم .

وُشده الرجل وكذب أذنه وعقدت المفاجأة لسانه . . وحسب نفسه في منام ولكن سعيداً دعا بالشهود وعقد العقد .

وذهب الرجل الى داره وهو لايزال في حمّى الدهشة ، وقدم عشاءه . وكان خبزاً وزيتاً واذا بالباب يقرع .

قال : من ؟ . . قال : سعيد .

قال ابو وداعة : ومرّ على بالي كل سعيد في الدنيا إلا سعيد بن المسيب . لأنه لم يطرق باب أحد من أربعين سنة ، ولا رُئي إلا بين بيته والمسجد .

ففتح له : فقال : كرهت أن يسألني الله عن وحدتك . ولك زوجة فجئت بها ودفع العروس .

هكذا ! بلا حفلات ولا عرس ولا جهاز !

قال : رحمك الله ، ألا انتظرت حتى أحصل مالاً وأعد للعرس عدّة .

قال : أما قلت ان معك أربعة دراهم !

أربعة دراهم ! فعلام الحفلات ؟ وهل الزواج رباط بين روحين ، وصلة بين قلبين وبيت يضم اثنين أم هو معرض اثاث وثياب ، ومنافرة كرم ، واكتساب شهرة إن هذه الحفلات يا ناس ، لا تخرب بيت الزوج والأب فقط ، بل تخرب عشرين بيتاً ، تتزوج بنت عم خال امرأتك فتكلفك ثوباً يعجز

غنه موردك ، فإن شربته اضطربت موازنتك ، وإن أبيت تنغص عيشك .

قال ابو وداعة :

ورأيتها أجمل امرأة وا كملها ، ولما اصبحت غدوت لأذهب ، قالت : إلى اين ؟ قلت : إلى مجلس سعيد وقالت : أقعد اعلمك علم سعيد .

وإذا هي عالمة محدثة ، ولقد كنا بعدُ إذا أعيت العلماء مسألة ، رجعنا إليها يا سادة : إني لا استطيع ان احدثكم بمناقبه كلها . فلنقف عند هاتين المنقبتين ، ولنأخذ منها دروساً . . درساً للعلماء ودرساً للآباء ، ورحم الله من يسمع فيعي . . ويعلم فيعمل .



الامام الاعظم

تدخلون الجامع الاموي فترون المحراب الحنفي ، ومحراب الشافعي ، وتستفتون الشيخ في المسألة فيقول لكم الحكم في المذهب الحنفي كذا ، والحكم في المذهب الشافعي . . وتسألون الرجل عن مذهبه ، فيقول لكم ، مذهبي حنفي ، او شافعي ، او مالكي ، او حنبلي ، فان لم يكن له مذهب من هذه المذاهب الاربعة تشكّون في دينه ، لأنكم لاتتصورون مسلماً لايتبع واحداً من هذه المذاهب الأربعة ...

ولكن القليل منكم من يعرف من اصحاب هذه المذاهب ، واقل منهم من يعرف ما هذه المذاهب . وما مكانها من الاسلام .

ولست ادعي اني من اصحاب الكرامات والخوارق ، حتى افهمكم ذلك كله في عشر دقائق ، لا املك غيرها ، واذا اطلت وسرقت شيئاً عن وقت غيري فانما اسرق ثلاث دقائق او اربع ، وهي لاتكفي لشيء ، لذلك اعتذر اليكم اذا انا لم استطع ان اعرض عليكم من هذه اللوحة الضخمة ، الا الخطوط الكبرى ، على اني (ولا أمنّ عليكم) قد تعبت في هذه المحاضرة القصيرة ، اكبر من تعبي لو ألفت في موضوعها كتابا .

ولا تنتظروا مني الليلة قصة مسلية ، او خطبة مدوّية ، لا ، انه درس ، درس علمي هادىء ، ورب درس انفع من خطبة .

* * *

يا ايها السامعون . ان القانون اليوم مطبوع منشور يصل الى يد كل فرد من الامة ، ولكن لا يفهمه كل فرد ، لذلك توكل محامياً ان كانت لك دعوى ، لأن المحامي قد تفرغ لدرس القوانين ، وانقطع لذلك ، ويحضر المحامي الجلسة ويفسر مادة القانون تفسيراً يؤيد دعواه ، فيأتي محامي الخصم فيفسرها تفسيراً آخر ، والمحكمة تقبل احد التفسيرين ، او تجيء بتفسير ثالث ، والمحكمة التي فوقها تفسرها تفسيراً رابعاً ، ثم تأتي محكمة التمييز بتفسير للمادة تجنح المحاكم الى الاخذ به واعتباره هو التفسير الصحيح ، فأنتم ترون ان المادة القانونية واحدة ، ولكن تعددت تفاسيرها ، واختلف الحكم المستنبط منها وكذلك الحال في أدلة الاحكام الشرعية .

ونحن نرى اناساً يتركون اجتهاد محكمة التمييز في القانون ، ويفسرونه كما يريدون ولو لم يكونوا من اهل العلم والفهم ، ومثلهم من يترك المذاهب ، ويحاول ان يأخذ من الكتاب والسنة ، من غير ان يبلغ درجة الأئمة الأولين ، او يفهم فهمهم ، مكتفياً بأنه نظر في كتب الحديث وصار يعرف رجالها ودرجاتها .

ونحن المسلمين ، قانوننا هو القرآن ، وشرحه الرسمي الحديث ، ومذكرته الايضاحية اسباب النزول والتفسير ، فمن الناس من لم يشتغل بالعلم ، فهو لايستطيع ان يفهم الحكم من القرآن والحديث ، فيرجع الى المختصين ، كما رجعت عند اقامة الدعوى الى المحامي ، والمختصون (وهم العلماء المجتهدون) يختلفون في الفهم والتفسير ، وهذا شيء طبيعي ، كما ان التقليد طبيعي ، اذ ان من الناس من ينقطع الى علم من العلوم فيجتهد فيه ، ويقلد في غيره ، فنحن نقلد الاطباء والمهندسين ونأخذ بأقوالهم ، بلا وقوف على دليلها ، حتى ان الصحابة انفسهم ، كان اكثرهم مقلدين ، ولم يكن يفتي فيهم الا عدد قليل ،

ولكنها لم تجمع فتاواهم ، ولا فتاوى التابعين لهم ، وأول من انقطع للفتوى والاستنباط ، وجمعت اقواله وتعدد اصحابه حتى صارت له مدرسة او مذهب هو ابو حنيفة .

* * *

فمن هو ابو حنيفة ؟

يا سادة : كان في العراق شاب جميل غني ، اسمه ثابت بن النعمان ، فارسي الاصل ، تقي ورع ، كان يتوضأ يوماً من النهر ، فرأى تفاحة فأكلها ، ثم خاف ان يكون اكلها حراماً [1] ، فبحث عن شجرتها حتى وصل الى صاحبها ، فقال له : سامحني ، فعرفه الرجل ، وقال : لا اسامحك الا بشرط ، هو ان عندي بنتاً صماء (طرشاء) خرساء عمياء ولا اسامحك حتى تتزوجها ، ففكر ، فرأى ان الدنيا موقوتة وان عذابها بهذا الزواج ايسر من عذاب الآخرة فقال : انا لله وانا اليه راجعون . لقد قبلت .

فزوجه بها ، فلما دخل عليها ، وجد فتاة كأنها القمر ، ذات فهم ودين ، فقال لأبيها : لم قلت انها عمياء صماء خرساء ، قال : لأنها لم تر الرجال ولم تسمعهم ولم تكلمهم .

ومن هذين الزوجين الصالحين الجميلين الغنيين ، ولد صبي قدّر له أن يكون له جمالهما وتقاهما ، وان يكون آية الآيات ، واعجوبة الدنيا في الذكاء والعلم ، هو النعمان بن ثابت . هذا اسمه ، أما ابو حنيفة فكنيته ، ولم يكن له بنت إسمها حنيفة ، ولكن الحنيفة الدواة بلغة العراق (العامية) ، كنّوه بذلك لحمله الدواة من صغره ، ودورانه على العلماء ، كذا قالوا والله أعلم .

ونشأ مرفهاً مدللاً ، أنيق الثوب ، عطر الاردان ، وكان تاجراً

---

(١) ولو كان فقيهاً لعلم انها ليست حراماً .

كبيراً ، يبيع الخز ، وكان ورعاً متعبداً بقي عشرين سنة (كما رووا) يصلي الصبح بوضوء العشاء ، ويبكي من خشية الله ، وكان كريماً : سامح مرة بعشرة آلاف ، وسألوه مرة عوناً لعالم مدين بأربعة آلاف ، فأداها كلها . وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، وكان يجري رواتب على كثير من العلماء فهو رجل قد اوتى الدنيا والآخرة ، والعلم والعمل ، والغنى والكرم ، مثله في ذلك مثل الليث بن سعد ، كان كثير الاجتماع بالعلماء ، والأخذ عنهم ، أدرك اربعة من الصحابة ، وآلافاً من التابعين ، واشتغل اول أمره بعلم الكلام حتى صار المقدم فيه ، لا يقوم له أحد في المناظرة ، حتى وقعت له واقعة جرفته الى الفقه وهو أشرف العلوم ، وهو لب الدين ، وما التوحيد والحديث والتفسير إلا مقدمات له ، كشروح القانون ، أما الدين فهو الفقه ، وهذه الواقعة ان امرأة سألته عن مسألة في الطلاق فلم يعرفها ، فدلها على حماد بن أبي سليمان فقيه عصره ، وقال لها : سليه واخبريني . فلما اخبرته ، لزمه ولم يعد يفارقه .

لزمه عشر سنين ، ثم نازعته نفسه الرياسة ، وان تكون له مدرسة (حلقة) مستقلة ، ولكنه أبى إجلالاً لحماد ، وغاب حماد غيبة ، فقعد مكانه فأفتى في شهرين في ستين مسألة فلما رجع أقره على اربعين وخالفه في عشرين ، فلزمه حتى مات ، ولما مات فتشوا عمّن يلي مكانه فقدموا ابنه ولكن الأدب كان اغلب عليه ، فلم يقم به ، فقدموا شيخاً من اصحابه يقال له موسى بن ابي كثير فلم يقم به ، وخافوا ان تنحل حلقة حماد ، فقالوا : لو قدمتم هذا الفتى الخزاز (تاجر الخز) . فقدموا ابا حنيفة فنهض بها حتى جعل هذه الحلقة مدرسة باقية ومذهباً خالداً ابد الدهر .

* * *

اجتمع حوله طائفة من التلاميذ صاروا بعد اعلام الدنيا ، وكان كل واحد منهم مختصاً بناحية فاذا وردت مســألة بحثوا فيها وتناقشوا . وقد يبحثون المسألة شــهراً حتى يتجه لهم الحكم فيها . فكان مجلسه (برلماناً) ولكن أعضاءه من نوابغ الدهر .

سئل وكيع بن الجراح وهو شيخ الشافعي : هل أخطــأ ابو حنيفة ؟ قال : كيف يقدر ابو حنيفة أن يخطىء وعنده مثل ابو يوسف وزفر ومحمد في قياسهم واجتهادهم ، ومثل يحيى بن زكريا وحفص بن غياث وحبان ومندل في حفظهم للحديث ومعرفتهم ، والقاسم بن معن (ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود) في معرفته باللغة والعربيــة ، وداود الطائي والفضيل بن عياض في زهدهما وورعهما ، هؤلاء وأمثالهم هم أعضاء (البرلمان) الحنفي ، وهذا ما يمتاز به مذهب الحنفية عن المذاهب الاخرى . وهو أول من رتب الفقه في أبواب ، ومالك إنما سار على غراره في الموطأ .

* * *

وكان لأبي حنيفــة (ذهنيــة) فقهية عجيبــة ، وطريق دقيق في استنباط الأحكام ، وبيان عللها ، بينما الذي يغلب على مالك أنه كان حافظــاً للحديث يرتبه ، ويأخذ منه الحكم ، وأحمد كان محدثاً فقط ، ولم يكن فقيهاً . ولم يعده المتقدمون مع أصحاب المذاهب ، والشافعي وســط بين طريقة مالك وطريقة ابي حنيفة لأنه أخذ عن مالك ، وعن الامام محمد ، فهو تلميذ تلميذ أبي حنيفة .

وكان ابو حنيفة إذا أشكلت عليه مسألة ، قــال لأصحابه : ما هذا إلا لذنب أحدثته فيستغفر الله ويصلي حتى تتفتح له . فكان يصدر في تفكيره عن خشية الله .

ومن الأمثلة على ذكائه وأسلوب تفكيره التشريعي ، إن الضحاك لم يكن يرى التحكيم ، وكان ابو حنيفة يراه ، فدعاه الى المناظرة فقال ابو حنيفة : إن اختلفنا فمن يحكم بيننا ؟ قال : إختر ، قال : اخترت فلاناً من أصحابك ، قال : فناظرني ، قال : قد ناظرتك وغلبتك ، أنت جوزت التحكيم (أي بقبوله الحكم) .

وشهد الأئمة الكبار : مالك والليث والاوزاعي والشافعي وسفيان وابن المبارك بأنهم لم يروا مثله أبدا .

عاش حياته كلها من كسبه يوزع المال والعلم ، ويعلم الناس الفقه والتقى والكرم ، أرادوه على الولاية مرتين : مرة أيام بني أمية ومرة أيام بني العباس ، وضرب في المرتين فرفض ، فكانت الأخيرة سبب وفاته .

* * *

والمذهب الحنفي اليوم ، أوسع المذاهب انتشاراً ، وأوسعها فروعاً وأقوالاً ، وهو أنفع المذاهب في استنباط القوانين الجديدة ، والاجتهادات القضائية ، يليه المذهب المالكي ، وقد عرفت ذلك في السنين التي اشتغلت فيها بوضع مشروع قانون الأحوال الشخصية ، وسبب ذلك أن المذهب الحنفي صار مذهب دولة طول مدة العباسيين والعثمانيين ، وهي ثلاثة أرباع التاريخ الاسلامي ، والمالكي مذهب المغرب طول هذه المدة ، فكثرت فيها الفروع والمناقشات ، أما المذهب الشافعي فلم يكن مذهباً رسمياً إلا حقبة قصيرة أيام الأيوبيين ، بينما اقتصر المذهب الحنبلي على نجد والحجاز اليوم .

رحم الله الأئمة الأربعة ومن كان قبلهم وبعدهم ممن لم يدون مذهبه ، ولم يكن أقل منهم : الليث والأوزاعي وسفيان وحماد ، ورحم أبا حنيفة من كان أقدمهم ، وكان أقدرهم ، ومن دعي بحق (الامام الأعظم) .

أكبر ملوك الأرض

أنتقل بكم في هذا الحديث الى أزهر عهد من عهود الحضارة الاسلامية ، إلى أعلى ذروة في سلسلة أمجاد العرب ، إلى الدور الذهبي ، إلى الأيام التي كانت كلها أعراساً [1] .

الى المدينة التي شهدت من الترف والبذخ ، والعظمة والجلال ، ما لم تشهد مثله مدينة ، لا روما في الماضي ولا باريس الآن ، الى المدينة التي كان فيها مليونان من البشر منذ الف ومئتي سنة . حين كانت باريز قرية أصغر من دوما ، وكانت اميركا صحراء مافيها إلا الوحوش . . . وكانت فيها القصور التي تفتن بصحونها وابهائها ، وزخارفها ونقوشها ، وشرفاتها وقبابها ، وفيها البساتين التي جلبت اليها غرائب الأشجار ، ونوادر الأزهار ، من كل مكان . وفيها ستة آلاف حمّام ، وفيها عشرون ألف مسجد ، وفي نهرها ثلاثون زورق ، تميس على صفحة الماء كل عشية فيكون منها مجالس علم ، ويكون منها مجالس طرب ، ويكون منها مخادع غرام ، ويكون منها خلوات تأمل ، وكان فيها (في تلك الأيام) معامل تصنع الزجاج والورق ، وتضرب النقود ، وتنسج أنواع النسيج وتطرز وتنقش . وفيها الاختراعات التي أدهشت اهل

---

(١) كذلك قالوا ، وما جاء ذلك الا من أكاذيب قصة ألف ليلة ، والحق ان أزهر عهود التاريخ ، عهد أبي بكر وعمر ، وكل خليفة قوي عادل ، عامل بكتاب الله ، قائم بحقوق الرعية ، لا طاغ ولا ظالم ، ولا عاص ولا آثم .

اوربا لما حملها وفود الرشيد الى شارلمان ، حتى حسبوا أن في الساعة جنياً يقرع أجراسها .

مدينة كانت دنيا كاملة ، فيها الخير والشر . العلم فيها وفيها الفسوق . والدين فيها وفيها اللهو والمجون ، وفيها المحدثون وفيها الصالحون ، وفيها الشعراء وفيها المغنون ، وفيها العفيفات المحصنات ، وفيها الجواري المسافحات ، وفيها أفحش الغنى ، وفيها أفظع الفقر ، وفيها التجار وفيها الشطار ، وفيها اللصوص ، وفيها الشحادون ، ولكل عالم لاتدرى به عوالمها الأخرى .

مدينة كانت القوافل لاتنقطع عنها لحظة من ليل او نهار ، تحمل اليها كل ذي علم وفن ونبوغ ، وكل ذات جمال وسحر وفتون ، ويستقر فيها أحسن وأجمل ما تخرج الارض ، من ثمرات الطبيعة ، ونتاج العقول . اختصرت فيها الدنيا فكان فيها أمم من كل جنس ولسان في الدنيا .

تلك هي بغداد . بغداد هرون الرشيد . بغداد الف ليلة وليلة ، بغداد التي صارت حلماً من الأحلام ، ووحياً لكل أديب وشاعر وواضع قصة او فلم ، من تلك الايام الى الآن ، ومن أقصى المشرق الى هوليود .

لقد كانت بغداد سرة الدنيا وكانت قصبة الارض ، وكانت أمل كل طامح في المجد ، راغب في العلم ، آمل بالغنى ، هائم بالجمال .

* * *

لقد أشرفنا على بغداد ، فماذا فيها ؟ ماذا في بغداد ؟ ما هذه الحشود ؟ ما هذه الجنود ؟ ما هذه الأعلام والبنود ؟ لماذا يفرش السجاد على الارض ؟ لماذا يقوم الجند على الجوانب ؟.

تعالوا نسأل .

ما هذا يا عم ؟

ألا تدري؟ إنه وفد ملك الروم .. لقد صف أمير المؤمنين على طريقه مئة وثمانين ألفاً بثياب واحـــدة وهيئة واحـدة ، سيوفهم مشهرة ، وهم متسربلون بالحديد ، وفرش لهم ثمانية وعشرين الف سجادة وأقام لهم أربعـين ألف ستارة من الديباج والحرير ، وترى إذا حل الليل سلسلة من المصابيـح العجيبة - طولها أربعة فراســخ ، وصف لهم في مدخل القصر ، الوحوش المدربة من السباع والفهود لتحييهم . اما داخـــل القصر قصر الخلد ففيه ما لا يستطيع أن يصفه لسان .

يا سادة :

هذا هو هرون الرشيد .

الرشيد الذي كان يحكم وحده ، حكماً استبدادياً مطلقاً عشرين حكومة من حكومات اليوم .

الرشيد ، الذي قال للسحابة أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك .

الرشيد ، الذي كان دخل خزانته الخاصة ٤١١ مليون دينار من الذهب كل سنة .

الرشيد ، الذي كان صورة من عصره ، صورة من بغداد التي فيهـــا كل شيء .

هذا هو الرشيد الذي جعله الحظ أشهر ملوك الاسـلام ، أنظروا الى عمل الحظوظ ! الحظ هو الذي جعله أكبر ملوك الاسلام اسماً ، وأوسعهم ذكراً ، وأعظمهم ملكاً ، وما كان له دهاء معاوية ، ولا مضاء عبد الملك ، ولا صلاح عمر بن عبد العزيز ، ولا إصلاح الوليد ، ولا أعصاب المنصور. لا . ولم يكن في مواهبه ، وعظم شخصه ، من الوزن الراجح ولقد كان مروان الثاني ، وكان الخلفاء الذين جاؤوا قبيل انهيار الدولة العباسية ، أرجح

منه وزناً ، وأقوى شخصية كما يقولون ، ولكنهم جاؤوا والزمان مدبر ، وجاء هو في اقبال الزمان .

إن أعظم حكام الاسلام حقيقة هم الذين جمعوا صلاح النفس ؛ واصلاح الدولة ، وكانوا أهل تقى وأهل بصر ، وجمعوا التوفيق في الدنيا والدين ، أمثال الخمسة الكبار أبي بكر وعمر وعمر بن عبد العزيز ونور الدين وصلاح الدين واورانك زيب ملك الهند .

وليس الحديث عن حياة الرشيد عامة ولا أستطيع أو اوفي الحديث عنه في ربع ساعة ولو كنت من السحرة او من أرباب الكرامات . ولكن حديثي عن ناحية منه واحدة هي (الرشيد والعلماء) .

* * *

وأنا مولع بتحليل النفوس ، نفوس الأحياء من الاصدقاء ، والأموات من رجال التاريخ ، وكشف خفاياها ، ورد مظاهرها المعقدة الى عناصرها الاولى ، والذي استخلصته من تحليل نفسية الرشيد ، أن هذا التناقض الظاهر في شخصيته ، من لهوه المفرط ، وعبادته المفرطة ، وقتله الأبرياء ، وبطشه البطشة الكبرى بالبرامكة ، إلى بكائه وسماعه المواعظ ، وحجه ماشياً من بغداد الى عرفات . وحرصه على الوحدة الاسلامية ، وتحالفه مع شارلمان الاجنبي ، ضد ابن عمه الاموي صاحب الاندلس ، وعزمه على الأمر العظيم كما عزم على فتح قناة السويس قبل دليسبس باكثر من ألف سنة ، ثم رجوعه عنه لأيسر اعتراض .

الذي استخلصته أن مرجع ذلك كله ، إلى عقدة نفسية فيه ، هي أنه كان مؤمناً محباً في قرارة نفسه للتقى والصلاح ، ولكنه لم يستطع أن يوفق بين أعماله ، وبين هذه الرغبة في الصلاح . وكانت تغريه مغريات الملك ،

فيوغل في اللذة وفي البطش ، ثم يتنبه ايمانه فيمضي أكثر ايامه تحت ثقل تأنيب الضمير ، وهذا تعليلُ منعِه الناس أن يذكروا البرامكة أبداً بعد بطشه بهم ، فيحسب من يقرأ الخبر أنه نسيهم ، مع انه لم ينس الحادث لحظة ، وهو يمنع الناس من الخوض فيه ليفر من نفسه . وهذا تعليل قيامه من مجلس الغناء والشراب ، الى الصلاة والتهجد ، حتى ليصلي مئة ركعة كل ليلة ، فتخدع صلاته المؤرخ الثقة حتى يكذب أخبار لهوه ، كما فعل ابن خلدون .

* * *

ومن هنا جاءت محبته لمجالسة العلماء والصالحين ، وسماعه المواعظ وبكاؤه لها ، كان يبكي باخلاص وكان عند سماعها مستغرقاً في الجو الديني ، كما أنه كان عند سماع الغناء ، يستغرق في الجو الدنيوي ، ولم يكن منافقاً ، ولكنه نوع مما يسميه علماء النفس ازدواج الشخصية ، موجود عند كثير من الناس ، ولكن يختلف مقداره وتختلف درجة احساسهم به .

وكان أحياناً يشعر بحاجة الى هذه المواعظ ، ويطلب المشايخ كما يطلب المريض الطبيب ، وأنتم تعرفون قصته ، لما اعترته إحدى هذه الحالات ، فقال لحاجبه : دلني على عالم أسمع منه ، فأخذه الى عالمين عظيمين فتلقياه ، كما يتلقى الرجل العادي خليفة العصر ، وتواضعا له وعظماه ، فأعطاهما الجائزة ، ولكنه لم يجد عندهما الدواء ، حتى مشى الى الفضيل بن عياض فتلقاه كما يتلقى رجل الآخرة أحد أبناء الدنيا ، ونظر إليه بعين الشرع ، فما رأى فيه اكثر من فرد غلبته نفسه ، وعصى ربه ، فوعظه وعظاً صريحاً شديداً وأبكاه ، ورفض هديته ، وأخرجه من داره ، شبه مطرود ، ومع ذلك فقد سرّ الرشيد ووجد عنده السكينة والشفاء .

* * *

وكان العلماء معه ثلاثة أصناف ، صنف ينافق ليرضيه ويأخذ من دنياه ، وهؤلاء هم الأقل ولم ينالوا منه خيراً كثيراً ، لأن المنافقين من العلماء وان نجحوا حيناً ، لا تكون عاقبتهم إلا الخيبة وخسران الدين والدنيا .

وصنف يغلظ له القول ، ويشدد عليه الموعظة ، ويقوم بحق الله بلا مجاملة ولا رعاية لمقامه الدنيوي ، ولا يتعمدون ذلك بل يرونه الشيء الطبيعي [1] ، لأنهم مع الله دائماً ، قد حقروا الدنيا وكل ما فيها من جاه ومال فلم يعد يروعهم ملك ملك ولا عظمة أمير. وهؤلاء ايضاً قلة ، ردوا عطاياه وجوائزه ، ولكن حازوا احترامه واكباره .

والكثرة من العلماء كانوا يقولون الحق ، ولكنهم يصوغونه الصياغة المقبولة ، ويعطونه الدواء ولكن (ببرشامة) ، ويسايرونه ولكن فيما لا يضرهم في دينهم ، ومن هؤلاء أعلام الملة ابو يوسف والليث وهذه هي الطريقة المثلى لمعاشرة الملوك .

اختصم الرشيد وزبيدة ، ولعلها كانت تلومه على لهوه ومقارفته لذاته ، وتخوفه النار فقال لها : إنها طالق ثلاثا إن لم يكن من أهل الجنة . ووقع في مشكلة ، واستحضر العلماء ، فلم يجرؤ أحد على فتياه حتى جاءه الامام الهمام الليث بن سعد المصري ، فوقف منه موقفاً غريباً كاد يؤدي الى غضبه ، والرشيد إذا غضب لايبصر من أمامه . سأله : هل يخاف مقام ربه ؟ قال : نعم. فأتي بالمصحف وحلفه بأوثق الأيمان ،بالطلاق والعتاق والخروج من الخلافة ، أنه لم يقل إلا الحق . فلما حلف قال : أبشر يا أمير المؤمنين إن الطلاق لم يقع وان لك جنتين لاجنة واحدة ، قال تعالى : ولمن خاف مقام ربه جنتان .

ولأبي يوسف موقف مثل هذا .

---

(١) الطبيعي لا الطبعي كما يقول المتحذلقون ، وان كان القياس مايقولون .

ولم يعرف عنه أنه بطش بعالم ، وان كاد مرة يبطش بعمر بن حبيب القاضي لمـــا ذكر الرشيد أبا هريرة واتهمه بالكذب ، فرد عليه عمر بشدة ، فدعاه والسيف أمامه ، ليضرب عنقه ، فقـــال عمر : يا رب اني دافعت عن صاحب نبيك فدافع عني . وقال للرشيد : إذا كان الصحابة كذابين كان الدين كذباً ، لأنه مروى عنهم فعاد الرشيد الى نفسه ، وعفا عنه ، وأجازه .

وله حوادث هائلة مع القاضي حفص بن غياث لما حبس وكيل السيدة زبيدة ، ومع عبد الله بن ادريس وابن المبارك وغيرهم لا يتسع المجـــال مع الأسف ولا للاشارة اليها .

* * *

وبلغ من حبه العلم ان رحل هو وولداه الأمين والمأمون لطلب العلم وقراءة الموطأ على مالك من بغداد الى المدينة ، كما يرحل الطلاب الموفدون اليوم ، وهذا لم يسمع عن ملك في الشرق والغرب إلا عن صلاح الدين الايوبي لمـــا رحل الى الاسكندرية لسماع الحديث . قال : السيوطي ولا أعرف لهما ثالثـاً .

وجعـل لطلاب العلم رواتب يبلغ أعلاهـا أربعـة آلاف دينار فى السنة ، فما عرف زمان كثر فيه العلماء كثرتهم في زمان الرشيد ، حتى كان الولد يحفظ القرآن وهو ابن ثمان سنين ، ويحفظ الحديث ودواوين الشعر في الحادية عشرة ، ويناظر العلماء وهو ابن خمس عشرة سنة .

وكان للعلماء أسمى المنازل في مجلسه وكان يدعوهم إلى مائدته الخاصة ، وصب الماء مرة بنفسه للمحدث أبي معاوية الضرير وهو يغسل يديه بعد الاكل وقال له : أتدري من يصب عليك الماء ؟ .

قال : لا !

قال : أنا .

الرشيد ، أعظم ملوك التاريخ ، وسيد ربع العالم ، وحاكم عشرين دولة من دول اليوم . أتدرون ماذا قال العالم ؟

لم يتحرك ولم يهتز ولم ير في ذلك إلا شيئاً عادياً فقال هادئاً :

إنما أكرمت العلم يا أمير المؤمنين ، واستمر في غسل يديه .

رحم الله اولئك الرجال .

* * *

يا سادة لم ينته الكلام في الموضوع . ولكن انتهى الوقت فدعوني أختم حديثي بتلاوة فقرات من مقدمة كتاب الخراج الذي ألفه الامام ابو يوسف للرشيد ، لتروا كيف كان يخاطب العلماء أعظم ملوك الارض هارون الرشيد

قال :

يا أمير المؤمنين ، لقد قلدك الله أمراً عظيماً ، ثوابه أعظم الثواب ، وعقابه أشد العقاب ، قلدك أمر هذه الأمة (الى أن قال) فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة ، ولا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، فانك إن فعلت ذلك أضعت ، وإياك والأمر بالهوى والاخذ بالغضب ، وإذا نظرت الى أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا ، فان الآخرة تبقى والدنيا تفنى ، وكن من خشية الله على حذر ، واجعل الناس عندك سواء ، القريب والبعيد ، واحذر فان الحذر بالقلب ، وليس باللسان (إلى أن قال) واعمل للموقف الاعظم الذي تنخلع فيه القلوب ، وتنقطع فيه الحجج ، لعزة ملك قهرهم جبروته ، والخلق داخرون بين يديه ، ينتظرون قضاءه ، ويخافون عقوبته وكأن ذلك قد كان ، فأعد

للمسألة جوابها ، فان ما عملت قد أثبت فهو غداً عليك يقرأ ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله في مجمع الاشهاد .

(إلى أن قال) إنك راع وإن الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه، فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي ربها حقها منك ، ويضيعك بما أضعت أمانتك، وإن صلاح الناس باقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم .

* * *

يا سادة : هل يستطيع اكبر عالم ان يقول مثله اليوم لأصغر أمير ؟ .

وهل يقبله الامراء ، إن استطاعه العلماء ؟.

رحمة الله على اولئك العلماء ، وجزاهم خيراً ، وأرانا أمثالهم .



جمع الدين والدنيا

علم شامخ من أعلام الاسلام ، وإمام من أئمة الفقه الكبار ، اصحاب المذاهب المتبعة ، وأحد افراد الدنيا علماً وذكاء ، ونبلاً ورفعة ، وسخاء وكرماً ، أجمعوا على انه نظير الامام مالك في الفقه ، وعديله في الاجتهاد ، وانه كان لمصر مثل مالك للمدينة ، لا مفتي ومالك في المدينة ، ولا مفتي وهو في مصر ، وهو اعظم جاهاً من مالك ، واكثر مالاً وأوسع دنيا ، بيد أن الله قيّض لمالك من دوّن علمه ، وكتب مسائله وحرر مذهبه فصار أحد المذاهب الأربعة الباقية ، وذهب مذهبه هو فيما ذهب من المذاهب التي كانت يوماً معروفة متبعة مقلدة ، وكاد يُنسى اسمه فلا يعرفه الا العلماء ، على حين يعرف أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد كل مسلم .

فهل عرفتم الآن من هو ؟

هو الذي جمع الله له الدنيا والدين ، والجاه والتقى ، وكان سيّد مصر ، أمرُه قبل أمر الولاة ، وحكمه فوق حكم القضاة ، وكان دخله من أملاكه ما بين عشرين وثمانين الف دينار في العام ، (ثمانين الف ليرة ذهبية) ، ولم تجب عليه زكاة قط ، لأنه لم يكن يحول عليه الحول ، وعنده منها شيء .

هو الامام العالم الليث بن سعد .

ولد في قرية مصرية سنة ٩٤ للهجرة ، أي قبل نحو الف وثلاثمئة سنة ، ولم يشغله غنى أهله عن طلب العلم ، والرحلة به ، لا كما يرحل اكثر الطلاب الآن الى اوربا واميركا ، بل كما يرحل السلف ، يرحلون ليتلقوا العلم ، ويتلقوا

قبله الدين والتقى والسلوك الاسلامي ، ويجتمعوا بالعلماء العاملين ، الصالحين المصلحين ، وقد أخذ عن علماء مصر ، ثم حج ولقى أئمـــة الحجاز عطاء بن أبي رباح ، وهشام بن عروة بن الزبير ، وقتاده وأمثالهم ، ثم رحل الى العـــراق فأخذ عن علمائه .

وها كم قصة طريفة من قصص دراسته .

حج هو وابن لَهيعة ، قاضي مصر ومحدثها ، ولقيا العلماء معاً ، وكان من علماء الحجاز نافع مولى ابن عمر ، فرآه الليث فعرفه ، ولم يكن يعرفه ابن لهيعة فتبعه حتى دخل دكان علاف ، فسلم عليه ، فقال له : من أنت ؟ قال : من قيس ؟ قال : ابن كم ؟ قال : ابن عشرين . قال : اما لحيتك فلحية ابن أربعين ، ثم قعد معه فحدّثه أحاديث وأذن له أن يروي هذه الأحاديث عنه .

فرآه ابن لهيعة ، قال : من هذا ؟ قال : مولى لنا . وتعرفون أن المولى في اللغة من أسماء الاضداد ، فالسيد مولى ، والتابع مولى ، فأوهم ابن لهيعة لئلا يشاركه الرواية عنه .

فلما رجعا الى مصر ، صار الليث يقول ، حدثنا نافع عن ابن عمـــر ، فأنكر عليه ذلك ابن لهيعة ، وقال : أين لقيته ؟ فضحك وقال : اما رأيت العبد الأسود الذي كان في دكان العلاف ؟ هو ذاك !

* * *

وبلغ منزلة في الحديث والفقه شهد له فيها اكابر العلماء .

قال الشافعي : الليث افقه من مالك ولكن اصحابه لم يقوموا به . اي لم يدونوا علمه فضاع مذهبه واندثر .

وقال احمد بن حنبل : ما في المصريين اثبت من الليث ، وكان يقول : الليث بن سعد ، ما اصح حديثه !

وروى عنه مالك ولم يصرح ، وكل ما كان في الموطأ من قوله (واخبرني من ارضى من اهل العلم) فانما يعني به الليث بن سعد .

وكان الشافعي يقرأ في درسه مسائل الليث ، فمرت مسألة فقال احد الحاضرين : احس والله كأنه كان يسمع مالكاً يجيب فيجيب هو ، فقال ابن وهيب : بل كأن مالكاً يسمع الليث يجيب فيجيب هو . والله الذي لا إله إلا هو ما رأينا آفقه من الليث .

وعرض عليه المنصور ولاية مصر فأبى وأصر على الاباء ، فقال : دلني على رجل صالح ، فقال : عثمان بن الحكم الجذامى .

أفتدرون بم كافأه عثمان ، لما جاءته الولاية كرهها وتألم منها ، وسأل من دل امير المؤمنين علي ، قالوا : الليث .. فحلف ألا يكلمه ابداً ، لأنه سبب له هذا الأذى ، يعني ولاية مصر يا ايها السامعون ...

هكذا كانت اخلاق علمائنا وصلحائنا .

* * *

وقال يعقوب وزير المهدي : قال لي امير المؤمنين لما قدم الليث بغداد ، إلزم هذا الشيخ فقد ثبت عند أمير المؤمنين انه لم يبق احد أعلم بما حمل منه .

ومعنى ذلك بعرف العصر ، ان الخليفة أمر وزيره الأكبر ، بمرافقته بنفسه ، ايام زيارته (العاصمة) !

وكان له مع الخلفاء حوادث طريفة ، منها انه جرى بين هارون الرشيد وبين بنت عمه (زوجته) زبيدة كلام ، فقال لها : انت طالق إن لم أكن من اهل الجنة .

ثم ندم فكتب الى البلدان ، فجمع علماءها اليه ، فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم ، فاختلفوا . وبقي الليث لم يتكلم ، فسأله ، فقال اذا أخلى امير المؤمنين مجلسه ، فصرفهم ، فقال : اتكلم على الأمان ؟ قال : نعم فأمر باحضار مصحف فاحضر قال إقرأ يا امير المؤمنين سورة الرحمن فقرأها حتى وصل الى قوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

قال : أمسك يا امير المؤمنين ، قل : والله ...

فصعب على الرشيد ان يحلّفه ، فقال الشرطيّ يا امير المؤمنين ، فحلّفه بأشد الأيمان ، انه يخاف مقام ربه . فلما حلف ، قال : هما جنتان يا امير المؤمنين لا جنة واحدة .

فسمع التصفيق وصياح الفرح من وراء الستر .

وسأله ماذا تطلب ، قال : يا امير المؤمنين ، اما لنفسي فقد اغناني الله بفضله ، ولكن اطلب صلاح بلدنا ، وصلاحه باجراء النيل وصلاح اميره .

فأمر ان يكون والي مصر وقاضيها تحت امره ، وكان اذا رابه من احد شيء كتب فيه فيعزل .

من ذلك ان قاضي مصر اسماعيل بن اليسع لا يرى ، لزوم الوقف [١] ، فكتب فيه : « إنا لم ننكر عليه شيئاً ولكن له رأياً في الوقف لا نرضاه » . فورد كتاب الخليفة بعزله .

فلما جاءه العزل ، قال له : يا ابا الحارث . لقد اتعبت نفسك ، والله لو امرتني بالخروج لخرجت !

* * *

وكان له كل يوم اربعة مجالس ، مجلس يأتيه فيه الوالي ونوابه يسألونه ويسترشدون برأيه ، ومجلس لأصحاب الحديث ، ومجلس للفقه ، ومجلس لأصحاب الحاجات .

وكان يعيش معيشة الملوك ، وقد قوّمت ثيابه مرة ودابته بثمانية عشر الف درهم ، أي بألف دينار ذهبي ، وكان لبّاساً [٢] .

---

(١) أي أنه يرى جواز رجوع الواقف إن شاء وذلك مذهب أبي حنيفة .

(٢) وكذلك كان ابو حنيفة ، وكثير من العلماء الموسرين من الحلال ، والله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده .

وكان اذا رحل ، رحل بثلاث سفائن : سفينة له ولأضيافه وتلاميذه ، وسفينة لعياله ، وسفينة لمطبخه وخدمه .

وقال كاتبه (سكرتيره) عبد الله بن صالح : صحبت الليث عشرين سنة ، فكان لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس ، ولا يأكل إلا الألوان الكثيرة باللحم الوافر ، وكان كل من جاءه من التلاميذ ، يأكل وينام ، وينفق على حسابه ، لا يكلفه من ماله شيئاً ، واذا أراد السفر ، اعطاه نفقته وزاده !

وكان يتخذ الفالوذج والحلوى لأصحابه ، ويضع فيها الدنانير ، ليرغبهم بذلك في الأكل ويغنيهم !

وكانت له موائد عامة للناس ، يطعمهم فيها الهرايس بعسل النحل وسمن البقر في الشتاء ، وباللوز والسكر في الصيف .

وكان يعطي العلماء رواتب دائمة ، منها مئة دينار للامام مالك ، وكتب اليه مرة ان عليه ديناً فبعث اليه بخمسمئة دينار ، وكتب اليه مرة اخرى : « إني اريد أن ازوج بنتي فابعث لي بشيء من عِصفُر » . وكان يومئذ غالياً ، وكانوا يصبغون به الثياب ويسمونها المُعَصْفَرات .. . فبعث اليه بثلاثين جملاً محملة عصفراً فصبغ منه لابنته وباع منه بخمسمئة دينار ، وبقيت عنده فضلة . . .

ولما حج أهدى اليه مالك طبقاً فيه رطب ، فأخذه ورد الطبق وفيه ألف دينار !

ولما احترقت دار ابن لَهيعة اعطاه الف دينار ، ووصل منصور بن عمار القاضي بألف دينار .

وأتاه مرة سائل فأمر له بدينار ، فأبطأ الغلام فجاء سائل آخر ، فقال

له الاول : أسكت . فسمعه الليث ، فقال : مالك وله ؟ دعه يرزقه الله . وأمر له بدينار آخر .

قال منصور بن عمار (القاضي) : كنت يوماً عند الليث فأتته امرأة ومعها قدح فقالت : يا ابا الحارث زوجي مريض وقد وصف له العسل ، قال : اذهبي الى الوكيل فقولي له يعطيك . فجاء الوكيل يساره فقال : اذهب فاعطها مطراً (أي مئة وعشرين رطلاً) إنها سألت بقدرها ، فأعطيناها بقدرنا .

واشترى منه قوم ثمرة بستان له ثم ندموا واستقالوه (طلبوا الرجوع عن البيع) فأقالهم ، ثم استدعاهم فأعطاهم خمسين ديناراً ، وقال ، انهم كانوا أمّلوا ربحا فأحببت أن اعوضهم .

* * *

لقد كان الليث بن سعد يا أيها السامعون والسامعات ، نموذجاً لطراز من العلماء ، نتمنى ان نعود فنرى أمثاله في هذا العصر .

أن نرى علماء يكون لهم مثل هذا العلم ، وهذه الامانة في نقله ، وهذا العقل الكبير ، وهذه الكياسة في معاشرة الملوك ، وهذه المنزلة وهذا الجاه ، وأن يكون لهم (خاصة) مثل هذا المال الذي يستغنون به [1] ، المال الذي يحصلونه بجدهم وكدّهم ، لا الذي يجمعونه بمد أيديهم الى الناس ، وان يكون لهم مثل هذا الكرم .

* * *

---

(١) والاسلام لا يحارب الغنى ان كان من حلال ، ولا يحرم جمع المال ، وما نسب الى أبي ذر ، واولع به بعض كتاب العصر ، من مدّعي الاشتراكية ، كان وهماً وخطأ من أبي ذر ، لم يوافقه عليه الصحابة ممن هم أعلم منه ، وأقدم اسلاماً ، ولم يأخذ به الفقهاء ، والغنيّ ان أدى زكاة ماله لم يكن ممن يكنز الذهب والفضة ، ولم يكن عليه عقاب .

وتوفي الليث يوم الجمعة ١٤ شعبان سنة ١٧٥ وعمره إحدى وثمانون سنة على التمام .

قال خالد بن عبد السلام الصدفي : شهدت جنازة الليث مع أبي ، فما رأيت قبلها ولا بعدها مثلها ، ولا أظن انه سيكون أعظمُ منها او اكثر من أهلها ، ورأيت الناس كلهم في جنازته سواء في الحزن يعزي بعضهم بعضاً ويبكون .

قلت يا أبت : كأن كل واحد من هؤلاء هو صاحب الجنازة !

فقال : يا بني . كان عالماً كريماً ، كبير العقل ، كثير الافضال .

يا بني ، لن ترى مثله أبداً .



ناصر السنة

هذه قصة رائعة من قصص الثبات على المبدأ ، وحمل الأذى في سبيله ، والتضحية بالنفس وبالمال من أجله ، قصة رائعة حقاً ، لا أكاد اعرف بعد قصص شهداء الاسلام الأولين أروع منها .

ولست أستطيع ان اجلوها لكم حتى أمهد لها تمهيداً سريعاً .

إن تاريخنا المكتوب يا سادتي هو تاريخ الملوك فقط ، اما تاريخ الشعب بعاداته وأوضاعه ، وطعامه وشرابه ، وأفراحه ومآتمه ... أما تاريخ الفكر باتجاهاته ومقوماته ، فلم يكتب . ولو كان تاريخ الفكر مكتوباً ، لقرأنا فيه أنه كان للفكر في هذه الفترة التي أؤرخها في هذا الحديث ، في العصر العباسي الذهبي ، وجهتان مختلفتان ، وجهة التمسك بالأثر ، والوقوف عند ظواهر الاحاديث ، وترك القياس ، إلا عند الاضطرار ، ووجهة اطلاق العقل في البحث والقياس والنظر ، وكان يمثل الوجهة الاولى المحدثون ، ومن ورائهم جمهرة الناس ، وكان يمثل الوجهة الثانية المعتزلة يؤيدهم أرباب العلوم الجديدة ، وكان النزاع بين المعسكرين نزاعاً فكرياً ، ميدانه المساجد ، وحلقات الدرس ، وسلاحه الحجج والبراهين ، حتى جاء المأمون فقرب اليه زعيم الوجهة الثانية ، وتبع مذهبه وسخر قوى الدولة لاكراه الناس عليه ، وبذلك بدأت هذه المأساة التي عرفت في تاريخنا ، باسم (المحنة) والمحنة في اللغة الامتحان .

* * *

وأنا كلما قرأت خبر المحنة أقف عند امور ثلاثة وأعجب منها أشد العجب .

أولها : أن المعتزلة هم أصحاب المذهب العقلي في الاسلام (راسيونا ليست) وفيهم اللَسَن والبلاغة وبعد النظر وسعة المعرفة ، وإمامهم ابن أبي دؤاد من أجلّ رجال الاسلام فضلاً ونبلاً ، وبياناً وعقلاً ، فكيف سوّغ لهم هذا العقل ان يكرهوا الناس بالقوة على قبول آرائهم .

وثانيها : أن المأمون وهو أعظم ملوك بني العباس في عقله وخلقه وحلمه ، وفي سعة مداركه وعمق تفكيره ، وإحاطته بعلوم عصره المنقولة والمترجمة ، كيف رضي لنفسه أن يوصم بالعدوان على حرية الفكر ، وكيف تصور أن الأفكار تنشر بالقوة ؟ إن السلطان يستطيع ان يكره الناس على أن يخرجوا من دورهم ، ويبدلوا ثيابهم ، ولكنه لا يستطيع ان يكرههم على الخروج عن مبادئهم ، وتبديل أفكارهم .

وثالثها : المسألةُ التي صارت مدار الخلاف وهي مسألة لا تستحق هذه العناية وليست من أركان الدين ولا أمرنا الله بها ، ولا يسألنا يوم القيامة عنها ، وهي هل القرآن مخلوق أم لا ؟

* * *

بدأت المحنة بورود كتاب المأمون وكان بخراسان ، على عامله في بغداد ، ان يجمع العلماء الرسميين ، من قضاة وخطباء ويسألهم عن القرآن ، فمن لم يقل أنه مخلوق عزله ، وكانوا جميعاً لا يقولون بذلك ولكن الضعف البشري ، والخوف على المنصب ، دفعهم الى التظاهر بالموافقة فتركهم . وعمد الى جماعة ممّن كان الناس يعدونهم أكابر المحدثين ، فامتحنهم فأبوا الموافقة ، فلم يستعمل المأمون القوة ، ولكنه هاجمهم من نقطة الضعف فيهم ، وفي أكثر

العلماء في عصرنا ، وهي التعارض بين أفعالهم وأقوالهم ، وذكر ما أخذوا من أموال لا يستحقونها ، وما كانوا يعملون في سيرهم الخاصة ، وهدد بنشر هذه الفضائح ، فخافوا فوافقوا إلا أربعة منهم ، لم يجد عليهم مطعناً في سيرهم وأخلاقهم ، فلجأ الى الشدة ، وأمر بوضعهم في الحبس واثقالهم بقيود الحديد ، فوافق اثنان ، وبقي احمد بن حنبل ومحمد بن نوح ، فأمر بحملهم اليه وكان في خراسان .

* * *

وتوفي المأمون قبل أن يصلوا كما توفي ابن نوح على الطريق فبقي أحمد وحده .

وكان جمهور العلماء وسواد الناس في جبهة المحدثين ، ولكن لم يكد المأمون (أي الحكومة) يعلن انحيازه الى المعسكر الآخر ومعه الأموال والمناصب والدنيا ، حتى تبعه العلماء ، رغبةً أو رهبة ، ولم يثبت إلا الامام أحمد . اختصرت فيه وحده هذه الجبهة الضخمة ، وقام وحده على المسرح ، وانصبت الأضواء كلها عليه ، وتعلقت الأنظار به ، ووقف ضده الخليفة ، وقواده ، وخزائنه ، وسلطانه ، وتعلق نصر الجبهة بثباته ، فان هو انهزم انهارت جبهة المحدثين وتمت الغلبة للمعتزلة .

اما العامة فكانوا كما يكونون في كل عصر : قلوبهم مع علماء الحق ولكن سيوفهم مع امراء الباطل .

* * *

وولي المعتصم وكان رجلاً قوي الجسم يستطيع ان يصارع أسداً ، ولكنه كان ضعيف العلم لا يستطيع أن يناظر أحداً ، وكان يجلّ أخاه المأمون ويراه مثله الأعلى فسار على طريقته ولكنه غلا حتى جاوز الحدود .

ولبث أحمد في السجن، وبلغ كل مبلغ من الضعف ، ومع ذلك فقد كان دائم العبادة ، حاضراً مع الله ، يصلي بأهل السجن وهو مقيد بقيود الحديد . وبعث المعتصم علماءه وقواده يناظرونه وهو ثابت يقول لهم : هذه مسألة دينية فهاتوا لي دليلاً من كتاب الله او من سنة رسول الله. وحمل الى حضرة المعتصم وجرت المناقشة أمامه ، فكان يفحم الخصوم بهذا الرد ، ويَثْبت لهم بذهن حاضر ونفس قوية،ولسان بيِّن، وجربوا انواع الترغيب بالعطايا والمناصب ، وأنواع الترهيب بالتعذيب الشديد ، فلم يؤثر ذلك فيه أثراً .

وبعثوا اليه بعلماء السوء يأتونه من باب التقية ، فكان يقول لهم : إن من قبلنا كانوا ينشرون بالمنشار فلا يرجعون . وأظهر مرة أنه لا يخاف السجن فان داره ليست أحسن منه . ولا الموت فانــه يتمنى الشهادة . ولكن يخاف الضرب، يخشى ألا يحتمل فتهزم فكرته. ما على نفسه خشي، ولكن على المبدأ . فقال له أحد اللصوص وكان معه في السجن : أنا ضربت عشرين مرة ، يبلغ مجموعها آلاف الأسواط فاحتملتها في سبيل الدنيا ، وأنت تخاف أسواطاً في سبيل الله ، إنما هما سوطان او ثلاثة ثم لا تحس شيئاً . فهوّن ذلك عليه .

* * *

ولما عجز المعتصم نصب آلة التعذيب ومدوه عليها وضربوه ، فانخلعت كتفه من الضربة الأولى ، وانبثق من ظهره الدم فقام اليه المعتصم يقول : يا أحمد قل هذه الكلمة ، وأنا أفك عنك بيدي واعطيك واعطيك ، وهو يقول هاتوا آية أو حديثاً .

فقال المعتصم للجلاد : شد قطع الله يدك . فضربه اخرى . فتناثر لحمه .

وقال له المعتصم : لماذا تقتل نفسك من مِن أصحابك فعل هذا ؟

وقال له عالم من جماعـة الخليفة اسمه المروذي : ألم يقل الله تعالى (ولا

تقتلوا أنفسكم) . قال أحمد : يا مروذي اخرج فانظر أي شيء وراء الباب فخرج الى صحن القصر . فاذا جمع لا يحصيهم الا الله معهم الدفاتر والاقلام . قال : أي شيء تعملون ؟ قالوا : ننظر ما يجيب به أحمد فنكتبه .

فرجع . قال : يا مروذي أنا اضل هؤلاء كلهم ؟ أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء كلهم !

إنه لم ينس أمانة العلم وهو على هذه الحال ، واحتمل هذا الأذى كله لأداء أمانة العلم .

وقال بعض المنافقين للمعتصم وهو قائم يكلمه : يا أمير المؤمنين أنت قائم في الشمس وانت صائم ؟ خافوا عليه من الشمس وهو الشديد القوي الذي يصرع أسداً ، ولم يخافوا على هذا الشيخ الضعيف وهو صائم ولحمه يتناثر من الضرب .

وجاء القائد التركي عجيف فنخسه بالسيف وقال : ويلك أنت تقدر على هؤلاء كلهم ؟

ولما عجز المعتصم قال للجلادين : اضربوا وشدوا . فكان يجيء الواحد فيضربه سوطين ، ثم يتنحى ويأتي الآخر ، حتى خلعت كتفاه ، وانفرز ظهره كله ، وغطاه الدم .

وانقطعت تكة لباسه (سراويلاته) فكاد يسقط وينكشف . ورآه الناس يحرك شفتيه . فيقف اللباس مكانه وسألوه بعدُ . فقال : قلت يارب ان كنت تعلم اني على الحق فلا تهتك لي ستراً .

حتى أشرف على الموت ، وخاف المعتصم أن يثور الناس إن مات ، فرفع عنه الضرب وسلمه لأهله ، بعد ما لبث في السجن والقيود ثمانية وعشرين شهراً . وأرادوا أن يسقوه شيئاً فأبى ان يفطر . ولم يخرج حتى اعلن أنه سامح

المعتصم وكل من حضر ضربه . وبقي أثر الضرب فيه وبقيت كتفه مخلوعة حتى مات .

* * *

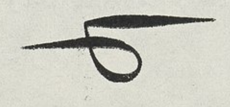
ونفي واختفى طول مدة المعتصم والواثق .

وكان سبب رفع المحنة شيخ مجهول من أهل الشام ، ناظرهم مناظرة قصيرة رائعة ، جاءت كالضربة القاضية في الملاكمة . قال لهم اهذا شيء علمه رسول الله ام جهله ؟ قالوا : علمه . قال : أدعا اليه ، أم سكت عنه ؟ قالوا : سكت عنه قال : لماذا لم يسعكم ما وسع رسول الله .

على أن المحنة لم ترفع تماماً الا ايام المتوكل ، وكانت محنة حقاً ، امتحاناً لأخلاق الرجال ولايمانهم ولرجولتهم ، وكان الناجح فيها ، وكان الاول في هذا الامتحان العالمي التاريخي ، الامام احمد بن حنبل .

وقد كافأه الله فلم يمت حتى بلغ من المنزلة ما لم يبلغه ملك ولا قائد ولا أمير ، ولقي من تكريم الناس واعظامهم ما لا مزيد عليه ، ونرجو أن يكون ثوابه في الآخرة اكبر ، ومنزلته أعلى .

رحمة الله عليه .



امير المؤمنين في الحديث

من يستطيع أن يحصي الكتب التي ألّفها علماء المسلمين ؟ هذه الكتب التي أمدّت المطابع في الشرق والغرب من مئة سنة الى الآن ، لاتزال تطبع منها ، وما بقي مخطوطاً اكثر مما طبع ، وما ضاع من المخطوطات اكثر مما بقي ، وحسبكم ان تعلموا أن هولاكو لما دخل بغداد ألقى الكتب في دجلة ، حتى لوّن حبرها ماء دجلة ، وان الاسبان لما استرجعوا الأندلس أحرقوا الكتب حتى صارت الليالي من اللهب بيضاء ، عدا ما أضاعه التحريق والتخريق والتمزيق ، فكم هي إذن الكتب التي ألفها علماء المسلمين ؟.

* * *

وبعد فليس في هذه الكتب كلها ، ماهو أشهر وأفضل ، وأجلّ عند خاصة المسلمين وعامتهم ، من الكتاب الذي جئت اليوم أحدثكم عن صاحبه .

الكتاب الذي لا يفضل عليه المسلمون إلا كتاباً واحداً ، هو القرآن .

الكتاب الذي نعدّه بعد كتاب الله عماد ديننا ، ونجعله حجة بيننا وبين ربنا ، ونقيم عليه امر دنيانا وآخرتنا . أما عرفتموه ؟ أي كتاب يوضع بعد القرآن مباشرة الا صحيح البخاري .

إنكم تعرفونه جميعاً ، ولكن قليلاً منكم من يعرف صاحبه ، محمد بن اسماعيل البخاري الذي خصصت به هذا الحديث .

* * *

كان البخاري عالماً مخلصاً للعلم ، وكان حافظاً نادرة في الحفظ ، وكان

كريماً أعجوبة في الكرم ، وكان مجاهداً سباقاً الى الجهاد ، وكان سرياً وكان غنياً ، وكان صدراً في كل شيء ، وكان مع ذلك من أعبد العباد ، وأزهد الزهاد ، وأشد المتواضعين ، إنه أحد أعاجيب الرجال في تاريخ الاسلام العلمي .

وتاريخ المحدثين خاصة حافل بالرحلات وبالصبر ، وبالاحاطة وبالحفظ ، وبالتقوى وبالورع ، وما منهم إلا من شارك في اقامة هذا البناء العظيم ، الذي لا تعرف مثله أمة في الدنيا ، ولكن لم يبلغ أحد منهم مابلغ البخاري ، حتى ولا (المحدث الاكبر) أحمد بن حنبل .

نعم ليس لأمة علم كعلم الحديث ، وأي أمة استطاعت أن تتبع كل كلمة قالها نبيها أو زعيمها ، وتبين مسراها خلال العصور ، ومن سمعها منه ، ومن نقلها عنه ، وما هو الطريق الذي مشت فيه ، من شخص إلى شخص ، لا في يوم او يومين بل في القرون الطوال ، مع ما اضطرهم إليه من بحث أحوال الرجال ، أمانة وذاكرة ، وحسن معاملة ، وصلاح نفس ، وسيرهم وتواريخهم .

وإذا كنا نصدق ان نابليون خطب في (استرلتز) كذا ، وان بسمارك قال كذا ، ولم نعرف من سمع ذلك منه ، ومن رواه عنه ، ولعله أخذ من جريدة كاذبة ، او مؤلف مبتدع فكيف نطعن بحديث نقل هذا النقل المضبوط ، بهذا السند المتصل ، على قرب الزمان بين الرسول وهؤلاء المحدثين الأولين ؟.

إن علم الحديث من حيث السند (وهو طريق الرواية) ، قد بلغ من الكمال ما لا زيادة عليه لمستزيد . وأعود الآن الى البخاري .

لقد سمعتم في حديث مضى قصة فتح بخارى على يد القائد الكبير قتيبة ،

ولم يدخل المسلمون بخارى فقط ، ولكن بخارى دخلت في الاسلام ، ولم تمض عليها مدة قصيرة ، حتى صارت معقلاً من أعظم معاقله ، وحصناً من اكبر حصونه ، وبذلك يمتاز الفتح الاسلامي ، إنه ليس فتحاً للبلاد ، ولا استعماراً لها ولا حماية ولا وصاية ولا انتداباً ، كل هذه أشكال زائلة ، ولكن فتح للقلوب وللبصائر حتى يصير أهل البلاد المفتوحة ، أحرص على الدين وأخلص له من الفاتحين ، وهذه أسرار الاخوة الاسلامية ، وان المؤمن أخو المؤمن . انها (بودقة) ذات حرارة عالية تذيب كل عنصر ، وكل جنس ، مهما كان معدنه شديداً قوياً ، فتجعل من ذلك كله سبيكة واحدة ، هي أثمن وأغلى وأشد تماسكاً وارتباطاً ، من كل عنصر تألفت منه ، ودخل فيها ، وقد حاولت فرنسا أن تقلد فما احسنت التقليد ، أرادت ان تجعل الجزائريين فرنسيين ، باعطائهم الجنسية الفرنسية ، ونسيت حقيقة ظاهرة ، وهي أن العربي لايصير ابداً فرنسياً ، ولكن الفارسي والصيني يصير مسلماً ، لأن الفرنسية (جنسية) و (قومية) والاسلام عقيدة ودين .

لقد ولد الامام البخاري بعد فتح بخارى بمئة سنة ، وكان ابوه هو الذي دخل في الاسلام ، ونشأ هو وابوه من قبله ، وجده من قبلهما ، في ظلال الاسلام ، وكان ابوه غنياً ، ترك له مالاً جزيلاً ، وأورثه تجارة واسعة فكان يضارب بها ، لا المضاربة في (البُرْصات) باصطلاح اليوم ، بل شركة المضاربة بالعرف الاسلامي . وهي أن يدفع الغني ماله لمن يتاجر به ويكونان شريكين ، هذا بماله وذاك بعمله .

وأنا محدثكم عن اسلوبه في التجارة لتروا كيف كان يطبق علمه على تجارته ، ومبادئه على معاملته ، لا كمن يدعي الدين والعلم بلسانه ، ويكون عمله ... ما نسأل الله من مثله العافية .

جاءته تجارة ، فأقبل التجار فدفع له جماعة منهم خمسة آلاف دينار ربحاً. فقال لهم : انصرفوا حتى أفكر وأعطيكم الجواب، وجاءه بعدهم من دفع عشرة آلاف ، قال : اني نويت ان أبيع اولئك ولا احب ان أنقض نيتي ، وباع بربح خمسة آلاف وترك العشرة [1] .

وكان يكرم العلماء ويحبو السائلين ولا يرد احداً ، ثم انه كان يبني من ماله الرباطات والحصون والمدارس ويدعو الناس الى العمل فيها ، وينصب لهم الموائد ، فربما تغدى على مائدته ثلاثمائة رجل .

وبلغ من الجاه والعظمة منزلة لم تبلغها الملوك ، كلما نزل بلدة (وهو في رحلة دائمة) يخرج أهل البلد عامتهم وخاصتهم وأمراؤهم ورعيتهم الى استقباله من مسافة أميال ، ويرتج البلد فرحاً به ، ويزدحم الكبار على بابه ، ويتسابقون الى سماع محاضراته والأخذ عنه .

وكان (مع هذا كله) زاهداً ، متقشفاً ، مرض مرة فعرضوا ماءه (أي بوله) على الطبيب لفحصه وكانت هذه طريقة الفحص الطبي عندهم ، نعم ! من اكثر الف ومئتي سنة ! فقال هذا ماء رجل لا يأتدم فسألوه فقال : صحيح اني ما ائتدمت (أي ما أكلت مع الخبز اداماً) منذ عشرين سنة [2] ، فأصرّ الطبيب عليه فصار يأكل مع الرغيف سُكَّرة .

أما تواضعه فكان أعجوبة ، وكان سباقاً الى كل خير ، ألقى رجل وسخاً في المسجد فانتظر البخاري حتى إذا رأى ان الناس لايبصرونه ، قام فحمل الوسخ ، وألقاه خارج المسجد . واغضبته جارية مرة ، ولم تقبل ان تترضاه . فقال : إن لم ترضني فأنا أرضي نفسي فأعتقها . وقال : الآن أرضيت نفسي .

---

(١) هذا ورع منه ، ولو فعل فعل الآخر ما كان حراماً .

(٢) وهو الذي يغدي على مائدته الثلاثمئة !

ولدغه زنبور مرة وهو يصلي مرات كثيرة ، فلم يترك الصلاة ، حتى إذا انتهت ، قال : انظروا أي شيء آذاني في صلاتي !

وكان مع هذا جندياً محارباً ، بطلاً في الرمي ، يخرج للتدريب مع تلاميذه ، فلا يخيب له هدف .

تسألون الآن عن علمه .

لقد بدأ يحفظ الحديث وهو في الكتّاب ابن عشر سنين وكان أول أستاذ له (الداخلي) فسمعه البخاري مرة يروي عن سفيان عن أبي الزبير عن ابراهيم ، فقال له : ما هكذا إن أبا الزبير لم يرو عن ابراهيم . قال الداخلي : وما يدريك أنت يا غلام ، قال : ارجع الى الكتاب ، فرجع فاذا هو كما قال البخاري ، قال له ليمتحنه : وكيف هو ؟ قال الزبير عن ابراهيم . وكان عمره إحدى عشرة سنة .

وقرأ كتب أهل الرأي مع سماعه الحديث .

ثم رحل في طلب العلم ، وإذا كان الشاب اليوم يرحل بالطيارة او بالباخرة الى اوربا ، فان رحلات البخاري لو جمعت لزادت عن محيط كرة الارض مرتين . قضى حياته في رحلات دائمة ، فلم يدع محدثاً ولا عالماً ، إلا أخذ منه ماعنده ، حتى بلغ من أخذ عنه اربعة آلاف شيخ ! وكان يرحل لطلب الحديث الواحد . حتى جمع في هذه الذاكرة العجيبة ، ماعند المحدثين جميعاً ، وكان يعيش للعلم يفكر فيه نهاره كله ، ويفكر فيه ليله ، يقوم في الليل يشعل السراج ويكتب شيئاً او يعلّم على حديث ، ثم ينام قليلاً ، ثم يخطر له خاطر جديد ، فيقوم . حتى أنه ليشعل السراج في الليلة الواحدة اكثر من عشرين مرة ، وقد أجمع علماء عصره على أنه الاستاذ الاكبر لعلم الحديث ، وكان أساتذته يرجعون اليه ، ويعرضون عليه مؤلفاتهم وقد يفخرون بأنه نظر فيها ، او صحح لهم أخطاءها ، لم يكونوا يبالون بأن يأخذوا عمن كان

تلميذهم ، لأن غايتهم العلم ، لاحظ النفس ، ولا نيل الدنيا .

وقد تعجبون إذا سمعتم أنه حفظ مليون حديث ، وتقولون وكيف تبلغ أحاديث الرسول هذا العدد ؟

يا سادة ، لقد وقع في هذا الخطأ مؤلف من اكبر مؤلفي العصر هو احمد أمين في فجر الاسلام وسبب هذا الخطأ الجهل باصطلاح المحدثين . إن الحديث له متن هو الكلام المروى عن الرسول ﷺ وسند وهو طريق انتقاله الينا ، عن فلان عن فلان وقد يكون للمتن الواحد عشرون سنداً ، فيعد بذلك عشرين حديثاً . فمن هنا جاء هذا العدد الضخم .

وها كم حادثاً واحداً يدلكم على ذاكرة البخاري العجيبة ، هو أنه لما قدم بغداد في شبابه ، أحب بعض المحدثين ، أن يختبروا حفظه ، فعمدوا الى مئة حديث ، فخلطوا متونها بأسانيدها ، فوضعوا سند هذا لذاك ، وسند ذاك لهذا ، وجاؤوا بعشرة تلاميذ ، فحفَّظوا كل واحد ، عشراً من الاحاديث (المشوشة) ليسألوه عنها ، فلما قعد في الحلقة قام الاول ، فقال أتعرف حديث كذا وسرد الحديث الاول ، قال لاأعرفه قال فحديث كذا..حتى استوفى العشرة . ثم قام الثاني . وهكذا ، حتى سردوا الأحاديث المئة ، وهو يقول لا أعرفه ، فلما انتهوا . قال : أما الحديث الأول فرويته كذا وصوابه كذا ... حتى أعاد المئة بخطئها وصوابها ...

وهذه حادثة ثابتة وهي من أعجب حوادث الحفظ ، وليس العجيب حفظ المئة الصحيحة ، ولكن العجيب كما يقول الامام ابن حجر حفظ المئة المغلوطة من مرة واحدة .

* * *

عرض هذه الأحاديث كلها ثم اختار منها أصحها وأثبتها ، فوضعه في

في كتابه ، الذي بدأه في المسجد ، وبقي في تأليفه ست عشرة سنة والذي جمع فيه ٢٧٦١ حديثاً فقط .

* * *

هذا (هو صحيح البخاري) الذي اتفق المسلمون على أنه أصح الكتب بعد كتاب الله ، وان فضل بعض المغاربة صحيح مسلم في حسن تبويبه ، وترتيبه ، والذي اعتني به أجل عناية فشرح ثلاثة شروح كبار أجلها شرح ابن حجر العسقلاني في (فتح الباري) ثم شرح العيني ثم شرح القسطلاني والذي اختصر في مختصرات عديدة وما زال العلماء يشتغلون به .

ولم يدخل البخاري حديثاً فيه إلا بعد الاستخارة وصلاة ركعتين .

وليست المنفعة بالبخاري أن يقرأ بلا فهم ، او يوضع في صدر البيت لئلا يحرق او يسرق ، ولا للتبرك به ، فهذا فعل السخفاء ، بل بفهمه والاستنباط منه والعمل به .

ولم ينج البخاري من (المحنة) محنة خلق القرآن ، ولقد ناله منها أذى وضرّ وفارق من أجلها بلده ، ومات في سمرقند التي فتحها قتيبة ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦ .

مات ، ولكن لم يمت اسمه ، ولم يمت كتابه ، وسيظل ابداً باقياً ما بقي على الأرض مسلمون .

جزاه الله عن حديث نبيه أفضل ما يجزى العلماء العاملين .

العالم النبيل

احب قبل أن اشرع في الحديث اليوم ، ان اقول كلمة لا أجد من مقالتها بداً ، هي أن اسألكم : هل يمكن ان يدخل معلم على صف اختلط فيه تلاميذ الابتدائية وطلاب الجامعة ، ثم يقول ما يفهمه الجميع ، ويرضى عنه الجميع ؟ تقولون : لا . فكيف إذن يا سادتي ... كيف استطيع ان ارضيكم جميعاً ، ومنكم العالم ، ومنكم الاديب ، ومنكم الطالب ، ومنكم البيّاع الشرّاء ، ومنكم المرأة في بيتها ، والعامل في معمله ؟ وكيف اسوق الحديث لكم جميعاً ؟ وأنا ان سهّلت الحديث ، وقصرته على قصص واضحة ، وحكايات مفهومة ، قال العلماء وطلاب الجامعة : انه حديث تافه ، وان سموت به وجعلته تحليلاً نفسياً ، وبحثاً علمياً ، قال العمال والنساء : انه حديث غامض ، لذلك عزمت أن اجعل بعض هذه الاحاديث للخاصة ، وبعضها للعامة ، احرص مرة على امتاع هؤلاء ، ومرة على ارضاء هؤلاء ، فمن وجد حديثاً من هذه الاحاديث على غير ما يريد ، فليرتقب غيره يجد فيه مراده .

* * *

وحديث اليوم عن عالم يختلف عن كل من كنت حدثتكم عنه من العلماء ، فليس في التقى والصلاح كأحمد بن حنبل ، ولا في الاجتهاد والفقه كأبي حنيفة ، ولا في الزهد والورع كسعيد بن المسيب ، ولا في الجرأة والصراحة كالحسن البصري ، ولا في الرواية والحفظ كالبخاري ، ولكنه يمتاز بشيء غير هذا

كله ، بالنبل والسيادة ، والشخصية الاجتماعية القوية ،وانه رجل بلاط ، ورجل دين ، في وقت معاً ، سيطر على أقوى الخلفاء العباسيين ، عقلاً : المأمون ، وأقواهم جسماً : المعتصم ، وكان له عليه سلطان عجيب وكانت كلمته لديه هي القانون ، ولطالما سخر هذه المنزلة لرد المظالم ، ورفع الأذى ، واقامة الحق ، ولطالما استنقذ بها اناساً من تحت سيف الجلاد .

هو أحمد بن ابي دؤاد .

وهاكم بعضاً من مواقفه أسردها على سبيل التمثيل ، لا على قصد الاستقصاء . كانت الدولة قسمين ، تركية وعربية ، والجيش جيشين : أتراكاً وعرباً ، وكان زعيم الأتراك على عهد المعتصم ، (وهو الذي فتح هذا الباب ، وزرع هذا السمّ ، وجاء بالاتراك) كان زعيم الاتراك الأفشين ، فاعتدّ على ابي دلف (وكان من أكبر زعماء العرب) ذنوباً ، حكم عليه فيها بالقتل ، وبلغ الخبر ابن ابي دؤاد فذهب اليه ، وما كان من عادته أن يزوره ، فأرادوا ادخاله البهو الكبير حتى يفرغ الأفشين فيستقبله فأبى ودخل مجلسه ، وأبو دلف مقيد في وسطه ، والسياف على رأسه ، والافشين يقرّعه ويشتمه ، وابو دلف (ان كنتم لا تعرفونه) هو بطل العرب ، الفارس الجواد الممدح الذي قال فيه العكوّك الشاعر :

انما الدنيا أبو دلف ... بين باديه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف ... ولّت الدنيا على اثره

فراح ابن ابي داود يستعطف الافشين ، ويليّنُ قلبه ، ليعفو عن ابي دلف ، وهو لا يزداد الا عتوّاً ، فلما رأى الجدّ منه ، وعلم أنه ان خرج قُتل ابو دلف ، أقدم على أمر عظيم ، لا يقدم عليه غيره فقال له : الى متى استعطفك واسألك وانت تأبى ؟ ! اني رسول المعتصم اليك ، يأمرك ان لا تحدث بأبي دلف حدثاً ، وإن مسّه سوء او قتل ، فانه قاتلك به . وقال

للحاضرين : اشهدوا على اني بلغته رسالة امير المؤمنين ، والقاسم (أي ابو دلف) حيّ معافى ، وتركه وقد صار وجهه بلون الزعفران ، وذهب من فوره الى المعتصم ، فقال له : لقد بلغت رسالة عنك ما ارسلتني بها ، وأخبره الخبر ، فقال له المعتصم : نعم ما فعلت ، وكفّ يد الافشين عن ابي دلف [١].

* * *

وغضب المعتصم مرة على خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ، الفارس العربي البطل ، ابن الفارس العربي البطل الذي قال الشاعر في رثاء أبيه ، وهذه القصيدة النادرة المثال ، المنسوبة لصريع الغواني ومطلعها :

أحق انه اودى يزيد   تبين انه الناعي المشيد

ومنهـــا :

احامي الملك والاسلام اودى   فما للأرض ويحك لا تميد
تأمل هل ترى الاسلام مالت   دعائمه وهل شاب الوليد ؟

وتشفع فيه فلم يشفعه المعتصم ، فجلس دون مجلسه المعتاد ، فقال له المعتصم : مجلسَك يا ابا محمد ! قال : ما ينبغي لي ان اجلس فيه ، لأن الناس يظنون ان جلست فيه ان لي من امير المؤمنين ما أشفع به فأشّفع ، قال : عد الى موضعك . قال : مشّفعاً او غير مشفع ؟ قال : بل مشفعاً . قال : إن الناس لا يعلمون انك عفوت عنه حتى تخلع عليه ، فأمر فخلع عليه ، قال : يا أمير المؤمنين ، ان له رواتب ستة أشهر فمر له بها تقم مقام الجائزة . فأمر له بها ،

---

(١) ومن كتب له أن يزور اليوم آثار (سر من رأى) ، وهي من أعظـم الآثار الاسلامية لانها مدينة طول الباقي من أنقاضها نحو خمسين كيلا ، وفيها شارع عرضه مئة ذراع وطوله نحو عشرة اكيال ، رأى البلد قسمين ، القسم التركي وفيه المسجد الجامع ومنارته الملوية العجيبة ، والقسم العربي وفيه مسجد أبي دلف ، هذا البطل الزعيم الكريم الذي انقذه من القتل ابن ابي دؤاد .

فخرج والخلع عليه والمال بين يديه ، فناداه رجل : مرحباً بك يا سيد العرب ، قال ، اسكت ويحك : سيد العرب ابن أبي دؤاد .

وغضب المعتصم مرة على رجل من أهل الجزيرة ، وجاء به ليقتل على ذنب أتاه ، فتكلم فيه ابن أبي دؤاد ، ثم غلبه البول (ولا مؤاخذة) فخاف إن خرج ولم يستوف الكلام ان يقتل الرجل ، ولم يعد يطيق الصبر ، وكانت ثياب تلك الايام كثيرة ، فجمع ثيابه تحته وبال فيها ! وانقذ الرجل . فلما قام قال المعتصم : ما لثيابك مبتلة ، فسكت . فأعاد عليه . فأخبره الخبر . فكاد يغشى عليه من الضحك .

وكان المعتصم يردّ الشيء اليسير يُسأله ، فيدخل عليه ابن أبي دواد ، فيكلمه في أهل الثغور وأهل الحرمين وأهل المشرق فيجيبه . وسأله مرة صرف الف الف درهم (مليون درهم) لحفر نهر في أقصى خراسان وجرّ الماء الى بلاد هناك عطشى . قال المعتصم : وما عليّ من هذا النهر ؟ قال : يا امير المؤمنين ان الله يسألك عن أقصى رعيتك . كما يسألك عن اهلك ومن حولك . ولم يزل يرفق به حتى أمر بصرفها .

وله مع المعتصم لما مرض واشتد عليه المرض خبر عجيب ، إذ جاء يعوده ، ورأى الموت بين عينيه ، فشكا اليه المعتصم ما يلقى في الألم . فقال : يا أمير المؤمنين إن في السجون آلافاً من الأبرياء ، وهم وأهلوهم يدعون عليك ، ودعوة المظلوم سهم صائب فلو أطلقتهم ، لانقلبت هذه الألسنة بالدعاء لك . فأمر بإطلاقهم ، قال يا امير المؤمنين : انهم يعودون الى أهليهم صُفر الأيدي ، ما معهم شيء ، فلو أمرت أن ترد عليهم أموالهم ويعطوا العطايا . فأمر بذلك .

وله أخبار كثيرة لا يتسع لها المجال ، ولو ان كل عالم يتصل بالحاكم ،

يسير معه هذه السيرة ، ويتخذ منزلته وسيلة لرفع الظلم ، ورد الحق ، وإقرار العدل ، لصلح الحاكم وصلح أمر الناس .

ولم يبلغ هذه المنزلة بوساطة أو شفاعة او نسب ما بلغها إلا بنبوغه وعلمه ، كان من اصحاب القاضي يحيى بن أكثم ، فأمره المأمون يوماً ان يجيئه هو ومن في مجلسه ، فدخل ابن أبي دؤاد على المأمون ، ذلك اليوم ، فرأى علمه وبيانه وعقله ، فما زال يقرّبه حتى ولاه قضاء القضاة (وزارة العدل) بدل يحيى ، ووصى به أخاه المعتصم .

وكان عالماً من أكبر علماء المعتزلة ـ والمعتزلة طائفة مظلومة ، قد دوّن التاريخ أخبارها بعد انقراضها بأيدي أعدائها ، فكذب عليها ، ونسب اليها ، ما لم يكن منها .

وكان بليغاً من أبلغ بلغاء عصره ، وكان راوية ، دخل على المأمون وهو يسأل عمن أسلم من الأنصار ليلة العقبة ، فعدّهم جميعاً بأسمائهم وأنسابهم .

وكان شاعراً بليغاً ولكنه مقلّ ، وقد عده دعبل في كتابه مع الشعراء وروى له . ومن نبله وعلو منزلته ، أن الخلفاء لم يكونوا يُبدؤون بالكلام ، وانما يتكلمون فيجيبهم الناس . وهو أول من افتتح الكلام معهم ، وكان معهم بين الأدب والعزة ، ويكلمهم كلام الكفء ، قال له المأمون مرة : اذا جالس الخليفة عالماً فمثلك ، قال : وإن جالس العالم خليفة فمثل أمير المؤمنين . فانظروا الى هذا الجواب العظيم ، وما فيه من الاعتزاز بكرامة العلم ، وما فيه من الأدب مع الخلفاء . وكان يحسن التصرف ويجيد مخاطبة الملوك ، ومن قوله : ثلاثة ينبغي ان يبجلوا وتعرف اقدارهم : العلماء ، وولاة العدل ، والاخوان ، فمن استخف بالعلماء أضاع دينه ، ومن استخف بالامراء أضاع دنياه ، ومن استخف بالاخوان أضاع مروءته .

* * *

وكان يقرب الشعراء والادباء ، ويحميهم . وقد انقطع اليه ، اثنان : أحدهما أعظم شعراء العرب على الاطلاق [1] ، وهو أبو تمام ، والثاني أعظم كتاب العرب على الاطلاق ، وهو الجاحظ .

وعادى رجلين كبيرين ، عادى الاول للدين ، والثاني للدنيا . أما الذي عاداه للدين فأحمد بن حنبل [2] ، هو الذي سبب له الأذى ، وهو الذي كتب هذه الصفحة السوداء في تاريخنا صفحة المحنة بخلق القرآن ، ولقد قضت هذه المحنة على المعتزلة وجعلت الغلبة للذهنية المقلدة الواقفة عند ألفاظ النصوص ، على الذهنية الباحثة المتحـررة من قيود الالفاظ ، وأنا لا أنكر أن للمعتزلة ضلالات وأخطاء ولكنهم كانوا على كل حال أحرك وأبعد نظراً واكثر نابغين ومفكرين .

وأما الذي عاداه للدنيا ، فهو الوزير الأديب الشاعر ابن الزيات ، وكان بينهما خصام ظاهر ، وهجاء طويل ، وكان العلوّ أولاً والظفر لابن الزيات ، ولما صدر المرسوم بان يقوم له كل من في المجلس اذا دخل ، كان ابن ابي دواد إذا رآه داخلاً ، وقف للصلاة ، ولكنه ما زال به يسلط عليه عقله ، حتى نكب ابن الزيات ، وزال من الطريق .

* * *

وعاش ابن أبي دواد الى أيام المتوكل فأصابه الفالج ، وعزل ، ولكنه بقي نبيلاً في مرضه كما كان نبيلا في صحته ، ولم يؤثر العزل ، ولم تؤثر النكبة في نفسه ولا في أعصابه ، ولما مات رثي بمراثٍ ندر أن يرثى بمثلها أحد ، كما مدح بمدائح ، ندر أن يمدح بمثلها أحد .

فمن مدائحه قول أبي تمام :

لقد أنست مساوىء كل دهر ... محاسنُ أحمد بن أبي دؤاد

(١) ولست استثني المتنبي . (٢) وكان الحق مع أحمد بن حنبل .

وما سافرت في الآفاق إلا ومن جدواك راحلتي وزادي

وقول مروان بن أبي الجنوب :

لقــد حازت نزار كل مجد ومكرمة على رغم الأعادي

فقل للفاخــرين على نزار ومنهــم خندف وبنو اياد

رسـول الله والخلفـاء منا ومنا أحمــد بن أبي دؤاد

ولما مات قام على قبره ثلاثة من الشعراء فقال الاول :

اليوم مات نظام الملك والسَّنَن ومات من كان يُستعدى على الزمن

وأظلمت سبل الآداب واحتجبت شمس المكارم في غيم من الكفن

وقال الثاني :

ترك المنابر والسرير تواضعا وله منابر لو يشا وسرير

ولغيره يجبى الخراج وإنما تجبى اليــه محامد واجور

وقال الثالث :

وليس فتيق المسك ريح حنوطه ولكنه هــذا الثناء المخلّف

وليس صرير النعش ما تسمعونه ولكنه أصلاب قوم تَقَصَّف



الفقيه الأميرال (1)

نحن اليوم في تونس، في تونس الخضراء، قبل ألف ومئتي سنة بالضبط(2) نحن في يوم من ايام سنة ١٧٢ للهجرة ، في يوم مشهود ، يوم سفر طالب من طلبة العلم الى المشرق للدرس والتحصيل .

ونحن نرى الطلاب إذا أرادوا التحصيل ، يذهبون في ايامنا الى الغرب لأن الغرب أرقى ، أما يومئذ فكانوا يأتون من الغرب الى الشرق ، لأن الشرق كان أرقى رقياً ، وأعظم حضارة .

ولا تعجبوا فان الدهر دولاب ، والايام دول ، والتاريخ شاهد ما نقول : بدأت الحضارة من الشرق ، من مصر والشام ، ثم انتقلت الى الغرب الى يونان ورومة ، ثم عادت الى الشرق ، الى دمشق وبغداد والقاهرة ، ثم رجعت الى الغرب الى باريس ولندن وواشنطن ، وهاهي ذي بدأت تعود الى الشرق .

ستعود بلا شك ، بفضل تلك المطامع الاشعبية ، والقنبلة الذرية ، والحرب الساحقة الماحقة التي تسعى اليها تلك الدول . . وبفضل الذخيرة الكبرى من الخير والبطولة التي أودعها محمد ﷺ في دمائنا .

---

(١) الاميرال ، اصلها عربي (أمير الماء) . وهو لقب قائد الاسطول عند الاندلسيين والمغاربة وقد كتبت اللفظ الافرنجي لموضع المفارقة بين وضعي الفقيه والاميرال .

(٢) لان هذا الحديث أذيع سنة ١٣٧٢

عفوكم عن هذا الاستطراد ، وأعود إلى الموضوع .

هذا الشاب الذي اجتمع أهل تونس لوداعه ، عمره ثلاثون سنة ، غريب عن تونس ، أصله من نيسابور ، وولد في ديار بكر ، وذهب أبوه الى المغرب في الحملة التي جردها المنصور للقضاء على ثورة البرابرة ، فنشأ في تونس وأخذ العلم عن علمائها ، حتى إذا استوفى ما عندهم ، عزم على الرحلة ، وما كانوا يرحلون لنيل المتع ، وجلب الشهادات ، بل كانوا يرحلون للعلم وحده ، وما كان سفرهم سهلاً ، ولا مريحاً ، بل كان سفراً طويلاً شاقاً يمتد الطريق فيه اشهراً طوالاً . . .

هكذا رحل هذا الشاب : أسد بن الفرات . فارق تونس سنة ١٧٢ وتنقل في البلدان ، وجاب صحارى ، وركب بحاراً ، حتى وصل المدينة ، وكان للعلم مركزان ، جامعتان كبيرتان : جامعة محافظة (إن صح التعبير) تعنى بالنقل وبدراسة النصوص ، مقرها المدينة وأستاذها الأكبر مالك ، وجامعة مجدّدة . تميل إلى النظر العقلي ، والبحث الحقوقي ، ومقرها العراق ، وأستاذها الأكبر أبو حنيفة .

فقصد جامعة المدينة ، وكانت الجامعات هي الجوامع ، ففيها حلقات العلم كله ، علوم اللسان وعلوم الدين ، ولزم الامام مالكا .

وكانت لمالك هيبة في الصدور ، فلا يجرؤ أحد عليه ، وكانت طريقة تلاميذه معه الاستماع ، والاقلال من المناقشات ، فلا يفرضون الفروض ، ولا يقدّرون الوقائع التي لم تقع ، ويضعون لها الأحكام ، كما يصنع علماء العراق بل يسألون عما وقع من الأحداث ، ولا يلحون في السؤال ، ولم تعجب هذه الطريقة الشاب التونسي فجعل يفرّع من كل مسألة مسألة ، ويلح في طرح الأسئلة عليه ، ورأى منه تلاميذ مالك هذه الجرأة فكانوا يحمّلونه

أسئلتهم ايضاً ليلقيها على الامام مالك ، حتى ضجر مالك وقال : إن كان كذا كان كذا ؟ سلسلة بنت سلسلة ، إن أردت هذا فعليك بالعراق !

* * *

صحب مالكاً سنتين ثم أزمع الانتقال الى الجامعة الأخرى ، جامعة العراق ، فدخل على الامام مودعاً شاكراً وسأله أن يوصيه .

فقال له : « اوصيك بتقوى الله ، والقرآن ، والنصيحة للناس » .

ثلاث كلمات جمعت الفضائل كلها .

أما تقوى الله فرأس الأمر وملاكه ، ومن لم يكن في قلبه تقوى لله ، لم ينفعه علم ولا عمل ، لأن التقوى روح العلم ، فمن كان عالماً بلا تقوى كان علمه جسداً بلا روح : جيفة ! وكان وبالاً عليه . ومن كان عاملاً بلا تقوى كان عمله رياء ، وكان حَسَنُه بالرياء قبيحاً .

وأما القرآن فعماد الدين ، وجماع العلم ، وطريق كل خير .

وأما النصيحة فهي الـخُلق كله ، النصيحة هي صدق القول ، وصدق المعاملة ، وأن تريد لكل امرىء ما تريد لنفسك . .

* * *

ورحل إلى العراق . . .

وكان الامام أبو حنيفة قد مضى الى رحمة الله ، وولى استاذيَّة مدرسته تلاميذه ، يقدمهم ابو يوسف ومحمد .

أما الامام ابو يوسف فقد شغل بالقضاء . وأما الامام محمد فقد تصدر للتدريس وللبحث ، وانتهت اليه رياسة العلماء ، حتى كان من تلاميذه الامام الشافعي ، أستاذ الامام أحمد ، فلزمه هذا الشاب المغربي ، فكان يحضر دروسه العامة ، ثم أحب أن يكون له درس خاص ، يغرف فيه ما استطاع من علم الامام محمد ليحمله الى بلاده ، درس خاص . . .

انتبهوا – أرجوكم – وتأملوا الموقف .

أستاذ كبير له آلاف التلاميذ ، وتجيئه كل يوم عشرات المسائل ليفتي فيها ، يقدم عليه شاب غريب مجهول ، فيسأله أن يقطع له من وقته الثمين ، حصة خاصة له ، وماذا ترونه يقول له ؟

ماذا يصنع الاستاذ الكبير في إحدى جامعات الغرب اليوم ، إن جاءه تلميذ شرقي ، فطلب منه هذا الطلب ؟ يطرده ، او يعتذر اليه بلطف ، وإذا كان كريماً جداً ، أعطاه ساعة في الشهر ، او في الاسبوع .

أما الامام محمد ، فقد أخذ هذا الشاب المغربي الى بيته ، وأعطاه غرفة بجنب غرفته ، وكان يسهر معه الليل كله ، يضع أمام التلميذ قدح ماء ، فاذا نعس نضح وجهه ليصحو .

وما طلب منه أجراً ، ولا سأله مالاً ، بل كان هو الذي يطعمه ويسقيه ! ذلك لأن العلم كان في رأي أسلافنا الأولين عبادة ، وكان قربة الى الله ، فالطالب يطلب العلم لله ، لا للشهادة ولا للدنيا ، والاستاذ يعلم العلم لله ، لا للمرتب ، ولا للمنصب .

ومن ذلك أيها السادة – ظهر في تاريخنا اولئك الأئمة والأعلام ، الذين كانوا منار الهدى ، وكانوا أساتذة الارض ، وألّفوا هذه المؤلفات الكبار التي لانقدر نحن اليوم على قراءتها. فضلاً عن نسخها ، فضلاً عن تأليف مثلها[١].

ولبث أسد بن الفرات أمداً مع الامام محمد .

وكان أسد أول من نعرفه جمع بين مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة ، وبين مدرسة المدينة النقلية ، ومدرسة العراق العقلية .

---

(١) كلسان العرب ، ونهاية الارب ، وصبح الاعشى ، والمبسوط والمجموع ، وتاريخ بغداد ، وأمثالها ، وما اكثر امثالها .

ثم أزمع الرحلة الى مصر . .

وكان يتصدر التدريس في مصر ، عالمان من تلاميذ الامـــام مالك ، أشهب وابن القاسم ، ولم يكن قد نشأ الشافعي ، وكان كلاهما مجتهداً يخالف امامه في بعض المسائل ، ولكن أشهب فيه حـدّة ، وفي لسانه طول ، وفي ابن القاسم اناة ولين .

لزم أشهب حتى سمعه يوماً يرد في مسألة على أبي حنيفة ومالك ، بلفظـة خشنة ، فغضب أسد وكان كما عهدناه صريحاً جريئـــاً . فصرخ به على ملأ من الناس وقال له قولاً فظيعاً .

أن سمحتم رويته لـكم .

قال له : ما مثلك ومثلهما ، الا كمثل رجـل أتى بحرين زاخرين فبال بينهما فرغى بوله ، فقال : هذا بحر ثالث ! وفارقه الى ابن القاسم فلزمه مدة .

وجمع ما أخذه من ابن القاسم من مسائل ، وأفاض عليها من ذهنه الذي اختمرت فيه علوم تونس والمدينة والعراق وجعلها في رســـالة (مدوّنة) سماها الأسدية .

وأراد الطلاب نسخها فأبى ، وقال عملتها لنفسي ، فرفعوا عليه دعوى .

دعوى طريفة جداً ، حار فيها القاضي ، ثم حـــكم بأن الكتاب يجمع مسائل ابن القاسم ، وابن القاسم حيّ يستطيع المدعون أن يأخذوا منه مثل ما أخذ أسد ، وحكم بردّ الدعوى .

رد الدعوى قضاء ، لأنه لم يجد نصاً ملزماً ، ولكنه توسط شخصياً . فرجا اسداً أن يعطيهم الكتاب ، ففعل وتناقلوه عنه .

وقدر الله لهذا الكتاب ان يكون أساس الفقه المالـكي كله .

* * *

ورجع الى القيروان عاصمة المغرب . المدينة العربية التي أنشأها البطل

الفـاتح عقبة بن نافـع ، وكان في المغرب حكومة مستقلة استقلالاً داخلياً هي حكومة بني الأغلب .

رجع بعد غيبة امتـدت نحواً من عشرين سنة صرم نهاراتها ، وأحيـا لياليها ، بالعلم والدرس ، لم يضع فيها لحظة في راحة ولا لعب . ولم يصحب فيها الا الأئمة والعلماء . ما صحب ذا لهو ، ولا ذات جمال .

وكان عمره قـد قارب الخمسين ، فجلس للتدريس والافراء يوفي دينه . يعطي التلاميذ مثل ما أعطاه الاساتذة : لله ، لا لأجر او منصب ، وصارت مدوّنته الكتاب الرسمي لكل مدرسة مالكية ، وأخذها عنه سَحْنُون ، ومضى سحنون في رحلة الى المشرق فقرأهـا على ابن القاسم نفسه . وكان رأي ابن القاسم قد تبدل في بعض المسائل ، فكتب الى أسد ليعدل المدوّنة فأبى ، فأخذ الناس (مدونة) سحنون ، وصارت مرجع المذهب المالـكي ، وبنيت عليها الشروح والحواشي كلها ، واشتهرت باسم مدونة سحنون ، وان كان أصلها لأسد .

أمضى عشرين سنة في العـلم ثم جاءه المنصب ، فقلد القضاء مع أبي محرز ، وكان للمدعي الخيار في مراجعة أحد القاضيين ، وان كانت نظرية الامام محمد (صاحب أبي حنيفة) نابغة التشريـع الاســلامي ، ان المحكمة هي محكمة المدعي عليه ، كما هو الرأي اليوم .

وكان القاضيان من قضاة الجنة ان شاء الله ، ولكن أبا محرز فيه لين ، وأسدٌ أسدٌ في الحق ، ولمـا قام والي القيروان منصور الطــبري بثورته واستولى على القيروان ، دعاهما ليقرّاه على ثورته ، وبيَّن نقائص الأمير الذي ثار عليه . أما ابو محرز فخاف ، وأما أسد فأجابه جواباً حاسماً صارماً .

* * *

هذا خبر أسد طالب العلم ، وأسد الفقيه ، وأسد القاضي ، فاسمعوا الآن خبر أسد القائد الأميرال

حكم المسلمون أطراف البحر المتوسط من نصف الساحل الشرقي الى نصف الساحل الغربي . وكان الساحل الجنوبي كله لهم ، والشمالي تحت حمايتهم ، وفي ظلال رايتهم ، تربطهم عهود بايطاليا وصقلية ، فجاء زعيم من صقلية لاجئاً الى أمير المغرب الامير زيادة الله ، وخبره ان حكومة صقلية نقضت العهد ، وحبست أسرى المسلمين ، وأساءت الى الجالية الاسلامية .

وتردد الحاكم في قبول الخبر ، وأحب أن يقف على حكم الشرع فيه ، هل يكفي هذا الاخبار لاعتبار المعاهدة منتهية واعلان الحرب ؟

ودعا القاضيين يستفتيهما . أما ابو محرز فلم ير ذلك كافياً ، وأما أسد فقال : ان المعاهدة انما أبرمت على أيدي الرسل ، وإخبار الرسل كاف لنقضها .

فلما أفتاه أسد شرع يجهز الاسطول .

وطلب القاضي أَسد ان يكون مع المجاهدين ، فأبى الامير خوفاً عليه وضنّاً به ، فألح وألح ، وقال : وجدتم من يسير لكم المراكب من النوتية ، وما أحوجكم الى من يسيّرها لكم بالكتاب والسنة .

فلما رأى منه الجدّ ، ولاّه أمارة الحملة .

وكان يريد ان يكون جندياً متطوعاً ، لا يريد الأمارة فلما أعطيها ، تألم ، وقال للأمير : أبعد القضاء والنظر في الحلال والحرام ، تعزلني وتوليني الأمارة .

ذلك لأن القضاء كان في عرفهم فوق الأمارة .

فقال : ما عزلتك عن القضاء ولكن أضفت إليـــك الأمارة ، فأنت قاض أمير .

وكان أول من جمع له المنصبان .

* * *

جهز الأسطول ، وكان مؤلفاً من ثمان وتسعين قطعة حربية ، فيه جيش من عشرة آلاف رجل وتسعمئة فارس .

وخرج الناس للوداع في ميناء سوسة ، وكان يوم لم ير المغرب مثله ، وتكلم الحاكم والخطباء ، وقام القاضي الأمير ليتكلم .

احزروا ماذا قال ؟

كلا ، لم يُزْهَ ولم يتكبر ، ولم يملأ الجو تهديداً للعدو ، وابراقاً وارعاداً ، وفخراً عارماً ، ولكن جعل من هذا الموقف مدرســـة ، وعاد مدرساً . فقال :

« والله يا معشر الناس ما ولى لي أب ولا جد ولاية قط . وما رأى أحد من أسلافي مثل هذا قط ، وما بلغته إلا بالعلم ، فعليكم بالعلم ، أتعبوا فيه أذهانكم ، وكدوا به أجسادكم ، تبلغوا به الدنيا والآخرة » .

* * *

كأنكم تتساءلون وماذا يصنع هذا الشيخ بقيادة الأسطول ؟ ومن أين له العلم بالحرب والبحر وما درس في مدرسة بحرية ، ولا مـــارس امور الحرب والقتال ؟

لقد نجح يا سادة نجاحاً منقطع النظير ، وهاكم قصة تدلكم على شدة مراسه ، وقوة بأسه ، وانه (كاسمه) أسد غاب .

لما طـالت أيام المعركة وقلت الأقوات تململ بعض الجند ، وتحركت

عناصر الشغب والفساد ، وأحكموا أمرهم ، وعزموا على العصيان ، وحفوا بالقاضي الأمير أسد بن الفرات ، وأقبل زعيمهم أسد بن قادم ، يعلن رغبة الجند في العودة الى ديارهم .

وهي رغبة ظاهرها الطاعة ، وباطنها الثورة ، فقابلها أسد بالحكمة اولاً ، وراح يبين لهم قرب النصر وعظم الأجر . فما ازدادوا إلا عتواً . وتقابل الأسدان ، وتجرأ الثائر فقال :

على أقل من هذا قتل الخليفة عثمان بن عفان !.

ومعنى هذا إعلان الثورة ! فماذا يصنع هذا الفقيه القاضي ؟

أيستخذي ويخضع ؟ ويضيع المعركة ويخسر النصر المرتقب من أجل ثورة عاصفة يقوم بها جند مشاغبون ؟ أم يشتد ويحزم ؟ وماذا يصنع إذا هو اختار الشدة والحزم ؟

لقد صنع أيها السادة مالا يصنع مثله أبطال الروايات الخيالية : تناول السوط من يد أحد الحرس ، وانتصب أمام الثائر وضربه على وجهه أولاً وثانياً . ولبسته قوة سماوية خارقة هي قوة الايمان . وصرخ بالجند : (إلى الامام) وتقدمهم ، وكان الظفر ، وكان الفتح ، وكان ابتداء الدولة الاسلامية في صقلية التي امتدت قروناً ، ولكن الثمن كان غالياً .

لقد استشهد القائد البطل الفقيه القاضي أسد بن الفرات !

هوى وهو يحمل راية النصر ، ولم يعرف له قبر .

هوى طاهر الأثواب لم تبق روضة غداة ثوى الا اشتهت أنها قبر
عليك سلام الله وقفا فأنني رأيت الكريم الحر ليس له قبر[1]

---

(١) البيتان لأبي تمام من قصيدته التي لم يقل شاعر قصيدة في الرثاء مثلها .

شاعر في نفسه

لقد وعدتكم ان أضرب في هذه الأحاديث بكل سهم ، وأسلك كل واد ، وأتحدث عن رجال الفن كما أتحدث عن رجال العلم ، وأن أجيئكم مرة مع شاعر او موسيقي ، كما اجيئكم مرات مع الأئمة والقواد .

وهانذا آتي اليوم ومعي شاعر .

شاعر لم يغنّ مع الحمائم في الروض الأغنّ ، ولم يَهِم مع السواقي في الوادي الضائع ، ولم يدلج مع النجم في الاسحار الندية بعطر الفجر ، ولم يتبع الشمس في العشايا السكرى بخمر الغروب ، ولم يرقب طيف الحبيب في الليالي التي تكتم اسرار الهوى .

ولئن سابقت شاعرية الشعراء الزمان فسبقت الشباب ، وظهرت بوادرها في مدارج الصبا ، وملاعب الفتوة ، فان هذا الشاعر لم تنبثق شاعريته الا على سرير الموت ، وشفا الردى ، على عتبة الدنيا خارجاً منها ، وعتبة الآخرة داخلاً اليها . في الساعة التي يَعيا فيها الشاعر ، ويؤمن فيها الكافر ، ويضعف فيها القوي ، ويفتقر فيها الغني ، ولم تنبثق إلا بقصيدة واحدة ، ولكنها كانت نفحة من عالم الخلود فخلد بها .

* * *

قصيدة وهبها للموت ، إذ تغنى له فيها ، فوهب له الموتُ بها الحياة .

لم يتفلسف فيها تفلسف المعري ، ولا تجبر تجبر المتنبي ، ولا أغرب

اعْراب الدريدي ، ولكنه جاء بأقرب الأفكار ، في أسهل الألفاظ ، فجاءت من هذه السهولة عظمة القصيدة .

والفنون كلها تموت يا سادة ان اكرهتها على الحياة في جو التكلف ، التكلف في التفكير او التعبير ، ان الفنون لا تحيا إلا في الانطلاق والحرية .

كل الفنون : الكتابة والشعر والتصوير والموسيقى ، حتى الالقاء ، فليفهم ذلك من يظن أن الالقاء الجيد هو التشدق والتقعر وامالة اللسان ، وقلب الحناجر ، وضخامة الاصوات ... وما نسمعه كل يوم في الاذاعات .

* * *

شاعر لم يعش شاعراً ، ولكنه مات شاعراً .

عاش عمره كله يغني بسنانه للحرب ، لا يغني بلسانه للحب ، لا يعمل لوصال الأحبة ، وسلب القلوب ، ولكن يعمل لقطع الطرق ، وسلب القوافل ، كان لصاً من اشهر لصوص العصر ، ثم تاب ومشى الى الجهاد في جيش ابن عفان ، حتى أدركته الوفاة وهو على أبواب خراسان ، فرثى نفسه بهذه القصيدة . التي لا أعرف في موضوعها [١] ، إلا قصائد معدودات في آداب الأمم كلها .

وانها لتختلف الألسنة والألوان ، وتتبدل المذاهب والأديان ، وتتباعد المنازل والبلدان ، ولكن شيئاً واحداً لا يختلف بين نفس ونفس ، ولا يتبدل بتبدل الاعصار والامصار ، هو العواطف البشرية ، إن أناشيد المجنون لليلى أناشيد كل عاشق اينما كان ، وقصة (بول وفرجيني) قصة كل

(١) أي رثاء الشاعر نفسه .

شاب مغرم في كل زمان ، وخطب (فيخته) هي خطب كل أمة قد هبت تبني المجد ، وتعمل للحياة .

ومن هنا جاءت عظمة الأدب ، وجـاء خلوده ، انه ليس كالعلوم . ان قرأ طالب الطب في كتاب ألّف قبل اربعين سنة سقط في الامتحان ، أما طالب الأدب فيقرأ شعراً قيل من ألف وخمسمئة سنة ولا يزال جديداً كأنه قيل اليوم ، لا ، لا تقولوا ان العلوم تترقى وتتقدم وتسعى الى الكمال ، لأن الجواب حاضر ، ان الأدب قد بلغ سن الرشد ، وحدّ الكمال ، من قبل أن يولد العلم ، وقد عاش البشر دهوراً بلا علم ، ولكنهم لم يعيشوا يوماً بلا أدب . ان آدم قال لحواء كلمة الحب ، لم يحدثها في الكيمياء ، ولا حل معها مسائل الجبر في رياض الجنة [1] ، والحب أول كلمة في سجل الأدب .

الشعر أخلد من الكيمياء ، وأبقى من الرياضيات . كم مرة تبدلت نظريات العلم منذ نظم هوميروس قصيدته الى اليوم ، وأشعار هوميروس لايزال لها رونقها ومنزلتها .

لا أعني الشعر الذي هو الرنات والاوزان ، ولا الألفاظ المنمقة التي لا تحمل معنى ، ولكن أعني بالشعر حديث النفس ، ولغة القلب ، وكل مايهز ويشجي ويبعث الذكريات ، وينشىء الآمال ، ويقيم النهضات ، ويحيي الامم ، الشعر الذي يشعرك أنه يحملك الى عالم غير هذا العالم ، وسواء بعد ذلك أكان منظوماً أم كان منثوراً ، ان عقد اللؤلؤ لا ينزل قيمته ان ينتثر ، لأن ثمن الخيط نصف قرش !

واليكم الآن مقاطع من هذه القصيدة . ولو اتسع المجال لشرحتها شرحاً ينسي الناس الاصل ، ولكن أين المجال ، والوقت ربع ساعة ؟

---

(١) هذا كلام الادباء !

عربي عاش عمره كله في جزيرته ، ما استمتع بحياته ، ولا ناجى طيف ذكرياته ، ولا انتشى برحيق آماله، لأنه لم يجد يوم راحة ، يخلو فيه الى نفسه فيحس لذة الأحلام ، وجمال التذكر ، وسحر الأمل ، لينبثق في نفسه الشعر المخبوء فيها ، كما يختبيء الماء في بطن الجبل ، يرقب معولاً يفتح له الطريق .

وها هوذا الآن ملقى على صعيد غريب عنه، في بلاد لا يعرفها ولا تعرفه، ولا يألفها ولا تألفه ، فهو يتذكر الآن (الآن فقط) بلده وأرضه ، ويدرك قيمة تلك النعم الجسام ، ولا يدرك المرء قيمة النعم إلا بعد زوالها ، وتثور في نفسه الاماني ، فلا يتمنى إلا ان يبيت ليلة أخرى بجنب الغضى ، وأن يسوق كرة أخرى ابله الى المرعى ، ويذكر كيف كان يزدري هذه النعمة التي يراها الآن عظيمة ، ويتمنى (وليس ينفع التمني) لو أنه لم يسر من تلك الديار ، او لو أنه طال الطريق حتى يستمتع بها .

واسمعوه الآن يقول هذا بألفاظه ورنّته، وقافيته الباكية التي تذكركم بقصيدة أخرى من وزنها وروّيها، لشاعر يماني غريب هو عبد يغوث :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة بجنب الغضى [1] أزجي القلاص النواجيا [2]
فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
لقد كان في أهل الغضا (لو دنا الغضا) مزار ولكن الغضى [3] ليس دانيا

ويلوم نفسه ويعجب منها كيف سوّغت له أن يقبل بهذا النفي راضياً مختاراً ، ويعجب من أبويه كيف لم ينهياه ، وما الذي جاء به الى باب خراسان وقد كان نائياً عنه .

---

(١) الغضى نبت من نبت البادية ، شديد اخضراره ، حامية ناره ، رأيناه في رحلتنا في البادية الى الحجاز سنة ١٩٣٥ ، تلك التي كشفنا فيها طريقاً للسيارات .

(٢) أزجي اسوق سوقاً رفيقاً والقلاص الابل والنواجي السريعة .

(٣) هذا التكرار ، والذكر في موضع الاضمار ، من اساليب البلاغة ، وأعلى الامثلة عليه سورة (قل أعوذ برب الناس) ومنه قول الشاعر : ليلاي منكن أم ليلى من البشر .

الم ترني بعت الضلالة بالهدى   وأصبحت في جيش ابن عفان[1] غازيا
لعمري لئن غالت خراسان هامتي   لقد كنت عن بابي خراسان نائيا
فلله درّي يوم أترك طائعاً   بنيّ بأعلى الرقمتين[2] وماليا
ودرّ الظباء السانحات عشية   يخبّرن أني هالك مَن ورائيا
ودرّ كبيريّ اللذين كلاهما   عليّ شفيق ناصح لو نهانيا

واسمعوه كيف يفتش عمن يبكي عليه فلا يجد احداً ، لا يجد من يبكيه إلا سيفه وفرسه ، وليس ينفع الميت أن يذكره ذاكر إلا ذاكراً بدعاء او صدقة ، ولا يضره أن ينساه الناس ، وما حفلات التأبين للميت ولكن للأحياء يصعدون على قبر الميت ليقولوا للناس انظروا الينا ، واسمعوا بياننا ، وصفقوا لنا ، ولقد صدق سبنسر إذ قال :

كلنا يبكي في المآتم وكل يبكي على ميته .

ليس ينفعه بكاء ولا نواح ولكنها غريزة التمسك بالحياة والاستكثار منها .

تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد   سوى السيف والرمح الردينيّ[3] باكيا
وأشقر خنذيذ[4] يجرّ عنانه   الى الماء لم يترك له الدهر ساقيا

وأرجو أن تتجاوزوا عن كلمة (خنذيذ) التي ترونها غريبة ولم تكن غريبة في أيامه . وانظروا الى جمال الصورة وروعتها . هذا الحصان يتلفت يمنة

---

(١) هو سعيد بن عثمان بن عفان ، وباع الضلالة بالهدى ، أي اهتدى بعد الضلال ، لان ما تدخل عليه الباء يكون هو ثمن المبيع .

(٢) هما موضعان في بادية البصرة .

(٣) منسوب الى ردينة ، وهي امرأة كانت تثقف الرماح ، أي تقومها .

(٤) الفرس الطويل الصلب .

ويسرة ويدور وينعطف يفتش عن صاحبه فلا يلقاه ، فينسى الطعام والشراب ، حتى يبرّح به العطش ولا يجد من يسقيه، فيجر عنانه (انتبهوا الى دقة الوصف في جر العنان أي الرسن) الى الماء .

لو أن مصوراً صور معنى هذا البيت لكان لوحة من لوحات العبقرية، وما اكثر مافي هذه القصيدة من الصور .

* * *

وها كم هذه اللوحة التي بلغت من الروعة أبعد الغايات ، والتي تذيب القلوب ، فتسيلها دموعاً .

هذه اللوحة التي أعرضها كما هي ، لا أحب أن افسدها بشرح او تعليق :

ولما تراءت عند مرو منيّتي	وخلّ بها جسمي وحانت وفاتيا
أقول لأصحابي : ارفعوني فإنني	يقرّ لعيني أن سُهيلٌ[1] بداليا
فياصاحبي رحلي دنا الموتُ فانزلا	برابية ؛ إني مقيم لياليا
أقيما على اليوم او بعض ليلة	ولا تعجلاني ؛ قد تبيّن ما بيا
وقوما إذا ما استُلّ روحي وهيئا	لي السّدر[2] والاكفان ثم ابكيا ليا
وخطا بأطراف الأسنّة مَضْجَعي	ورُدّا على عيني فَضْلَ ردائيا
ولا تحسداني - بارك الله فيكما -	من الارض ذات العرض أن توسعا ليا
خذاني فجراني بُبردي إليكما	فقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا

ويعلم أنه لن يجد من يقوم على قبره ، ويشيد بذكره ، فيرثي هو نفسه ، ويكشف عن فعاله بمقاله :

وقد كنت عطافاً إذا الخيل ادبرت	سريعاً الى الهَيْجا الى من دعانيا
وقد كنت محموداً لدى الزاد والقرى	وعن شتمي ابن العم والجار وانيا

---

(١) سهيل نجم يطلع من نحو بلده . (٢) شجر كالاشنان يغسل بمائه الميت .

وقد كنت صبّاراً على القرن في الوغى ثقيلاً على الأعداء عَضباً لسانيا

ويعود الى إتمام هذه اللوحة الرائعة ، فيتصور مسير أصحابه وبقائه وحيداً في هذه الفلاة :

غداة غد يا لَهْف نفسي على غد إذا أدلجوا عني وخُلِّفت ثاويا

وأصبح مالي من طريف وتالد لغيري وكان المال بالأمس ماليا

* * *

ويسأل رفيقيه حاجة له هي آخر حاجاته من دنياه، أن يحملوا نعيه الى أهله ، الى بئر الشبيك ، حيث يزدحم بنات الحيّ ، يملأن الجرار ، ويستقين ، فيصرخ ، فيدعن ماهنّ فيه ، ويتلفتن اليه ، وتسمع زوجته ، فيلقى اليها بوصاته ، وما وصاته إلا أَن تقف على القبور ، علّها تذكرها بقبره الضائع ، حيث لا زائر ولا ذاكر :

وقوماً على بئر الشُّبَيك فاسمعا بها الوحش والبيض الحسان الروانيا

بأنكما خلّفتُماني بِقَفْرَةٍ تهيل عليّ الريحُ فيها السوافيا

ولا تنسيا عهدي خليليّ إنني تَقَطّعُ أوصالي وتبلى عظاميا

فلن يعدم الوالون بيتاً يُجنُّني ولن يعدم الميراث مني المواليا

* * *

ويا ليت شعري هل تغيرت الرحى رحى المثل[1] او أضحت بفلج[1] كما هيا

إذا مت فاعتادي القبور فسلمي على الرَّيم[2] أُسقيتِ الغمام الغواديا

ويعود الى حاضره ، ويشتغل بنفسه ، ويرجع الى ذكر بلده وأهله ، ويختم القصيدة بهذا المقطع :

---

(١) مواضع في ديار قومه . (٢) القبر .

أقلّب طرْفي فوق رحلي فلا أرى — به من عيون المؤنسات مراعيا

وبالرمل منا نسوة لو شهدنني — بكَين وفدَّين الطبيب المداويا

فمنهن أمي وابنتاها وخــالتي — وباكية أخرى تهيج البواكيا [1]

وما كان عهد الرّمل مني وأهله — ذميماً. ولا بالرمل ودّعتُ قاليا

* * *

يا سادة. لقد مات مع مالك في تلك السفرة آلاف وآلاف ، ولا يزال الناس قبله وبعده يموتون ،فينساهم ذووهم ،ويسلوهم أهلوهم ، وهذا الشاعر جعلكم تذكرونه ، وتبكونه بعد الف وثلاثمئة سنة ، وأنتم لا تعرفونه .

وهذه هي عظمة الشعر ، وهذا هو خلود الشاعر .



(١) زوجته وكانوا يكنون عن الزوجة .

سيّد شعراء الحبّ العذري

هذا فصل في الحبّ ، فلا تقولوا : ياعجباً ! شيخ وقاض ويتكلم في الحب ؟! وما الادب كله ؟ وما الشعر ؟ إن لم يكن كلاماً في الحبّ ؟ ومن حرّم على المشايخ القول في الحب ، وهم كانوا الأئمة في كل شيء ، وكان من كبارهم ثلاثة ألفوا فيه كتباً لم يؤلف مثلها ، علموا فيها الناس أفانين الهوى ، ولقنوا (أصول العشق) كبار العاشقين ، وهم ابن القيّم ، وابن حزم ، وابن داود ، ثلاثة من جبال العلم ، وأعلام الاسلام .

ومن كبار الفقهاء ، من كان من شعراء الغزل الكبار ، ولقد جمعت مرة في الرسالة[1] طرائف من غزل الفقهاء ، يؤمن من يقرؤها ان التزمت والتوقر لم يكن دائماً سمة العلماء ، وان في علمائنا ، من كانوا هم أربابَ الظَّرْف ، وكانوا هم أصحابَ القلوب .

ومالي اذهب في الاحتجاج بعيد المذاهب ، وهذا الشاعر الذي جئت احدثكم حديثه ، كان من (أئمة) الدين ، وكان من (قضاة) المظالم ، وكان نقيب الاشراف ، وكان إمام الحج ، وكان مع ذلك شاعراً ، بل كان أعظم شعراء الحب العذري في أدب العرب ، بل — سأقولها ولا أبالي — كان أعظم شاعر في الدنيا ، هتف للجمال ، وغنى للحبّ ، وصوّر نوازع النفس ، وصبوات القلب ، ولوعات الهوى ، ولذات الوصال ، ولقد قرأت اكثر أشعار لا مارتين وموسه وبيرون وغوته ، فما وجدت فيهم من قال في هذه

---

(١) العدد (٦٦٤) ٢٥ مارس ١٩٤٦ والذي بعده .

المعاني ، أدق ولا أرق ولا أحلى ولا أشرف مما قال شاعرنا .

وما انكر عليه أهل زمانه ما قد تنكرونه اليوم ، ما انكروا عليه ان جعل من (الموسم) الاكبر ، موسم القلوب الهائمة ، والابصار الشاردة ، وانه قرأ قصائد الجمال مكتوبة في وجنات العذارى ، بكل لغات الارض ، وقال فيها أربعين قصيدة ، هي (الحجازيات) التي دان بها الادب العربي ، والتي لو ترجمها الى الفرنسية او الانكليزية ، بليغ في ذلك اللسان ، لفتنت الفرنسيين والانكليز ، أضعاف مافتنهم شعر الخيام . واين الخيّام من الشريف ؟

وانا اعجب والله كيف استطاع ان يصرّح بما لو لمحّ اليه شيخ من مشايخ هذه الايام ، لما تركوه يستطيع المشي في الاسواق ؟

لقد عرفت السبب ؟

ذلك انهم وثقوا انه كان من الشعراء الذين يقولون مالا يفعلون ، وان دينه وعفافه ، كانا في مكان لاترتقي اليه الشبهات ، وانه لم يكن يعشق امرأة ، كما يفهم شباب اليوم من العشق : يراهافيرضاها ، ثم يتبعها فيهواها ثم يتخذها زوجاً بلا زواج . كلا . ولقد كان الشريف شريفاً حقاً ، وكان زوجاً أخلص زوج ، وكان أباً خير أب ، وكان سيداً مرموقاً ، ولو علم الناس أنه واقع بعض ما يقول لاوقعوا به ، ولكنهم علموا انه ما كان عاشقاً شاعراً ، إنما كان شاعراً عاشقاً ، وما اتخذ الشعر حرفة يستجدي بها الاكفّ ، ولقد كان عند نفسه وعند الناس أكبر من ذلك :

ومالي يالمياء بالشعر طائل سوى أن أشعاري عليك نسيب

ولكنه كان يعشق العشق ، ويحب الحب ، ان كان هذا التعبير مني صحيحاً ومفهوماً . وما هذه المواطن التي يرددها الشريف ، وما هذه الاسماء التي يسميها ، إلا حجب يخفي وراءها نوازع قلبه الهائم ، ومطارح حبّه التائه ،

وان كانت كحجاب النساء في هذه الايام ، يخفي المعايب ، ويجمّل بالوهم غير ذات الجمال .

لم تكن هذه المواطن أكثر من صحاري مقفرات ، ولكنّ لمسةً من يد الشاعر العبقري ، تجعل الصحاري جنات وارفات الظل ، فاتنات المسارب ، هادرات السواقي ، وتحيلها عالماً مسحوراً ، كأنه جنة عبقر التي يتحدث عنها العرب . وأنت تسمع اليوم أسماء بلودان ، وفالوغا ، ونبع الصفا ، والقناطر الخيرية ، وراوندوز ، وكشمير ، وما شئت من مرابع الخيال ، ومراتع الغيد ، ومواقع الاحلام ، فلا تحس لهذه الاسماء برجفة في قلبك ، ولا بوثبة في خيالك ، كالذي تحسّه وأنت تسمع أسماء تلك الفلوات : البان والعلم ، والخيف ومنى ، وسلع والمصلى ، حين يهتف بها الشريف .

وهذه عظمة الشعر ، يمر بسحره على القفار فيجعلها تزري بجنان المصايف ، وروائع الاودية ، ذات العيون والسواقي ..

من معيدٌ أيامَ سِلْعٍ على ما كان منها ? وأين أيام سلع !

ايها الرائح المجدّ تحملْ	حاجة للمتيَّم المشتاق
أقْرِ عني السلامَ اهلَ المصلى	فبلاغ السلام بعض التلاقي
وإذا ما مررت بالخيف فاشهد	ان قلبي اليه بالاشواق

* * *

لا . لن أتحدث عن (الرجل) ، ماذا أكل وماذا شرب ، ومتى سافر واين أقام؟ مالي وما للرجل ، والرجل فانٍ ? إنما اتحدث عن (الشاعر) فالشعراء خالدون . وسأعلو بكم ما استطعت الى جوّه ، وادخل بكم الى عالمه فان للشعراء عوالم ، لايحيط بها علم الناس ، عالم لا تعرفون عنه إلا هذه الومضات التي تلمحونها عندما تسمعون الاغنية الحالمة في الليل السكران . أو

تطالعون القصة العبقرية ، تطرق باب المجهول . أو تفتحون في سجف الذكريات كوّة على الماضي المنسي . أو تستغرقون في ذكر الله ، في هدءات الاسحار . عالم كل ما فيه غريب لايشبه دنيا الناس. هذا هو عالم الشريف الرضي .

* * *

إن كنتم تسمعون بآذانكم ، فأهل هذا العالم يسمعون بأفواههم ، فان ناجاها لم يضع فمه على أذنها ، بل فاه على فيها :

عندي رسائل شوق لست اذكرها لولا الرقيب لقد بلغتها فاكِ

وإذا أبصرتم أنتم بالعيون ، أبصروا هم بالآذان :

فاتني ان أرى الديار بطرْفي فلعلّي أرى الديار بسمعي

واذا كان الناس عندكم هم وحدهم الذين يروون الأحاديث ، بالكلمات والحروف ، فان كل شيء في عالم الشاعر يحدث بلا حروف ولا كلمات ...

النفَس يتحدث فهل تفهمون لغة الانفاس ؟

خذي حديثك عن نفسي من النفَس وجْدُ المشوق المعنّى غير ملتبس

فماذا قال النفس ؟

قال :

الماء في ناظري والنار في كبدي ان شئت فاغترفي او شئت فاقتبسي

والعين ، والقلب ، عندكم أعضاء في الجسم ، هكذا يقرر أساتذة كلية الطب لايعرف المساكين من العين إلا أنها (فوتوغراف) ، ولا من القلب إلا انه (مضخة) أما نحن ، نحن الأدباء ، فان عندنا للعيون علماً مستقلاً الفت فيه كتب كبار ، أما قرأتم كتابي ، (سحر الفتون في سرّ العيون) الذي أنوي أن اؤلفه يوماً ، وسأدرسه لطلاب التخصص في أمراض العيون في كلية الطب ؟

وإذا كانت قلوب الأطباء ، مافيها إلا دم أحمر كدم الخروف ، فان

قلوب الشعراء العشاق ، فيها الماضي والحاضر ؛ وفيها الزمان والمكان ، وفيها الذِكَر والآمال ، وفيها من العجائب والأسرار ، مالا يستطيع الأطباء ان يصلوا الى علمه . وهي بعد احياء مستقلة لا أعضاء ، العين لها وحدها حياة ، والقلب له وحده حياة ، وقد تفرح العين ، والقلب متألم .

وان شككتم فها كم الدليل من شعر الشريف :

تلَذُّ عيني وقلبي منك في ألم   فالقلب في مأتم والعين في عرُس

وللعين (دائرة استعلامات) . تتجسس لها على القلب ، فتهتك ستره ، وتذيع سرّه ، والشاعر حائر بينهما ، متعجب منهما :

هامت بك العين لم تتبع سواك هوى   من علّم العين ان القلب يهواك؟

صحيح والله – من علم العين ؟!

والعين تبصر مِنَ الحجاز مَنْ في العراق ، وترمي بسهام فتونها من ذي سلم فتصيب من في بغداد ، فتسبي وتصبي ، لاتمنعها شوامخ الجبال ، ولا شواسع البيد .

سهم أصاب وراميه بذي سَلَم   من في العراق ، لقد أبعدت مرماك !

والعين تحصي عدد شهدائها ، وتسجل أسماء من تصيبهم سهامها ، وتقرؤه على الشاعر من وراء صاحبتها ، فيشهد جناية العين ، ويقرر براءة الحبيبة لأنها لا تدري ماجنت عيناها .

كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا   بما طوى عنك من أسماء قتلاك

ولا تعجبوا من نطق العين ، فان العين تحدث الاحاديث الطوال ، فهي تأمر وتنهي . وتعد وتؤمل ، ولكنها لاتفي ، ولا تصدق منها المواعيد .

وعد لعينيك عندي ماوفيت به   يا طول ما كذبت عينيّ عيناك

والقلب يتلفت ، نعم يتلفت فلا تصدقوا أخبار العواذل ، من الاطباء الذين يرجفون بأنه ليس إلا عضلة ملساء ...

ولقد مررت على ديارهم وطلولها بيد البلى نهب

فوقفت حتى لجّ من لَغَب نِضْوي ولجّ بعذلي الركب

وتلفتتْ عيني فمذ خفيتْ عنّي الطلولُ تلفتَ القلب

يتلفت ليرى المنازل وأهلها ، ثم يبعد الركب فلا يرى إلا هيا كلها ، ثم يبعد الركب فلا يرى إلا دخانها ، ثم ترمي بالركب المرامي فلا يرى شيئاً ، عندئذ يبصرها القلب بعينه التي لا يحجبها النأى ولا الليل ولا المنام .

تلفت حتى لم يبنْ من بلادكم دخان ولا من نارهنّ وقود

وان التفاتَ القلب من بعدِ طرفهِ طوالَ الليالي نحوَكم ليزيد

والهوى يتجسم في عالم الشريف انساناً ، ويزور الشاعر فينصحه ألا يفارق أحبابه ، فاذا لم يسمع نصح الهوى ، جاء القلب فكلمه وضرب له الأمثال :

ولما تدانى البين قال لي الهوى رويداً ، وقال القلب : أين تريد ؟

أتطمع أن تسلو على البعد والنوى وانتَ على قرب المزار عميد ؟

والدموع في عالم الشاعر ، ليست ماء تسفحه العين على الخدين ، بل هي رسائل الى الحبيبة ، ترسلها بالبريد المسجل ، والموزع هو الزفير - أما قلت لكم ان كل شيء فى هذا العالم عجيب ؟

ولقد بعثت من الدموع اليكمُ برسائل ومن الزفير بحادي

وأنتم تعيرون القصعة والماعون ، ولكن الشاعر يعير دموعه للعشاق المعاميد ، الذين أحرقت نيران الجوى قلوبهم ، ولا دمع لديهم ، يطفئون بها النار ، حتى إذا اعارها كلها ، ولم يبق عنده ما يبكي به ، راح يسأل العشاق ان يبكوا (بالوكالة) عنه . .

وابكِ عني فطالما كنت من قبل اعير الدموع للعشاق !

وكانت تهبُّ نسائم الصبا ، فتخالط أنفاسه فيستروح بها رَوْح الاحبة ، فماذا يصنع وقد انقطعت فلم تهبّ رياح ؟

ماذا يصنع ؟ انه يرسل أنفاسه اليها مع ريح الجنوب ، لتقف لها على طريقها ، فتلاقيها :

خذي نَفَسي ياريحُ منجانب الحمى فلاقي بها ليلاً نسيمَ ربى نجد

فانّ بذاك الحيّ إلفاً عهدته وبالرغم مني أن يطول به عهدي

ولكن الريح ، وَيْح الريح ! ليست معه دائماً ، انها عليه مع العذّال ، تغار ان رأت به نعمة الوصال ، حتى تحاول ان تفرق بينه وبينها ، فهي تشد الفضول من أطراف ثيابها ، والشوارد من خصلات شعرها .

تقولون : ومن أين علمت الريح بساعات الوصال ؟

ان لها يا سادتي ، جاسوساً من بني عمها ، هو الطيب الذي يفوح من اعطاف الحبيبة ، كما ان للنهار جاسوساً عليه من قومه ، ينم له ، هو البرق الذي يضوّيء مكانهما ، مجتازاً بهما .

وأمست الريح كالغيرى تجاذبنا على الكثيب فضولَ الريط واللممِ

يشي بنا الطيب أحياناً وآونة يضيئنا البرق مجتازاً على إضمِ

ويطلع الصبح ، وهما غافلان عن الدنيا وما فيها ، وهل يرى المحبون في الوجود شيئاً ؟ حتى يتكلم العصفور ، نعم يتكلم . كل شيء في عالم الشاعر يتكلم :

وأَكتم الصبح عنها وهي غافلة حتى تكلم عصفور على علم

وأرجو منكم يا أساتذتنا مدرسي البلاغة ، ألا تضيّعوا هذه (الحقائق) بكلامكم عن الحقيقة والمجاز ، وتلك الاحاجي والالغاز ، دعوها لطلابكم تنفرونهم بها من الفنّ ، ودعونا في غمرة اللذة بسحر البيان .

انكم يا اساتذتنا ، إذ تشرحون ببلاغتكم بيتاً ، لا تبقون منه إلا كالذي يبقى من الحسناء بعد ان (يشرّحها) مبضع الجرّاح .

* * *

وبعد فهذا مجلس مع الشاعر الذي كان اماماً في العلم وفي المنصب ، واماماً في الحب والغرام ، شرب الكأس وترك للشعراء الثمالة . وورد الصافي وخلى لهم العكر .

وما شرب العشاق إلا بقيتي ولا وردوا في الحبّ إلا على وردي

رحمة الله عليه .

السلطان الشهيد

هذا الحديث عن نور الدين زنكي ، نور الدين ابن الشهيد ، الرجل الذي مهد الطريق لصلاح الدين ، ووضع له الاساس ، وشرع له المنهج ، وكان امامه وقدوته في كل خير .

أحد الرجال الذين لم يعرف تاريخ البشرية كلها أطهر منهم نفوساً ، ولا أقوم سيرة ، ولا أعظم اثراً ، اللهم إلا الأنبياء . الذين لا تجد عليهم مطعناً في دين ولا خلق ولا سياسة ولا قيادة ، والعظماء من غيرهم إن استكملوا ثلاثاً من هذه الأربع نقصتهم الرابعة . الرجال الذين لا تجد امثالاً لهم في غير التاريخ الاسلامي : ابي بكر وعمر وعمر بن عبد العزيز ونور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي ، واورنك زيب ومن سار سيرتهم ، وسلك طريقهم .

* * *

جاء الشيخان في صدر الاسلام حيث الدين غض ، والزمان مقبل ، وجاء هذان [1] والزمان مدبر ، والدين ضعيف ، والعدو الغاصب يملك أكثر من نصف الشام ، والمسلمون دول وحكومات ، كل بلدة دولة ، وكل قرية حكومة . حتى صرخد [2] فقد كان لها امارة وملك واستقلال . وكانت خلافة بغداد اسماً بلا جسم ، وخلافة القاهرة جسداً بلا روح ، والدولة السلجوقية تصدعت كنجم انفجر ، ففي كل جهة منه شهاب . وقد استفحل هذا الداء الذي رمانا به معاوية – رحمه الله – داء توارث الملك ، وتمكن وعظم

---

(١) اعني نور الدين وصلاح الدين

(٢) ويسمونها اليوم صلخد .

شره ، حتى صارت القاعدة في دول الاسلام ، لاسيما في بلاد الشام أنه كلما مات ملك ، تقاسم أولاده ملكه ، كما يتقاسمون أمواله ودوابه . ومن هنا صار في الشام نحو من عشر دول صليبية وإسلامية ، وكانت الشام كلها قديماً ولاية صغيرة من دولة الاسلام .

ولم يخل الميدان من امراء أولي نجدة وبأس ، ناوشوا الافرنج ونازلوهم ولم يدعوهم يستريحون يوماً واحدا ، امراء السلجوقيين ، (ألب ارسلان ، وقليج ارسلان) ، ونتش ، وابن عمار ، وابن منقذ ، وطغتكين ، وبوري ، وآق سنقر ، جد نور الدين . وآق سنقر مملوك لالب ارسلان السلجوقي ، بدا نبوغه ، وظهر فضله ، وسمت به مواهبه الى محاولة جمع هذه الدويلات في دولة واحدة قوية تنازل العدو الغاصب ، الذي اسس في السواحل ، وفي فلسطين ، دولاً ألقت مراسيها ، وطوت أشراعها ، وحسبت انها ستبقى فيها الى الأبد . ثم جاء من بعده ابنه زنكي ، عماد الدين زنكي ، العاقل الجريء المحارب البطاش ، الذي قتل غيله فسمّوه (الشهيد) ، ثم جاء نور الدين .

وكان الافرنج قد ملكوا اكثر البلاد منذ خمسين سنة ، لا خمس سنين . وكانوا اعداد الرمال تمدّهم اوربة كلها ، لا حفنة من يهود . وحسب الناس انها لن تزول هذه الغمّة ، فما هي الا ان ظهر الرجل الذي نشر راية القرآن ، وضرب بسيف محمد ، حتى عاد النصر يمشي في ركاب المسلمين ، وعاد امرهم الى الزيادة ، وأمر الصليبيين الى النقص . وبذلك يكون لنا (كلما شئنا) النصر .

إن راية القرآن لم تهزم قط ، ومن هُزم من امراء المسلمين في هذا التاريخ الطويل ، انما هزموا لانهم كانوا يستظلون برايات المطامع والاهواء ، والعصبيات والأحقاد ، ما استظلوا براية القرآن ، وكانوا يضربون بسيف البغي والاثم والعدوان ، ماضربوا بسيف محمد .

انه ما ضرب أحدٌ بسيف محمد ونبا في يده سيف محمد !

* * *

لما مات عماد الدين تنفس الافرنج الصعداء ، والقوا بأنفسهم على فراش الأمن ، يستبشرون يحسبون انه قد خلا العرين بموت الأسد ، ما دروا انه الآن قد دخل الأسد العرين . مادروا انه قد جاء نور الدين .

قتل عماد الدين الشهيد غدراً على أبواب (جعبر) . فما بكى ابنه بكاء النساء ، ولا ثار بالقاتلين ثورة الصبيان ، بل وقف امام جسد أبيه وقفة الرجل ، وأخذ خاتم الملك من اصبعه ، وجمع الجنود وتوجه تلقاء حلب ، يوطد فيها أمره ، ويؤسس فيها ملكه ، واطمع موت عماد الدين الافرنج ، وخرجوا كما تخرج الفيران من جحورها إن شهدت مصرع القط ، وجاء امير انطاكية بجنوده يغير على أطراف حلب ، وكان اليوم السابع من ولاية محمود نور الدين ، فترك حفلات التتويج ، وأبَّهة الملك ، وخرج بجيشه فضرب جيش الافرنج ضربة أطارت من رؤوسهم الفرحة بموت عماد الدين ، وفتحت عيونهم رهبة ورعباً ، وأعلمهم أن اليوم الذي كانوا يبكون فيه من عماد الدين ، سيبكون عليه من نور الدين .

وتلفت حوله ، فإذا الافرنج في كل مكان ، في كل ناحية لهم ملك وسلطان . يشايعهم مختارين اومكرهين ، الموارنة وأهل جبل عامل ، وحيالهم عدو اعدى على المسلمين منهم ، وهم الباطنيون الاسماعيليون بقية القرامطة ، وإذا هو يرى العدوان من اقرب الناس اليه : امير دمشق - وهذه علتنا ابداً يا أيها السامعون . علتنا الانقسام والاختلاف . ولو أننا تركنا الاختلاف بيننا ، ما قوى علينا انس ولا جان !

فركز نور الدين غرضين[1] ، ونذر حياته لاصابتهما ، غايتين جعل همه كله بلوغهما : توحيد المسلمين في دولة واحـــدة قوية ، وطرد الافرنج من بلاد الاسلام .

بدأ المسعى للوحدة ، بتقوية الروابط الروحية فتزوج بنت ملك دمشق ومدبر أمرها ، وبنت صاحب قونيه (ابن قليج ارسلان) :

ولكنه لقي من امراء هذه الممالك الألاقي .

جاهره صاحب دمشق بالعداء ، وهدده بالاستعانة بالافرنج ، فتلقاه بالحلم مع الحزم ، وصبر عليه ، حتى إذا وقعت الحرب بينـــه وبين صاحب صرخد ، وتصوروا كيف كانت قرية صرخد حكومة مستقلة ! وأراد صاحبها تسليمها للافرنج ، استنجد مجير الدين ملك دمشق بنور الدين ،فأعانه وسيّر جيشاً ضخماً يساعده على الافرنج ،وذلك في سبيل الغايتين معا ، توحيد المسلمين وطرد الغاصبين . واوقع بالافرنج وقعة لم ينسوها .

* * *

في هذه الظروف يا سادة ، جاء الجيش الصليبي الضخم ، الذي قـــدر المؤرخون عدد جنوده بمليون ، أي بعدد يهود الارض ، وهي الحملة الصليبية الثانية ، ولم يكن جيشاً واحداً ولكن جيوش اوربة جميعها ، جيوش كل امة فيها ، يقوده ملوك وامراء وبارونات ، على رأسهم لويس السابع ملك فرنسا ،و (كونراد) ملك المانيا . وتوجه من وصل منهم إلى الارض المقدسة ، ونجا من سيوف السلجوقيين ، إلى كنيسة القيامة ، فصلوا صـــلاة الموت ، وقصدوا دمشق . واصبح اهل دمشق يوماً ، وإذا جيوش الافرنج في المزة ، وفسطاط ملك الالمان في الميدان الأخضر (الملعب البلدي) وخيمة ملك فرنسا في ميدان الحصا (الميدان) . فبهت دمشق ، ولدمشق المؤمنة المجـــاهدة

---

[1] الغرض في الاصل الهدف اي المرمى .

هبّات تَشْدَه التاريخ ، واستنجد صاحبها بنور الدين في حلب ، واخيه سيف الدين في الموصل ، فأقبل الشقيقان بالجيش اللجب ، وقابل المسلمون أوربه كلها ، وردّوا جيوشها عن دمشق . وقد اتى شبابها ومتطوعوها من البطولات الاعاجيب .

وقفل الشقيقان الى بلادهما . وتركا دمشق لصاحبها .

ومات ملك دمشق ، ومال القوم بعده الى الافرنج حسداً لنور الدين ، واستعانوا بهم عليه ، فلم يجد بداً من حصار دمشق . فضرب عليها نطاقاً من السهم والنيرب ، ومن المزة وحجّيرا والقدم [1] . وضرب خيمته في عيون فاسْرَيّا (في دوما) وامتدت جيوشه الى الضّمير ولكنه لم يقاتل اهلها ، ولم يستحل ان يريق دم واحد من المسلمين ، وجاء الصليبيون لنصرتها فردهم ، ولم يكن يطلب مالاً ، ولا يطلب حكم البلد ، بل كان كل مطلبه ان ينضم جيش دمشق إلى جيشه ليحارب الصليبيين .

* * *

وكانت سيرة نور الدين قد ملأت كل قلب محبةً له ، وكل لسانٍ ثناءً عليه ، فقام أهل الشام على ملكهم ونقبوا السور لنور الدين من جهة الباب الشرقي ، فدخل من حيث دخل خالد بن الوليد من قبل ، واستقبلوه بالهتاف والاهازيج :

نور الدين يا منصور ، وبسيفك فتحنا السور

---

(١) وكلها اماكن حول دمشق معروفة الى اليوم باسمائها هذه ، والنيرب قد تدعى بالنيربين وهي اليوم (الدواسة) على السفح بين أعالي كيوان والربوه ، والمشهور ان في (القدم) آثار قدم الرسول ، ولا اصل لذلك ، ولم تطأها قدمه صلى الله عليه وسلم ، ولم يصل الى ابعد من (بصرى) في حوران .

وبقي هذا الهتاف بذاته في دمشق إلى اليوم يهتفون به في المظاهرات ولا يفهمون مأتاه .

واستسلم مجير الدين ، فلم يقتله ولم يعاقبه ، وانما تركه ينفي نفسه من الشام ، ويرحل إلى العراق .

* * *

وكان جوسلان ، بطل الافرنج ،وفارس فرسانهم ،وحامي حماهم، قد اغار غدراً على ضواحي حلب و كسر حاميتها ، ورجع بالنصر والكبر والغنائم والاسلاب ، وكان نور الدين قد ألّف عصائب من أشداء التركمان ، فأرسل عصابة منها إلى جوسلان ، فذهبت وغامرت مغامرات (الكوماندوس) حتى انتزعته من فراشه ، وجاءت به غنيمة باردة ، فألقته تحت رجل نور الدين ! فكان وإياه كما قال ابن كلثوم :

فآبوا بالغنائم والسبايا وابنا بالملوك مصفّدينا

* * *

وكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من المعارك المظفرة ، فتح قلعة حارم بعد ما لبثت سبعين سنة وهي حصن الافرنج ، تجرع المسلمين الصاب والعلقم . واستعاد الرُّها (اورفة) ، وطهر الداخل اكثره من الافرنج ،ولما توجهوا تلقاء مصر ، وعلم أن الوزير فيها (شاور) قد خان امته ،بعث قائده شيركوه (اي أسد الجبل) فذهب هو وابن أخيه صلاح الدين ، ففتحا له مصر وطردوا الافرنج من دمياط .

اخذ البلاد وهي دول وإمارات ، كل بلدٍ دولة ، وكل قرية حكومة وتركها وهي دولة واحدة ، تشمل الشام ومصر وأعالي الفرات ، وماظلم أحداً ، ولا قتل مسلماً ، ولا أراق الدم الحرام .

وأشهد أني قرأت تواريخ عظماء الشرق والغرب ، فما رأيت بعد الصحابة مثله ، وشهد هذه الشهادة من قبل المؤرخ ابن الأثير .

حقر الدنيا ، وزهد في أبهة الحكم ، وبريق السلطان ، ونذر نفسه لله، للغايتين اللتين سعى اليهما : وحدة المسلمين وقهر الافرنج ، وما حاد قط عن طريقهما.

وكان قائداً منقطع النظير ، له قلب ملؤه الايمان ، فلا يعرف الجزعُ الطريق اليه ، وكان يقول : لو كان معي ألف فارسٍ لا أبالي بعدو ! ووالله لا استظل بظل جدارٍ ابداً .

اعترضه مرة نهر الفرات ، فابتغى مخاضة دلّه عليها دليل تركماني ، فخاضه والجيش كله من ورائه فانهزم الأعداء من الدهشة والرعب ، قبل أن يهزمهم وقع الحسام .

ورأوه يوم حارم منفرداً عند التل ساجداً يمرغ وجهه بالتراب ، يناجي ربه يسأله النصر ، ثم أخذته الحال ، وارتفع صوته يتضرع ويقول : اللهم انصر دينك ، لا تنصر محموداً (يعني نفسه) ومن هو محمود الكلب حتى ينتصر ؟

فنصره الله ذلك النصر المؤزر، وما كان معه إلا قطعة من الجيش ،وكان جيشه في مصر .

وكان يأسف على أنه لم يرزق الشهادة ، ويقول : تعرضت لها غير مرة فلم تتفق لي،ولو كان فيَّ خير ، ولي عند الله قيمة ، لرزقت الشهادة .

وهذه (يا أيها السادة) منزلة في الايمان والصلة بالله لم يبلغها كثيرٌ من الزهاد والمتعبدين .

* * *

ترك الأذان بـ (حيّ على خير العمل) ، وهي بدعة الفاطميين ،وعاد

إلى الأذان الشرعي .

وكان يتبع السنة ويقف عند حدود الشرع ، منع الخمر في بلاده ، وأزال المنكرات ، ورفع الضرائب والمغارم . وكان في عدله آية الآيات . وقف مع خصمه أمام القاضي الشهرزوري . وأنشأ في دمشق دار العدل . وأقام البيمارستان النوري (مدرسة التجارة الآن) ، وكان مستشفى كأرقى مستشفيات الحضارة اليوم . وملأ الدنيا بالمدارس ودور الحديث ، ومعاهد الخير . ولبناء المستشفى قصة طريفة : أسَر مرة ملكاً من ملوك الافرنج ، فسأل أن يفتدى نفسه ، فقبل منه الفداء ، وأخذ منه ثلاثمئة ألف دينار ، خصصها للمستشفى ولدار الحديث النورية .

وكان ليالي السلم ينام قليلاً ثم يصحو ، فيلبس الصوف . ويأتي المسجد خفية فيصفّ فيه قدمه ، مصليا وذاكراً إلى الفجر ، ويمضي ليالي الحرب في المناجاة والتضرع [1] .

* * *

يا أيها الناس : إن مررتم بسوق الخياطين فوصلتم المدرسة النورية ، (وقد كانت منزل هشام بن عبد الملك) ، فقفوا على قبر هذا الرجل العظيم ، الذي كان ولياً زاهداً في ثياب قائد ، وكان عالماً عاملاً في ثياب ملك ، وكان واحداً من الستة الذين لم يعرف مثلهم تاريخنا .

هذا الرجل الذي وحّد البلاد ، وطهرها من الافرنج ، ووضع الأساس الذي قام عليه بناء صلاح الدين ، فقولوا : رحمك الله يانور الدين !

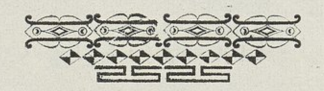
---

(١) ومن أراد سيرته فليرجع إلى المحاضرة القيمة التي القاها في المجمع العلمي القاضي ناجي الطنطاوي (المقتطف آب ١٩٤٦) .

ويا أيها الناس : كلما دهمكم خطب جديد ، أو هبّت عليكم من نحو فلسطين عاصفة عدوان ، فاذهبوا إلى نور الدين وإلى صلاح الدين ، لا لتسألوهما العون والنصر ، فما في الوجود ميت يعين حياً ، ولست أدعو الى شرك بالله ، وما النصر إلا من عند الله - ولكن لتذكروا انها قد حاقت بفلسطين من قبل مصائب أكبر من مصيبة يهود ، ونزلت بها نوازل أشد ، وأجتمعت عليها اوربة كلها ، وأقامت فيها دولاً لبثت اكثر من مئة سنة ، وكنا على حال من التفرق والضعف والجهل شرٍّ مما نحن عليه اليوم ، وقد انجلت مع ذلك الغمّة وانزاح البلاء ، وصارت حكومات الافرنج التي عاشت في القدس وفي اطراف الشام ، قرناً كاملاً ، صارت خبراً ضئيلاً ، يتوارى خجلاً في زاوية من زوايا التاريخ ، لا يدري به اكثر السامعين - وسيأتي يوم قريب يقول فيه مدرس التاريخ لتلاميذه : ان اليهود قد اسسوا مرة حكومة في الشام ، وهمّ العربَ أمرُها ، ونال العربَ شرُّها ، ثم ذكروا أين طريق الخلاص فخلصوا منها على أيسر حال .

الطريق (يا سادة) أن يظهر في العرب نور الدين جديد ، ينشر راية القرآن التي لم تنهزم قط ، ويضرب بسيف محمد الذي لا ينبو أبداً .

فانشروا راية القرآن واضربوا بسيف محمد ، تطردوا يهودَ ، وتعيدوا مجد العرب .



فاتح القدس

قل للملوك تنحوا عن عروشكم
فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

هذا الذى أخذ الدنيا بسيف الظفر ، ثم جاد بها بيد الكرم ، هذا الذي روّع أوروبة مرتين : مرة حين قهر جيوشها بسيفه ، ومرة حين شدَه نفوسها بنبله . هذا الذي كان النموذج الأتم للقائد المنصور ، وكان المثل الأعلى للحاكم المسلم ، وكان الصورة الكاملة الفارس النبيل ، والمسلم الصادق . وكان المحرر الأعظم ؛ حرر هذه البلاد ، الشام وفلسطين ، من استعمار الاوروبيين بعد ما استمر نحواً من مئة سنة .

هذا الذي انتزع من أصدقائه ومن أعدائه ، أَعظم الاعجاب ، واصدق الحب . وترك في تواريخ الشرق والغرب اكبر الامجاد ، وأعطر السجايا ، وكان اسمه من اضخم الاسماء التي رنّت في سمع الزمان ، ودوّت في أرجاء التاريخ ، وخلدت على وجه الدهر : « صلاح الدين الآيوبي » .

سقطت على أقدامه الدول ، ووقفت على أعتابه الملوك ، ودانت له الرقاب ، وانقادت اليه الخزائن ، ومات ولم يخلف إلا سبعة وأربعين درهماً ، وديناراً ذهبياً واحداً ، ولم يترك داراً ولا عقاراً ، فجُهز وأخرجت جنازته — كما يقسم القاضي ابن شداد - بالدّين !!

* * *

لقد قرأت سيرة صلاح الدين مراراً ، ولكني عدت انظر فيها قبل أن اكتب هذا الفصل ، فقرأت في سيرته وحروبه اكثر من الف صفحة ، فكان من أعجب ما وجدت أن ينبغ هذا الرجل العظيم (جداً) ، في ذلك الزمان الفاسد (جداً) ، وان يتغلب على العدو القوي (جداً) .

كان المسلمون قبل نور الدين ، وصلاح الدين ، على شر حال من الانقسام ، على حال لا يمكن أن يصل الى توهمها وَهْم [1] واحد منكم مهما بالغ في تصور الشر ، كان في هذه البقعة الضيقة من الوطن الاسلامي ، من الدول ، بمقدار ما كان فيها من البلدان ، ففي كل بلدة دولة مستقلة ، ففي دمشق دولة ، وفي شيزر دولة ، وفي حماة دولة ، وفي بعلبك ، وفي حلب ، وفي ماردين ، وفي خلاط ، وفي الموصل ، وفي سنجار بجنب الموصل ! وفي الحلة ، وللباطنية (الحشاشين) من الاسماعيلية دولة ، في بانياس وفي الجبل دول . وكان في كل دولة ملك او أمير ، أمراء منكرون لهم أسماء عجيبة وسير أعجب . وكان أقصى مدى لصلاح الدين ونور الدين من قبله ، ان يكون كواحد من هؤلاء الامراء ، وان هو نبغ كان اكبرهم ، فكيف ظهر هذان البطلان الخالدان ، في مثل ذلك الزمان ؟

* * *

وكانت قد دهمت الشام قبل صلاح الدين حملتان صليبيتان ، جاءتا كموج البحر لهما أول وليس لهما آخر ، ساقها الطامعون في هذه البلاد باسم الغيرة على النصرانية ، وانقاذ أرض المسيح من أيدي الوحوش الضواري ذوات الانياب والمخالب : المسلمين !

وكانت لهم دول ، دول لا دولة واحدة ، فلهم في القدس مملكة ، وفي

---

(١) «الوهم» و «التوهم» عند علمائنا الاولين مايسمى «الخيال» ومنه الرسالة القيمة «التوهم»

انطاكية أمارة ، وفي طرابلس وفي الرّها (أورفه) حكومة . ولهم في يافا كونتيّه ، دول وامارات طالت جذورها ، وبسقت فروعها ، وعششْ بومها وباضت وفرخت ، وحسب أهلها وحسب المسلمون انها امتلكت الشام الى الأبد .

فكيف استطاع صلاح الدين أن يصنع من ضعف المسلمين قوة ، ومن انقسامهم وحدة حتى واجه بهم أوروبة كلها ، وأزال (ما أمكن) من بقايا الحملتين الماضيتين ، ورد الحملة الثالثة الهائلة التي رمته بها اوروبة ؟

أتدرون كيف ؟

إنه ما رد العدو بعدد المسلمين ولا بعُددهم ، ولكن بالسلاح الوحيد الذي لاينفع في هذا المقام غيره : « بالايمان » .

غيرّ ما كان بنفسه من الفساد ، فغير الله على يديه ما كان في قومه من الضعف والتخاذل ، كان يلهو ويعطي نفسه هواها ، فتاب وأناب ، لم يفسد بالامارة كما يفسد بها كل صالح ، بل صلح بها بعد أن كان هو الفاسد ، ورجع الى الله ، فأرجع الله اليه النصر .

استمد أخلاقه وسيرته من إرث محمد ﷺ ، في التقوى والصلاح فأعطاه الله إرث محمد في الغلبة والظفر .

تمسك بالدين وأقام دولته على أساس من الاسلام متين ، فاستطاع بهذه الدول المتفرقة الجاهلة الهزيلة ، وهؤلاء الأمراء المنكرين ذوي الاسماء العجيبة ، ان يحارب أوروبة كلها ، أوروبة الحانقة الحاقدة المتعصبة التي اجتمع ملوكها جميعاً على حرب فلسطين .

صحح عقيدته أولاً ، وسأل (القطب النيسابوري) فألف له عقيدة عكف عليها وصار يلقنها أبناءه ، وقرب أهل العلم والدين ، فكان مستشاريه

وخاصته أعلامُ العصر : القاضي الفاضل ، والقاضي ابن الزكي ، والقـاضي ابن شداد ، وكان كلما نزل بلداً دعا علماءه ، ومن كان لا يأتي منهم أبواب السلاطين أخذ أولاده وذهب اليه ، كما ذهب الى (الحافظ الاصبهاني) في الاسكندرية ، وكان يحرص على صلاة الجماعة ، ولم يترك الصلاة قط إلا في الايام الثلاثة التي غاب فيها قبل موته ، وكان يصوم حتى في أيام المعارك ، وكان مكثراً سماع القرآن يبكي من خشية الله عند سماعه ، ويواظب على مجالس العلم والحديث ، حتى في ليالي القتال ، لم يترك صلاة الليل إلا نادراً ، يلجـأ الى الله كلما دهمته الشدائد ، وضاقت عليه المسالك ، فيجد الفرج والنجاة ؛ لانهـا ان سدت أبواب الارض احياناً ، فان باب السماء لا يسد أبداً ، وكان يقيم الحق لا يبـالي ولا يحابي فيه أحداً ، أخذ مرة ابن أخيه تقي الدين وأعز الناس عليه بشكوى عامي من دمشق اسمه ابن زهير ونكل به ، أما كرمه وهوانُ الدنيا عليه ، فأمر لا تتسع له الاحاديث . وكان اعتماده على الله ، ما استكثر قط عـدواً ، ولا خافه ، ولا فقد أعصابه قط في هزيمة ولا ظفر وكان متواضعاً يطـأ الناس (طراحته) عند ازدحامهم للشكوى ، ويردون عليه ويضايقونه في أوقـات راحته ، ماغضب لنفسه قط ، ولكنه كان إذا غضب لله ، لم يجرؤ أحد أن يرفع النظر الى وجهه ، وصار كالأسد الكاسر لا يقف أمامه شيء . وكان محتسباً صابراً ، لما جاءه نعي ولده اسماعيل ، قرأ الكتاب ودمعت عيناه ، ولم يقل شيئاً ولم يعرف الناس الخبر إلا بعدُ .

ولما جاءه نعي ابن أخيه تقي الدين أبعد الناس عن خيمته وجعل يبـكي بكاءشديداً ، والقضاة معه يبكون لبكائه ولا يعرفون السبب ، فقال لهم والعبرة تخنقه : مات تقي الدين . ثم رجع الى نفسه فاستغفر الله ، وغسل عينيه بمـاء الورد ، وكتم الخبر كيلا يبلغ العدو فيقوى ، او الجيش فيضعف .

وكان حسن العشرة ، طيب الاخلاق ، حافظاً للاخبـار والنوادر ، وكان معتلاً بدمامل ما تفارق نصفه الأدنى ، وكان مع ذلك يركب الخيل ويصبر على الألم ، ويخوض المعارك .

* * *

وأي معارك ؟ أنا لا أعرف في كل ما قرأت من كتب التـاريخ ، وأظن أني قرأت تاريخ الشرق والغرب ، جيشاً خاض من المعارك اكثر مما خاضه جيش صلاح الدين ، لقد ضرب كل رقم قياسي الى ذلك العصر ، خاض أربعاً وسبعين معركة في مدة ولايته على الشام ، في أقل من تسع عشرة سنة . حارب هؤلاء الامراء ، أمراء الموصل ، وأمراء حلب وحمـاة ، وحارب الحشاشين القتالين ومن اشتهارهم بالقتل اشتق اسم (أسـاسان) في الفرنسية للقاتل . ولا تقولوا كيف حارب أمراء الاسلام ؟ فان الذي يريد أن يبني له داراً ، لابد أن يزيل الأنقاض والخرائب ، فهو يهدم بيته البالي ليبني بيتاً جديداً ، وكذلك فعل صلاح الدين ، ثم ابتدأت سلسلة المعـارك الهائلة ، حروب ما عرفت مثلهـا أرض فلسطين وديار الشام الى ذلك العصر ، حروب لا تقاس بها القادسية ولا اليرموك . حروب جرب فيها كل سـلاح : السيف والرمح ، والدبابات والمجانيق ، والشجاعة والكيد ، والذكاء والاختراع ، والمروءة والشهامة ، وكان صلاح الدين ظافراً فيها جميعاً .

حروب استعملت فيها المنجنيقات التي تقذف الصخور الهائلة كالمدافع الثقيلة اليوم ، والسهام المتلاحقة كالرشاشات ، يمهد للمعركة بآلاف القذائف وبالضرب الذي يستمر يومين وثلاثا ، واستعملت الاكباش وهي عربات ضخمة مصفحة لهـا رأس ثقيل ينقب الاسوار ، والدبابات ، نعم الدبابات ، وهذا هو اسمها القديم ، وكان يفتنون فيها حتى اخترع الأفرنج في حصار عكا دبابة ثقيلة صنعوا منها ثلاثا ، في كل منها أربع طبقـات ، فجاءت أعلى من

السور ، وحصنوها بالحديد والجلود المسقاة بمواد يعرفونها تمنع الحريق ، ولم تؤثر فيها قذائف المسلمين ولا النار اليونانية التي كانوا يلقونها، وجزع المسلمون وخافوا ، فقال لهم صانع من دمشق اسمه ابن شيخ النحاسين ، انا أصنع لكم ناراً تحرقها ، فاستصغروه فلما ألح أجابوه ، فاستمهل يومين ثم صنع أشياء خلطها ووضعها في قدور ثلاثة ، وألقاها فانفجرت كالقنابل ، بمثل دوي الرعد ، وأحرقت الدبابات ، وكبّر المسلمون ، وكان يوم عظيم ، ولما عرضوا عليه الجوائز أباها ، وقال : عملت ذلك لله !

وجاء العدو مرة بكبش (مصفح) عظيم ، فأحرقه المسلمون ، ثم خافوا أن ينسحب ، فرفعوه (وهو يشتعل) بالآلات (اللنشات) حتى قارب السور فصبوا عليه خراطيم الماء ، وأخذوه والفرنج ينظرون مشدوهين ، فوجدوا فيه (٤٢٥) رطلا من الحديد .

واستعملوا الحيلة : لما ضاقت الميرة على عكا أثناء الحصار ، وفشلت كل محاولة لامدادها بالأغذية ، تطوع جماعة من المسلمين فحلقوا لحاهم ولبسوا لباس الافرنج ، وحملوا معهم الخنازير ، وتكلموا الفرنسية ، وركبوا بطشه (زورقاً ضخماً) ودخلوا بحيلة من أعجب حيل الحروب .

ومن هذه الحيل ان صلاح الدين كان يعرف القاعدة العسكرية ، وهي ان الجيش ليس المرابط في الجبهة ، ولكن الشعب كله جيش ، لذلك كان يستغل كل قواه للحرب ، حتى اللصوصية ، جمع اللصوص ليتخلص من شرهم ، ولكنه لم يحبسهم بل استخدمهم في صنعتهم ، فكانوا يسرقون له الأمراء والجنود من فرشهم بطرق عجيبة رواها ابن شداد ، وطالما انتزع أمراء من تحت لحفهم والخناجر على أعناقهم ، والمخدر في أجسامهم ، فلم يروا أنفسهم إلا أمام صلاح الدين .

ويوم حطين اتبع صلاح الدين (تكتيكا) حربياً عجيباً ، حين أجبر الافرنج على ملاقاته في المكان الذي تخيره هو ، وتحصن فيه . ويوم نجح في استرداد القدس أتى من النبل والكرم والمروءة ، مالم يفرغ بعد مؤرخو الافرنج من الكلام فيه وتقديره .

استرد القدس بعد ما ملكها الافرنج إحدى وتسعين سنة ، أفتشكون في استردادها اليوم ، وقد ملكها اليهود سبع سنين ؟ استردها وحولها ، يحامي عنها ، دول أوروبة كلها وملوكها ، أفلا نستردها اليوم وحولها حفنة من شذاذ الآفاق ؟

لقد كانت للصليبيين دول ، استمرت اكثر من مئة سنة فأين تلك الدول؟ ولم نكن على مثل انتباهنا اليوم ، فعاملناها لم نقاطعها كما نقاطع الآن اسرائيل ، وحالفناها جميعاً حتى دمشق بلدنا قد حالفت مرة الصليبيين ضد المجاهد الاول عماد الدين ، وحالفهم الحشاشون ، وحالفهم شاور من قبل ، فهل بقي مع ذلك أثر للصليبيين ؟.

إن الأمة التي أخرجت صلاح الدين ، وهي أسوأ من حالنا اليوم حالاً ، وأشد انقساماً ، وأكثر عيوباً ، لاتعجز عن أن تخرج اليوم مثل صلاح الدين .

إن نكبة فلسطين بالصليبيين كانت أشد بمئة مرة من نكبتها باسرائيل ، وقد مرت بسلام ، فهل تشكون في أننا سننقذ فلسطين ؟ أما أنا فوالله الذي لا إله إلا الله ، لو بقي على وجه الارض أربعون مسلماً ، لما شككت في أنهم يستردونها ، واني لأشك فيمن يشك في هذه الحقيقة ، أشك في ادراكه لطبيعة هذه الأمة ، أشك في عقله ، أشك في أنه عربي وانه مسلم .

وإذا عجزنا نحن عن أن نعود الى مثل سيرة صلاح الدين ليكتب لنا مثل نصر حطين ، فسيخرج الله من أصلابنا ، من هم أنقى منا وأطهر ، وسيستردون فلسطين .

الظاهر

هذا الحديث عن بطل من أعظم أبطال الاسلام، بل من أعظم ابطال الحروب في التاريخ البشري في عهوده كلها، عن الرجل الصالح المصلح، القائد المجرب، المحارب المظفر، الذي تعرفه العامة بقصته التي كانت تشغل الناس الليالي الطوال، في المنازل والقهوات، ويعرفه تاريخ الشرق وتاريخ الغرب، ببطولاته وأمجاده، فهو من أبطال التاريخ، وهو من أبطال الاسطورة، وهو أحد الثلاثة الكبار الذين جاؤوا تباعاً. فأسس الاول، وشاد الثاني، وأكمل الثالث، فطهّروا هذا الجزء من الوطن الاسلامي من أوضار (الاستعمار)، وأقاموا فيه صرح المجد والعزة، وتركوا في دنيا المكارم والبطولات دوياً لاتخمده العصور: نور الدين، وصلاح الدين، وهذا الثالث الملك الظاهر بيبرس.

* * *

لقد كان واحداً من المماليك، من هذه الطائفة التي كتبت في تاريخنا أعجب الصفحات، وهل أعجب من عبيد يشترون بالمال، كما تشترى السلع، ثم لايلبثون حتى يصيروا ملوكا، يتحكمون برقاب الاحرار ؟

لقد كان عهد المماليك عهد خزي في التاريخ الاسلامي، ولكنه لم يخل من ثلاث مناقب، الاولى أنه كان على الغالب عهد حكام قادرين، لأن الملك لم يكن ارثاً فيهم يرثه الابن من أبيه كما يرث جبّته ودابته ووسادته، بل كان

للاقوى والأقدر ، فلا يصل اليه الا شجاع قدير ، او سياسي بارع ، والثانية : ان تاريخهم مملوء بالفتوح العظام ، وحسبكم بفتوح هذا البطل الذي أحدثكم حديثه . والثالثة : أن جل الآثار الباقية في مصر والشام هي من عهد المماليك ، ولهم آثار كثيرة في الهند وغيرها من البلدان ، ومن آثارهم في دهلي ، منارة قطب ، وبقايا مسجد قوة الاسلام .

* * *

أصل الملك الظاهر من القفجاق (في القفقاس) ، جلب منها الى سورية ، وبيع في سوق العبيد في حماه بثمانمئة درهم ! ولكن المشتري رأى في عينه بياضاً ، فردّه بخيار العيب كما ترد البضاعة المعيبة ! فاشتراه مملوك للملك الصالح نجم الدين الايوبي ، ثم دخل في مماليك الملك الصالح .

وسيرته صفحتان مختلفتان أبعد الاختلاف، متناقضتان أبلغ التناقض : سيرته قبل الملك ، وهي صفحة بطش ومؤامرات وغدر وقتل ، وسيرته بعده وهي صفحة اصلاح وبطولة ، ونبل وعظمة ، لم يصل الى مثلها من عظماء الأمم كلها الا القليل .

اشتراه الملك الصالح وضمّه الى جنده ، فظهرت طلائع نبوغه وشجاعته من أول يوم ، وما زال يترقى حتى صار قائد الفرقة ، التي ردّت مقدمة الحملة الصليبية التي كان يقودها ملك فرنسا ، لويس التاسع الذي دعوه (القديس لويس) ، وشارك في حربه ، حتى أُسر وحُبس في دار القاضي ابن لقمان في المنصورة . . . وقصته مشهورة لما فكر في أن يعيد الكرة ، بعد اطلاقه ويأتي بحملة جديدة ، فقال له الشاعر :

دار ابن لقمان على حالها والقيد باقٍ والطواشي صبيح

ثم شارك في المؤامرة على طوران شاه ابن الملك الصالح ، وغدر به بايعاز من (شجرة الدر) التي حكمت فترة قصيرة ، حكماً سيئاً ، ثم لما

اضطروها الى الزواج بعز الدين ايبك ونزلت له عن الحكم ، فكان الحكم شركة ! كان الملك الظاهر أحد الشركاء فيه ، وكان عهد فساد ورشوة وظلم ، حتى ان المقريزي يقول عنه صادقاً : انه لو ملك الافرنج ما زادوا على هذا الفساد !!

ثم وقع الاختلاف بين الشركاء ، وقتلت شجرة زوجها عز الدين ، ثم قتلوها . في هذا العهد المضطرب الفاسد ، وقع النداء في مصر ان جيوش التتر قد توجهت تلقاء مصر ، التتر الذين أزالوا كل ما كان في طريقهم من دول الاسلام من أقصى الشرق الى مصر ، وهدوا عرش الخلافة العباسية ، وخربوا بغداد ، واعتقد الناس جميعاً انه لم يبق في دنيا الاسلام من يقف أمامهم .

هنالك قام الشيخ الذي سيأتيكم حديثه العز بن عبد السلام ، الذي نفخ في الناس روح الايمان ، وأحيا في نفوسهم سلائق البطولة ، ونصب عليهم القائد المجرب (قُطز) ملكاً ، وسار (قطز) بالجيش المصري حتى واجه التتر في موقعة (عين جالوت) ، وأنقذ الله به الحضارة والاسلام ، وكان الظاهر من قواده الكبار ، ولكنه ناوأه عقب المعركة ، وكاد له حتى إذا أدركه العجز أظهر له الود والتوبة ، فعفا عنه (قطز) وأعاده الى مصر واكرمه ، فكافأه على ذلك بأن قتله غدراً ، وتولى الملك بعده ولقب نفسه الملك الظاهر .

وهنا تبدأ الصفحة الثانية في تاريخه .

* * *

ولي الملك ، والبلاد مضطربة ، والموظفون فاسدون مرتشون ، والمظالم مستمرة ، والاعداء في الداخل وفي الخارج ، في داخل البلاد أمراء يطمعون بالملك من دونه ، فهم يتربّصون به ، ويعدّون العدد للانقضاض عليه ، وفي

خارجها أقوى عدوين عرفها التاريخ الاسلامي كله ، التتر والصليبيون ، فماذا يصنع هذا الرجل الواحد حيال ذلك كله ؟

لقد صنع العجب العجاب ، وجعل من هـذه البلاد المنقسمة ، وهذه الحكومات الفاسدة ، دولة من أكبر دول الاسلام ، وقفت في وجـه الشرق والغرب ، وحاربت التتر والصليبيين معاً ، وكان لها الظفر عليهما جميعاً ؛ وكل ذلك بفضل الملك الظاهر ، العبد الذي بيع في سوق العبيد بجماه بثمانمئـة درهم ، ورد لعيب كان فيه . . .

بدأ بهؤلاء الأمراء الطامعين بالملك ، ومدّ لهم الحبل حتى إذا استضعفوه وطمعوا فيه ، وأعلنوا الثورة ، ضبطهم متلبسين بالجرم ، وقتـل ثورتهم في مهدها .

ثم اتخذ من ذلك ذريعة الى ضبط المماليك ، فجمعهم واكرمهم ورتب لهم الأرزاق ولكنه حجزهم ؛ وحال بينهم وبين ايذاء الناس والاعتداء عليهم ، وافهمهم أن في البلد ملكاً وحكومة ، وان الفوضى قد انقضى عهدهـا ، ثم عمل على الاصلاح فأصدر سلسلة من المراسيم المتتابعة ، أبطـل فيها المكوس ، ورفع المظالم ، وجعل للضرائب قانوناً عادلاً معروفاً ، وأصلح أسلوب القضاء ، ونصب أربعة قضاة للمذاهب الأربعة ، وأعاد افتتاح (الأزهر) ، وعمل على نشر التعليم ففتح المدارس وأقام لها المدرسين ، وأقرّ العدالة الاجتماعية ، فأحصى الفقراء ، وضمن لهم مايعيشون منه ، وأصلح الطرق والترع والجسور ، ثم التفت الى الجيش ، فأعـاد تنظيمه ، وحرم على الجند النهب واتلاف المزروعات ، وأخذهم بالطاعة والتدريب ، وترك الخمر والفحش .

ثم وجه نظره الى السياسة الخارجية ، فعقد المحالفات مع الدول المجاورة ،

خشية اتفاقها عليه وتأييد أعدائه ، مع بيزنطية وسلاجقة الروم ، والمغول ، ومملكة صقلية ، ثم بدأ سلسلة المعارك العظيمة .

* * *

ويا ليتني أستطيع أن أصف لكم هذه المعارك وأحدثكم حديثها ، ولكن هيهات ! وكيف ألخص في دقائق أحداثاً شغلت المؤرخين ، وشغلت القصاص، وكانت شغل الناس على مر الزمان .

خرج بجيشه من مصر الى فلسطين ، وكانت المعاهدة مع صاحب يافا الصليبي قد انتهت ولم تجدد ، وحسب الصليبيون انه أمير كهؤلاء الامراء الذين عرفوهم من قبل ، لم يدروا انهم أمام قائد عبقري ، من أعظم العباقرة العسكريين في التاريخ ، فلم تكن إلا جولة واحدة حتى فتحت يافا ، وتلتها طرابلس ، وانطاكية ، وارتاع الصليبيون ، لما رأوا أن (بيموند) أعظم ملوكهم قد غُلب وأخذت منه انطاكية ، واجتمعوا وفاوضوا التتر والمغول، ليحالفوهم على الظاهر ، وهو ماضٍ في طريقه ، ووقف له الفرسان (الهسبتاليون) ، وكانوا أشجع فرسان أوربة ، فلم يصنعوا شيئاً أمام فرسان المماليك ، واستمرت هذه الحروب عشر سنين ، حارب فيها مرةً المغول والصليبيين في وقت واحد ، ولم يغلب قط ولم يمتنع عليه حصن ، وكان في شجاعته وثبات عزمه أعجوبة ، بنى الأسطول من أربعين سفينة حربية ، فتحطم كله ، فلم ييأس ولم يداخله القنوط ، بل عاد يصنع غيره ، ويشرف عليه بنفسه ، وكان ابداً على رأس الجيش ، وكان يتفقد الجرحى ، ويواسي أهل القتلى ، ويرتب لهم الرواتب .

وانتقض عليه مرة امبراطور القسطنطينية ، وحالف التتر ، فلم يبال

بهما ، وصنع مراكب ثم نقلهـــا على ظهور الجمال من بحيرة حمص ، الى نهر الفرات ، وحارب الروم والتتر معـــاً ، وعاد الامبراطور الى الخضوع له واسترضائه ، وجدد من أجله المسجد الذي كان بناه مَسْلَمة بن عبد الملك في القسطنطينية. وحارب الأرمن ، وكانت مساكنهم في قيليقية لما نقضوا العهد، وقضى على الباطنية القتلة الحشاشين من الاسماعيليين. وكانت كتبه الى أعدائه أعجوبة في الايجاز والسخرية والواقعية ، واكتفى ببلاغة السيف عن بلاغة القلم ، ومن كان فعالاً لم يكن قوالاً ، ومن كان يكثر الأقوال فانه يقلّ الأفعال .

* * *

أخذ البلاد وهي أوصال مقطعة ، تحكمها حكومات فاسدة شريرة ، ويعبث العدو فيها ، ويملك أطرافها ، وتركها وهي حكومة واحـدة قوية ، تشمل سورية ومصر والنوبة والحجـــاز وأطراف العراق ، وتزلف اليـه امبراطور القسطنطينية وملوك اسبانيا ، وحكام الشرق والغرب، وكان يطمع في اكثر من ذلك ، في أن يعيد توحيد البلاد الاسلامية كلها ويرجع الخلافة ، ويحيي رسومها . وجاء بأمير عباسي فبايعه بالخلافة ، ولكنه سنّ سنة سيئة ، فجعل الخلافة اسمـــاً بلا رسم ، وجعل الخليفة رئيساً بلا حكم . وقهر أقوى عدوين في تاريخ الاسلام ، وخلّف في تاريخ الاصلاح الداخلي ، وفي تاريخ البطولات الحربية ، أروع الأمثلة وأعظم الأخبار .

هذا هو الرجل العظيم الذي كانت تقرأ العامة قصته في القهوات ويقرأ الخاصة سيرته في المدارس، ويرى الناس آثاره حيثما ساروا ، في الشام ومصر، وهذا هو الدليل الثالث على أن هـذه البلاد ، مهما انقسمت وضعفت وأخذ

العدوّ من اطرافها ، لايزال فيها من القوة والأيْد ، ماتنتفض معه انتفاضة فتلقى عنها هذه الأوضار ، وتعود حرة نظيفة طاهرة كما كانت .

* * *

وقبر الملك الظاهر في دمشق ، في مدرسته التي صارت دار الكتب ، ومثابة العلم ، غفر الله له ، ورحمه ، وأجزل ثوابه .



القاضي المتأنق

يبدأ هذا الحديث في قرية جبلية منفردة عن القرى ، ضائعة بين الذرى المعمّمة بالثلج ، والأودية التي تهيم فيها السواقي ؛ تطل على البحر المتوسط ، لا من جهة الشرق من أعالي لبنان ، ولكن من جهة الغرب من ضهور الأندلس [١] ، مع رجل لم يقعد على صخور الجبل ، ليستجلي جمال الكون ، ويكحل العين بفتنة الوجود ، بل ليفكر كيف يصل الى المدينة العظيمة التي يسمع بها ولم يرها ، الى قرطبة دار الخلافة ، وقصبة الأرض ، ليشكو الى القاضي عدوان جاره على أرضه ...

ووجد من يدله على الطريق ، ويصحبه في هذا السفر ، حتى إذا وصل به الى أبواب قرطبة ، ولاحت له شرفات المسجد وقبابه ، وتكشفت له غرف القصر ، ورأى تلك الفخامة وذلك العظم ، ازداد حيرة على حيرته ، ولم يدر أيّانَ يسلك . ولحظ الناس حيرته ، فأقبلوا متطوعين لدلالته ، وساروا به حتى بلغ رحبة البلد ، فسألهم ان يرشدوه الى المحكمة . فلما دخلها ، سأل أين القاضي ؟ فوقفوه أمام القاضي ، فاذا هو يرى شاباً بزي الأحداث ، له جمة مفرقة (شعر طويل مفروق) وعليه رداء ملوّن مُعَصْفَر [٢] (كالقمصان الملونة التي يلبسها شباب اليوم) والكحل ظاهر في عينيه ، وأثر الحناء في يديه ،

---

(١) ضهور ، من عامي الشام الفصيح . ومنه (ضهور الشوير) في لبنان .

(٢) مصبوغ بالعصفر .

وفي رجله نعــل صرارة ، فتوقف ، ورجع يقول لهم : دلوني على القاضي .
قالوا : هذا هو القاضي وأشاروا اليـه . فقـال : اني رجل غريب ، وأنتم
تستهزئون بي ، أنا اسألكم عن القاضي ، وأنتم تدلونني على رقاص خليع !

وتركهم غضبان وذهب الى المسجد ، الى مسجد قرطبة أوسع مساجد
الاسلام ، الذي لاتزال آثاره اليوم ، وهو ميت بعـد ما مات أهله ، تدهش
من يراها ، وتمسك عليه انفاسه ، فلا يملك إلا أن يفتح عينيه ، ويحبس نفَسه ،
وينظر . وكان العهد من أعز عهود الاســلام في الأندلس ، عهد الحكم بن
هشام ،وكان المسجد في إبّان جماله وجلاله ،وعمرانه بالعلم والعبادة ،وكانت تقتسم
العـالم الدولتان المتحضرتان : الدولة المسلمة في الشرق دولة بني العبـاس ،
والدولة المسلمة في الغرب دولة بني أمية ، أما أهل أوربة فكانوا بالنسبة اليهما
يومئذ ، كسكان افريقية الوسطى بالنسبة لفرنسا وبريطانيا في هذه الايام .

وكان اليوم جمعة فقعد الرجل ينتظر الصـلاة ، وينظر الى هـذه الغابة
من الاســاطين المتعاقبة ، والاقواس المتعاقدة ، والصناعة البديعة ، والعظم
البادي ، حتى إذا كانت الصلاة ، ودنت الخطبة ، رأى النـاس المزدحمين
يفتحون الطريق للخطيب ، ويتلقونه بالاعظام والاجلال ، فنظر فاذا صاحبه ،
الذي حسبه رقاصاً ، قد أقبـل بزيه الذي رآه عليه ، وهو زي الشباب ،
حتى صعد المنبر فخطب خطبة من أروع الخطب ، وأبلغهـا مقـالاً ، وأصدقها
لهجة ، وأحفلها بكل علم نافع ، ووعظ بالغ ، ثم أمّ الناس فقرأ قراءة متدبّر
متفهّم ، من قاب خاشع ، فبلغ من نفسه بخطبته وقراءته ، مالم يبلغه الخطباء
والأئمة أصحاب العمائم الكبار ، والجبب الواسعة ، واللحى العريضة .

فلما قضيت الصلاة أقبل على جـاره ، يسأله متردداً مستحيياً : من هذا

الذي يلبس لباس المغنين ويتكلم كلام الزاهدين ؟ فيعجب الناس من عجبه ويقولون : ألا تعرفه ؟ فيقول : لا . ولست من أهل هذا البلد .

فيقولون : هذا محمد بن بشير قاضي قضاة الأندلس ، وشيخ الاسلام فيها ، وخطيب مسجدها الاعظم .

ويقبل الناس يروون له مناقبه ويحدثونه حديثه .

* * *

فكان مما حدثوه من مناقبه انه كان لديه دعوى لعم الحكم ، على واحد من العامة ، وكان يظن المدعي أن له من علو مكانته ، ووثيق صلته بالملك ، ما يمكّن له عند القاضي ، وإذا بالقاضي يقول له : قف بحذاء خصمك ولا تتكلم ، حتى اكون انا الذي اسألك . فلما أدلى بدعواه . قال للمدعى عليه : ما تقول ؟ قال : ليس له عليّ شيء أصلح الله القاضي .

قال القاضي للمدعي : هات بينتك . قال : ألا يكفيك قولي ؟ قال : لو كفاني ما سألتك البينة . بينَتك . قال : أمهلني .

وذهب العم الى الحكم صاحب الأندلس ، الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الأموي ، فقال له : ألست تعرف أن لي على فلان كذا ؟ قال : بلى . قال : أتشهد لي ؟ قال أنت تعرف القاضي وأخاف ألا يقبل شهادتي ! قال : كيف وأَنت الذي وليته القضاء ؟ قال : هو ما أقول لك . قال : فمن يشهدلي ؟ فدعا الملك بفقيهين و كتب شهادته أمامها وأشهدهما عليها. وقال : أمضِ بها اليه وأنا أخاف ألاّ يقبلها .

فلما كان يوم المحاكمة . وقال له القاضي : بينتك . أبرز له شهادة الملك . فقال القاضي : أنا لا أقبل شهادته .

فاستشاط العم غضباً ، وجُنّ جنونه . وذهب الى ابن أخيه ، وقال :

أنت ملك البلاد، والقاضي رد شهادتك! ماذا بقي لك من الكرامة والسلطان؟
وضحك الحكم وقال : ألم أقل لك ياعم ؟ ان القاضي رجل صالح لا تأخذه في الله لومة لائم ، عمل مايجب عليه ، فأحسن الله جزاءه .

قال : فاعزله . قال : أعوذ بالله . أنا أخون المسلمين في عزل مثله ، أنا عملت ما علي وشهدت الك ، وللقاضي أن يقبل الشهادة او يردها .

ولما سُئل القاضي بعد ذلك . لماذا رددت شهادته ؟

قال للسائل : يا جاهل والله ما رددتها ، لنقص في عدالته ، ولكن لا بد من سؤال المدعى عليه عما يقوله في الشـــاهد . فمن كان يجرؤ على الطعن في شهادته لو قبلتها .

يا ايها السامعون : انظروا كيف كان ملوكنا وكيف كان قضاتنا .

* * *

وكان مما حدثوه به . ان عامياً أقام لديه دعوى على ابن فطيس الوزير ، وكان له في الأندلس سطوة ونفوذ . فلما سأل المدعي بينته ، جاء بشهود فسمع شهادتهم بغيبة الوزير ولم يخبره عنهم ، ولم يعرفه بهم ، وحكم عليه . فرفع الوزير شكوى الى الحكم . وكان القاضي حاضراً . فأومأ اليه الحكم سائلاً . فقال : ليس ابن فطيس ممن يعرّف بمن شهد عليه ؛ لأنه ان لم يجد سبيلاً الى تجريح شهادتهم ؛ لم يتحرج من استعمال سلطانه في أذاهم في أنفسهم وأموالهم والانتقام منهم ؛ فيدع الناس الشهادة وتضيع أموال الناس .

يا سادة . وهذا مبدأ وضع حديثاً في قانون البينات عندنا ؛ وحسب واضعوه أنهم جاؤوا بشيء جديد ليس في الفقه الاسلامي . وهذا ابن بشير يقرره في القرن الثاني للهجرة من اكثر من الف ومئتي سنة .

قال : فكيف يتخذ هذا الزي ؟.

قالوا : لقد سئل هو عن ذلك . فقال : حدثني مالك بن أنس أن محمد ابن المنكدر وكان سيد القراء كانت له لمة (شعر طويل) . وان هشام بن عروة فقيه المدينة (ابن عروة بن الزبير الذي حدثتكم عنه) كان يلبس الـمُعَصْفر وان محمد بن القاسم كان يلبس الخز [١] .

فلما سمع ذلك غدا عليه ورفـع اليه دعواه ، فرأى عنده من العدل والنزاهة والحزم ، ما لا مزيد عليه لمستزيد ، وعلم أنه قد يكون العالم العابد المتبتل في زي رقاص او مغن . وقد يكون الدجال المحتال الختال في زي عابد متبتل ، وان العبرة بالنيات والأعمال لا بالصور والأشكال ، وانه كان ضيق النظر ، محدود الفكر ، حين وقف عند ظاهر الزيّ ، ولم يمض حتى يختبر ما وراءه من المعاملة والفعل .



(١) على ان للعرف حكمه ، واذا لم ينكر عليه زيه هـذا أهل الاندلس ، لمكانته وديانته ، فليس لقاض أن يتخذ مثله في بلد يرى ذلك قادحاً بالمروءة مسقطاً للهيبة . وللثياب اثرها في نفس الرجل وخلقه ، وفي رأي الناس فيه ، ونظرهم اليه ، لاينكر ذلك الا جاهل او مكابر .

خطيب الزهراء

احدثكم اليوم عن قاض كبير ، كان قاضي الجماعة في الاندلس ، وهو مثل منصب قاضي القضاة في بغداد ، وكان خطيبها الاول ، وكان عالمها الاكبر ، وكان يهزل حتى ليأتي بالعجائب من النكات ، والغرائب من المضحكات ، ولكنه اذا جد الجد ، وجاء الواجب وقف مواقف لاتثبت في مثلها الجبال الرواسي .

اما نكته فلقد جهدت أن أعرض لبعضها ، وحاولت ان اعبر عنها بالكناية والايماء والاشارة ،فوجدتها افظع من ان يعرض لها في حديث يسمعه من أريد ومن لا أريد ، فمن شاء الوصول اليها فان بعضها في (مطمح الانفس) للفتح بن خاقان الوزير .

واما مواقفه ، فها كم صوراً سريعة ، لطائفة منها ، لا استقصي في الرواية ولا استوفي التصوير ، لان ذلك كثير ، والوقت قصير .

نحن الآن في الاندلس جنة الارض ، في قرطبة عاصمة الدنيا ، في العصر الذي لم تعرف الاندلس - في جاهليتها الاولى ، ثم في اسلامها امس ، ثم في نصرانيتها اليوم ، عصراً أزهى منه ولا ابهى ، ولااكرم ولا اعظم ، عصر الملك الكبير ، اعظم ملوك الاسلام في عصره ، امير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ، باني الزهراء .

لقد ُجمعت الدنيا بعظمتها وبهائها في الاندلس ، وجمعت الاندلس في قرطبة ، وجمعت قرطبة ذلك اليوم في القصر ، الذي ألبس من روعة البناء ،

وجلال الفرش ، وعظمة السلطان ما لايصفه قلم ، واعد لاستقبال وفد قيصر ، الذي قدم من القسطنطينية يريق على عتبة الناصر ولاءه ويلتمس تأييده .

وتطلعت نفوس الخطباء إلى الكلام في هذا المقام ، وتمنى كل عالم وخطيب ، ان يشير اليه الخليفة بالرد على خطبة رئيس الوفد ، فلم ينل ذلك واحد منهم ، وناله الامام أبو علي القالي البغدادي ضيف الاندلس ، ومؤلف الأمالي .

وقام أبو علي ليتكلم فأرْتِجَ عليه ، وانقطع فما قدر على كلمة ، وكاد يضطرب الامر ، واذا بشاب يقوم من بين العلماء ، فيقف على المنبر ، دون القالي بدرجة ، ويرتجل خطبة ، لم يسمع الناس مثلها ، هزّ فيها القلوب ولعب بالعواطف ، وملك المشاعر ، وجاء بشيء عَجَب ، نبه الخليفة إلى مكانه ، فسأل ابنه الحكم عنه ، فقال : هذا منذر بن سعيد البلوطي ، قال : لارفعن منه فانه لذلك أهل . فولاّه القضاء ، وخطابة المسجد الجامع ، ثم لما بنى مدينة الزهراء ، اعجوبة الفن المعماري التي لم يبن مثلها ملك ولا امير ، والتي لو بقيت لكانت الحمراء إلى جنبها كوخاً من الأكواخ ، ولما اكمل مسجدها ولاه خطابته .

وكان الخليفة قد استغرق في الاشراف على بنائها ، حتى قالوا انه اضاع صلاة الجمعة مرة ، وبنى فيها قاعة جعل قرامدها من الذهب والفضة ، وغرم فيها مالا يوصف ، وحشد الناس لافتتاحها الرسمي ، وجعل ابتداء حفلات الافتتاح بصلاة الجمعة ، وكان الخطيب منذر بن سعيد ، فصعد المنبر فبدأ الخطبة بداية عجيبة ، بقوله تعالى : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله واطيعون ، واتقوا الذي أمدّكم بما تعلمون ، امدكم بانعام وبنين ، وجنات

وعيون ، اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) .

ووصل ذلك بكلام جزل ، وقول فصل ، ذم فيه السرف والترف ، واضاعة اموال الامة في زخرفة القصور ، ووصله بقوله ودموعه تنحدر من لحيته :

والله يا أمير المؤمنين ، ما ظننت ان الشيطان اخزاه الله ، يتمكن منك هذا التمكّن ، حتى أنزلك منازل الكافرين ، فجعلت قرامد بيتك من الذهب والفضة ، والله تعالى يقول : (ولو لا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسُرُراً عليها يتكئون ، وزخرفاً ، وان كل ذلك لـَمّا متاعُ الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) .

ووصله بقوله تعالى (أفمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوانٍ خيرٌ أم من أسس بنيانه على شفا جُرف هارٍ فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين ، لايزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا ان تَقَطَّع قلوبهم والله حكيم عليم) .

ومازال في مثل هذا ، حتى نسي الناس الخليفة ونسوا الاحتفال ، وصغَت القلوب الى الله ، وصفَت النفوس لله ، وارتج المسجد بالبكاء .

فلما قضيت الصلاة انصرف الخليفة مغضباً ، وقال لابنه : أرأيت جرأته علينا ، والله ...

ماذا ترونه يا سادة فاعلاً معه ، انه لم يفعل الا أن قال :

... والله لا صليت خلفه الجمعة ابداً .

قال له ابنه الحكم ، وما يمنعك من عزله؟ فرجع الخليفة الى نفسه وقال : ويحك أمثل منذر بن سعيد في فضله وورعه وعلمه (لاامّ لك) يعزل في ارضاء

نفس ناكبة عن سبيل الرشد ؟ اني لا ستحي من الله ان اجعل بيني وبينه اماماً غيره ، ولكنه قسم سبق .

وامر بنقض الذهب والفضة من القصر .

* * *

وهاكم موقفاً آخر من مواقفه مع الناصر .

اراد الناصر ان يبني قصراً لاحدى نسائه ، وكان بجوار المكان دار صغيرة وحمام لأيتام تحت ولاية القاضي ، فطلب شراءه ، فقالوا : انه لا يباع الا باذن القاضي . فسأله بيعه فقال : لا ، الا باحدى ثلاث : حاجة الايتام ، اووهن البناء ، او غبطة الثمن .

فأرسل الخليفة خبراء قدروهما بثمن لم يعجب القاضي ، فأباه ، وأظهر الخليفة العدول عنها والزهد فيها ، وخاف القاضي ان يأخذها جبراً ، فأمر بهدم الدار والحمام وباع الانقاض ، باكثر مما قدر الخبراء[1] . وعز ذلك على الخليفة وقال له : وما دعاك الى ذلك ؟

قال : اخذت بقوله تعالى : (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فاردت ان اعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً) .

لقد بعت الانقاض باكثر مما قدرت للدار والحمام ، وبقيت للأيتام الأرض ، فالآن اشترها بما تراه لها من الثمن .

قال الخليفة : انا اولى من انقاد الى الحق . فجزاك الله عنا وعن أمتك خيرا .

* * *

يأيها السامعون : اذا أردتم ان تعرفوا من اين جاءته هذه الهيبة في

---

(١) ويظهر ان الخبراء الرسميين هكذا دائما .

الصدور ، وهذه الجلالة في النفوس ، وهذه المنزلة عند الخليفة والناس ، فاعلموا انها ماجاءت الا من اخلاصه لله ، وخوفـه منه ، وعبادته لله ،واتصاله بــه . ان من خاف الله خافه كل شيء ، ومن كان مع الله جعل الخلق كلهم معه ،ومن اطاب مطعمه ومشربه استجاب الله دعاءه .

* * *

قحط الناس في اواخر مدة الناصر ، فأمر القاضيَ منذر بن سعيد بالخروج الى الاستسقاء فتأهب لذلك واستعد ، وصام بين يديه (اي قبله) ثلاثة ايام ، واستغفر الله من ذنبه ، واحصى حقوق الناس عليه فردها او سألهم السماح بها ، وخرج وخرج معه الناس جميعا ، رجالا ونساء وولدانا .

وقال لصديق له من خواص الخليفة وهو خارج : اذهب فانظر مايصنع اميرالمؤمنين ؟

فعاد يقول : ما رأيناه قط اخشع منه في يومنا هذا ، انه لمنتبذ (منفرد) حائر لابس اخشن الثياب ، مفترش التراب ، قد رمى منـه على رأسه وعلى لحيته ، يبكي ويستغفر ويقول : يارب هذه ناصيتي بين يديك ، فان اذنبت أتـراك تعذب الرعيــة بذنبي ، وانت احكم الحاكمين ،وانت قادر عليّ لن يفوتك شيء مني .

فتهلل وجه القاضي ، وقال لغلامه :

اذهب فاحمل المِمْطَر (المشمع) فقد اذن الله بالسقيــا ، اذا خشع جبار الارض فقد رحم جبار السماء .

وقام يدعو ، والناس يضجون بالدعاء والتوبة والاستغفار ، فما انصرف حتى امتلأت السماء بالغيوم وبلل الناس المطر .

هكذا كان قضاة المسلمين ، لم يكونوا مثلي .

اللهم بيدك قلوب العباد ، وأنت على كل شيء قدير ، اللهم اسلك بنا سبيلهم ، والهمنا الاستنان بهم ، واجعلنا برحمتك من قضاة الجنة لا من قضاة النار .

وارحم منذر بن سعيد ، وكل من اتخذ الحق شعارا ، وأقام الدين منارا ، انك انت ارحم الراحمين ،

حجة الاسلام

نحن اليوم في نيسابور في معسكر الوزير العظيم ، نظام الملك ، الذي كان يدير من هذا المعسكر في ضاحية نيسابور ، اكثر من نصف بلاد الاسلام، وكان قصره حافلاً ابداً بالعلماء ، ولكنه اليوم أحفل منه كل يوم ، لأنه يوم المباراة العامة ، وأنتم تعرفون المباريات الرياضية ، وتحتشدون لها ، ولكنكم لا تعرفون المباريات العلمية التي كانت تسمى المناظرات ؛ ويجتمع لها الناس ، ويشرف عليها الامراء ، وقد يكون منها ماهو قاصر على فن من الفنون ، كالمناظرات النحوية والكلامية والفقهية ، ومنها ما يشتمل على اكثر من فن واحد . أما مباراة اليوم فعجيبة حقاً ، لأنها مباراة في كل علم ، والمتبارون العلماء جميعاً ضد رجل واحد ، يقدم المعسكر للمرة الاولى .

شاب عمره ثلاث وثلاثون سنة . ولكن اسمه كان قد ملأ الأسماع ، وتآليفه سارت كل مسير .

وكان اليوم الأول للمناظرة في فقه الشافعية ، أصوله وفروعه ، واجتمع كبار الفقهاء، وازدحم الناس يستمعون، وحضر نظام الملك ، فأوردوا على هذا الشاب غرائب المسائل ، فأجاب عنها كلها بنظر دقيق ، واستخراج عجيب ، وأورد عليهم ما لم يستطيعوا له جواباً ، فأقروا له جميعاً بالامامة في المذهب ، وبايعوه على رياسة الشافعية في تلك الديار .

ثم كان اليوم الثاني ، فناظر المتكلمين ، وأنتم تعلمون ان هاتيك الحقبة

كانت العصر الذهبي للكلام ، وان علم الكلام كان يومئذ خلاصة الفلسفة والشريعة ، وكان المطلب الأعلى للعلماء ، وان كان من الواجب عليّ أن أقرر هنا ان أسلوب القرآن في تقرير مسائل التوحيد هو الاسلوب الكامل ، الذي لانحتاج معه الى فلسفة ولا كلام . وكانت مناظرة هائلة ، استمرت ساعات ، وانتهت بالاقرار له بامامة المتكلمين ، وبأنه فذّ منرد نسيج وحده ، لامثيل له في الرجال .

وكان اليوم الثالث موعد المناظرة في الفلسفة اليونانية ، وجاء الفلاسفة الذين قرؤوا كتب أفلاطون وارسطو متعالين شامخين بأنوفهم ، كأنهم يترفعون عن مناظرة هذا الشيخ الفقيه ، الذي لم يقرأ (كما ظنوا) كتب فلاسفة يونان ، ولا شروح فلاسفة الاسلام ، وكانت المناظرة ، فما زالوا يتضاءلون ويصغرون ، حتى رأوا ان هذا الفقيه أعرف منهم بمذاهب الفلسفة وأشد ادراكاً لها ، ولم يخرجوا حتى أقروا له بالتقدم فيها .

واستمرت هذه المناظرة العامة أياماً ، قهر فيها هذا الشاب الخصوم ، وغلب المناظرين ، وأعجب به نظام الملك ، الذي أسس المدارس الجامعة في كثير من بلاد الاسلام في بلخ ونيسابور وهرات واصبهان ومرو والبصرة والموصل ، ولم يفارق مجلسه حتى كتب له مرسوم تعيينه استاذاً في الجامعة النظامية الكبري في بغداد (١) .

ورحل الى بغداد وبغداد حاضرة الارض ودار الخلافة ، فناظر علماءها ، فكان له الغلبة عليهم جميعاً ، وأقروا له جميعاً بالرياسة والتقدم .

* * *

---

(١) وقد ذهبت ومكانها اول الشورجة ومدرسة مرجان الباقية الى اليوم انشئت في جوارها.

تسألوني الآن من هو هذا العالم ، وهل كانت له هذه المزايا كلها أم أنت تبالغ وتتخيل ، ومن أين جاء ؟ وكيف حصّل هذا كله ؟

ثقوا يا سادة اني لا أبالغ ولا أتخيّل ، وانه كان اكبر مما وصفت ، وانه أحد العشرة الكبار جداً من رجال الفكر الاسلامي ، وأحد العشرة الكبار جداً من ارباب القلم ، وهو أقدر من لخّص الفلسفة اليونانية ، وأقدر من ردّ عليها ، أيدها وقواها ، ثم ضربها ضربة لم تقم لها بعده قائمة ابدا . وما قرأها على استاذ ولكن نظر في كتبها بنفسه ، لأنه كان يرى من المهانة لنفسه وللفكر أن يردّ على مذهب او رأي لم يفهمه . فلما فهمها ألف كتابه (مقاصد الفلاسفة) فأقبل الفلاسفة أنفسهم عليه لأنهم رأوا فيه تلخيصاً وفهماً لم يروه في كتبهم ، ثم ألّف كتابه (تهافت الفلاسفة) فكان كالضربة القاضية في الملاكمة ، لايقوم بعدها الخصم . وكانت له ميزة عجيبة هي القدرة على هضم كل فكرة ، وعرضها عرضاً واضحاً مفهوماً ، يجمع بين البيان السهل والتسلسل المنطقي .

* * *

وقد انفرد بأمر لم يكن لسواه ، هو أن حياته قسمان ، قسم للعقل وقسم للقلب ، وكان اماماً في الحالين ، درّس في الجامعة النظامية في بغداد وألّف الكتب العجيبة ، التي كانت ولا تزال مطمح انظار المفكرين والفقهاء ، ثم تجرد للعبادة والتأمل فألّف (الاحياء) الذي كان ولا يزال غاية ما يطلبه المتصوّفة وأرباب القلوب .

هل عرفتم الآن من هو ؟ هو حجة الاسلام الامام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي .

* * *

أما قصة تحصيله دراسته، فقصة عجب اسمعوا طرفاً منها لتدركوا كيف تكوّن الرجلَ العظيم عواملُ تُرونها ضعيفة ، ولتعلموا أنه ربما كان في أولاد العوام ، وفي أبناء الفقراء ، من لو كتب له التعلم والدرس لكان منه عالم كالغزالي ، او شاعر كالمتنبي ، او وزير كنظام الملك، او ملك كالملك الظاهر .

أعود بكم الى نيسابور ، لأقف بكم على دكان صغير ، لرجل عامي صالح يشتغل بالغزْل . رجل لم يكتب له أن يتعلم القراءة ، ولم يكن من العلماء ولكنه أهدى الى الأمة الاسلامية هذا العالم الفذ ، ولولاه لم يكن قط عالماً .

هذا هو محمد بن محمد والد الغزالي .

كان ينتهي من عمله فيدخل المسجد ، فيقف على حلقات الفقهاء مستمعاً . فيأسى على حاله ويبكي على جهله ، ويتمنى لو أن الله جعله فقيهاً ، ولكن ولّى الشباب ومضى العمر ، ولم يبق له في نفسه أمل فهو يأمل بولده ، فيسأل الله من قلب مخلص ، أن يرزقه ولداً فقيهاً ، ثم يقعد في مجالس الوعظ ، فيسأل الله ن يرزقه ولداً واعظاً .

واستجاب الله دعاءه فرزقه ولداً صار من أعظم الفقهاء هو أبو حامد الذي أحدثكم عنه ، وولداً آخر كان من أكبر الوعاظ ، ولولا أن غطّت عليه شهرة أخيه هذا ، لملأ اسمه صحف التاريخ .

ومات الوالد والولدان صغيران ، فتقطع قلبه حسرة على ألاّ يكون قد علمّهما ما فاته من العلم ، وكان له صديق صوفي ، فعهد بهما اليه ، وأوصاه أن ينفق على تعليمهما ، ولو أتى ذلك على كل ما خلّفه لهما من مال .

فكان هذا الوالد أول عامل في تكوين الغزالي العظيم .

والعامل الثاني هو هذا الصوفي ، لقد كان يسعه وقد علّمهما كل ماعنده ، وأنفق عليهما كل ما عندها ، أن يقول لهما : اكتفيا بما حصلتما ثم كونا عاملين كأبيكما او صوفيين مثلي ، واذن لايكون الغزالي ، إلا رجلاً عادياً مغموراً ، وان كان له نبوغ ، كان نبوغه محصوراً في هذه البلدة الضيقة ، وهذه الدائرة الصغيرة ، ولكن هذا الصوفي الذي أجهل اسمه كان رجلا مكشوف البصيرة ، فرأى بفراسة المؤمن ، وهي من نور الله ، ان الولدين خلقا ليكونا عالمين علمين ، وان هذا الدماغ لايمتلىء بما وضع فيه هذا الصوفي من علمه القليل ، فقال لهما :

لقد أنفقت عليكما كل ما كان لكما من مال ، وأنا رجل فقير ليس عندي ما أعينكما به ، وحرام أن تدعا العلم ، فعليكما بمدرسة من هذه المدارس .

وكانت هذه المدارس هي العامل الثالث في تكوين الغزالي .

هذه المدارس التي أدركتم بقاياها في دمشق ، في العمرية في الصالحية التي كانت جامعة حقيقية ذات فروع وأقسام ، وفي المرادية ، وفي البادرائية وغيرها .

هذه المدارس التي بناها الأخيار من الأمراء والأغنياء ، ووقفوا عليها الوقوف الكثيرة وفتحوها لطلاب العلم ، فهي تقدم لهم الفراش والطعام والشراب والكسوة والنفقة ، وتحمل عنهم هموم العيش ، وتفرّغهم لطلب العلم ، وتعلمهم مع العلم ما هو خير من العلم ، وهو التقى والأخلاق ، والعلم بلا تقوى ولا أخلاق شرّ على صاحبه وعلى الناس . الجهل خير منه ! وتعصمهم

من مثيرات الهوى ، ومفاسد الحياة[1] ، والرابع ، الرحلات فقد رحل في طلب العلم كما كان يرحل العلماء ، يقطعون الأيام والليالي مسافرين ، ليأخذوا مسألة اويتلقوا حديثاً ، رحلات خالصة لوجه الله ، ولطلب العلم . لا للتسلية ولا للمتعة والتفرج ، ولا للتجارة والكسب ، وفي احدى هذه الرحلات تلقى درساً كان له في نفسه وفي مستقبله أبلغ الأثر ، درساً لم يتلقه من عالم ولا محدث ولكن من قاطع طريق .

قاطع طريق خرج على القافلة التي كان فيها ، فجردها من كل شيء ، وكان مع الغزالي دفاتره التي يدوّن فيها ما يسمعه ، فجعل يبكي عليها ، ويتوسل الى قاطع الطريق أن يردها ويقول له : أنا لا أبالي بالمال ولا بالثياب ، ولكن تعليقتي ، هي ثمرة كل ما حصّلته ، فقال له متعجباً : وما تعليقتك ؟ قال : دفتر فيه علمي كله .

فضحك قاطع الطريق . وقال له : كيف تقول علمي ، وأنت لا تعلمه ، وان ضاعت تعليقتك ، لم يبق لك منه شيء ؟

ورماها اليه .

قال الغزالي : هذا رجل أنطقه الله ، ليبصّرني في أمري ولما وصل الى البلد حفظ كل ما فيها ، وصار لا يبالي ان ضاعت او سرقت او احترقت والعامل الخامس في تكوينه ، صحبة العالم العظيم امام الحرمين ، فقد لازمه مدة طويلة ، وأخذ منه . وسار اولاً على طريقته ، ثم استقل وشقّ لنفسه

---

(١) وقد عادت الى دمشق هذه المدارس والحمد لله في السنين الاواخر على ايدي نفر من خيار العلماء كالشيخ علي الدقر والشيخ هاشم الخطيب والشيخ حسن حبنكة والشيخ صالح فرفور والشيخ عبد الكريم الرفاعي والشيخ الزنكوسي والشيخ الطيبي والشيخ المجذوب وامثالهم.

طريقة جديدة ، وفاق في المعقولات امام الحرمين وكل من تقدمه وكل من جاء بعده ، وهو لا يزال الى اليوم اكبر أئمة الفكر الاسلامي ، ونحن نقرأ كتبه ، مستفيدين منها ، معجبين بها ، كما استفاد منها وأعجب بها ، رجال عصره ولقد سما العقل خلال هذه القرون الثمانية ، واتسع العلم ، ولكن الغزالي لايزال في القرن الرابع عشر ، كما كان في القرن الخامس ، اماماً يقتدى به ، وعبقريا لاينظر له .

* * *

حياة الغزالي يا أيها السامعون لها صفحتان ، هذه الصفحة العلمية والصفحة الصوفية .

لقد بقي في نفسه أثر من أستاذه الاول ، الرجل الصوفي الذي أوصى اليه به أبوه ، وكان يتنازع قلبه التفكير العلمي الذي هو أثر من امام الحرمين ، وهذا التأمل الصوفي ، ثم غلب عليه التصوف ، فاستقال فجأة من أستاذية الجامعة ، ورحل منقطعاً الى العبادة ، آخذاً نفسه بالزهد والسهر وقلة الطعام ، وما ابتدعه الصوفية من مناهج زعموا أنها هي التي توصل الى الله ، مع أن أقرب الطرق الى الله ، ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه ، وكان يطوف على الترب والمقابر ، ويأوى الى القفار ، ويجاهد نفسه مجاهدة شديدة ليقتل فيها حب الغنى والجاه والملذات ، ومع ذلك لم يقبل على الوعظ لأنه يرى أن الواعظ يجب أن يكون نموذجاً كاملاً لما يدعو اليه ، وأن يتجرد من حب الدنيا ولذائذها ، وحب المال وجمعه ، قبل أن يعظ الناس . وفي هذه الفترة حج ودخل الشام ومصر ، وكانت اكثر اقامته في دمشق ، في الأموي ، في الغرفة

التي يصعد منها الى المنارة الغربية ، والزاوية التي عرفت بعد بزاوية الغزالي وفيها ألّف كتابه العظيم احياء علوم الدين .

ووقعت له في دمشق وقائع عجيبة ، جاءها متنكراً فنزل السميساطية ، وكان يقهر نفسه على تنظيف المراحيض اذلالاً لها ، ويدخل المسجد بزيّ العوام ، وكان ليلة في المسجد فجاء قروي يسأل عن مسألة ، فدلوه على دكة المفتين والعلماء ، فسألهم فلم يعرفوا جوابها ، فدعاه الغزالي فقال ما مسألتك ؟ قال : ان المفتين لم يعرفوا جوابها أفتعرف أنت ؟ قال : هاتها . فألقاها عليه فأجابه الغزالي عنها . فعاد الرجل الى المفتين ، وقال : أنتم لم تعرفوا الجواب وقد عرفه هذا العامي ، وخبرهم بما أجابه به ، فَشُدِهوا وقاموا اليه فقالوا : من أنت ؟ إن لك لشأناً ! واستحلفوه فخبرهم ، فاحتفلوا به وسألوه أن يعقد لهم من الغد مجلساً ، وبحثوا عنه في الغد فلم يجدوه لأنه كان قد هرب في الليل .

ومن وقائعه أنه دخل المدرسة الأمينية مرة (وهي قائمة الآن في سوق الحرير وهي من أقدم المدارس الاسلامية في الدنيا) وكان متخفياً فسمع المدرس يقرأ كتبه ويشرحها فخاف أن تغلبه نفسه فيظهر أمره فهرب ...

ثم عاد الى بلده ، واكرهوه على أن يعود الى التدريس ، فعاد يدرس في الجامعة النظامية في نيسابور ، ولكن بغير النفس الاولى ، إذ كان منصرفاً عن المناظرات ، زاهداً في الجاه ، ثم استقال ، وذهب الى طوس فأنشأ في داره خانقاه (أي تكية) ومدرسة وكان يصرف وقته في العبادة والذكر والتعليم .

حتى مات ميتة تدل على حسن الخاتمة وهو ابن خمس وخمسين سنة فقط .

* * *

هذا هو الغزالي الذي كان أحد أفذاذ المفكرين في العالم كله ، وأحد الكبار من أعلام الاسلام ، وكان عيبه ضعفه في الحديث ، وقد أقبل على روايته في آخر عمره ، ولكن الأجل لم يمهله . وكتاب الأحياء على جلالة قدره مملوء بالأحاديث الموضوعة ، ومن أراد أن يقرأه ، فليرجع معه الى من خرّج أحاديثه كالعراقي . او ليقرأ مختصرة للشيخ جمال الدين القاسمي[1]

وشيء آخر هو أن هذه الروح التي تتجلى في كتاب الأحياء روح الانصراف عن الدنيا ، والميل الى الفقر ليست هي الروح الاسلامية ، إن الروح الاسلامية تتجلى في سيرة الرسول ﷺ وأصحابه .

هذا هو الغزالي ، والفكر الاسلامي من خمسين سنة الى اليوم مطبوع بطابع شيخ الاسلام ابن تيمية ، ولكنه بدأ يعود الى طابع الغزالي كما كان من قبل ، وكلاهما عظيم ولكن الغزالي أعظم في عالم الفكر ، وعالم البيان ، وابن تمية أقرب الى ظواهر الكتاب والسنة ، والى ما كان عليه السلف .

رحمة الله عليهما ، وعلى كل من وضع لبنة في هذا الصرح العظيم ، صرح الفكر الاسلامي .



(١) وخير منه منهاج القاصدين لابن الجوزي ومختصره لابن قدامه الذي طبعه في دمشق الاستاذ دهمان وللغزالي نفسه مختصر للاحياء ولكن فيه عيبي الاحياء ، الاحاديث الموضوعة ، وبعض الصوفيات المخالفة للسنة التي بينها ابن الجوزي في المنهاج وفي تلبيس ابليس .

بقية الخلفاء الراشدين

من العظماء رجال ، لم يكن لهم في غير الخط مجال ، صرفوا اليه هممهم كلها حتى برعوا فيه ، ومرنت ايديهم على صنع المعجب من آثاره ، وخلفوا لنا لوحات لا تقل جمالا عن اخلد الصور الفنية . ومنهم رجال ضربوا في اودية البلاغة ، وسلكوا طرق البيان ، وصاروا أئمة القول ، واعلام الكلام ، وتركوا لنا رسائل ، هي العسل المصفى ، وهي السحر الحلال . ومنهم رجال صرموا حيواتهم ، وامضوا اعمارهم ، في النظر في الأدلة ، وتخريج المسائل ، حتى صاروا سادة الفقهاء وصدور العلماء . ومنهم رجال كانوا ملوكاً عباقرة مصلحين ، بنوا ممالك ، ووطدوا دولا ، وفتحوا في الارض شرعة السماء[1] ، وكان حكمهم خيراً على الناس وبركات . ومنهم رجال كانوا قواداً مظفرين ، كانوا جن الحروب ، ومردة المعامع ، لايخرجون من معركة الا الى معركة اشد منها ، ينتزعون النصر من يد الهلاك ، ويبنون الحياة على أشلاء الموت ، لا يحاربون للقتل ولا للتخريب ولا للاذى ، ولكن ليدافعوا عن الحق والحضارة ، شرَّ من يأبى ان يقوم في الارض صرحُ الحضارة وان يرتفع فيها لواء الحق . ومنهم رجال كانت عظمتهم ان كرهوا العظمة واجتووها ، وزهدوا في الدنيا واستصغروها ، وهانت عليهم بمتعتها ولذتها ، لما طمعوا بلذاذات الآخرة ومتعها ، فأقبلوا على العبادة ، وانسوا

---

(١) الشرعة والشريعة الطريق ، لذلك قلت : (فتحوا) .

بالله ، وتجافت جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، يرجون رحمته ويخافون عذابه ...

. . . وهذا عظيم جمع هذا كله ، فكان خطاطاً ، وكان كاتباً شاعراً ، وكان فقيهاً ، وكان ملكاً عظيماً ، وكان قائداً مظفراً ، وكان زاهداً متعبداً.

حكم الهند كلها ، خمسين سنة ، فأقام فيها العدل ، ونشر الأمن ، وأعز الصالحين ، وقهر الطغاة الجبارين ، وترك آثاراً على الارض ، وآثاراً في الحكم ، وآثاراً في العقول : ملأ الهند مساجد ومشافي ومارستانات ، وملاجيء للعاجزين ، ومدارس للمتعلمين ، وسن في أساليب الحكم سنن الخير ، فنظم القضاء ، وأصلح قوانين الضرائب ، وترك للعلماء كتاباً من اجل كتب الفقه الاسلامي ، هو السلطان عالمكير [1] ، اورانك زيب بن شاهجان بن جهانكير ابن الامبراطور اكبر ، حفيد تيمورلنك .

نحن الآن في الهند ، في القارة التي حكمناها الف سنة ، في الدنيا التي كانت لنا وحدنا ، وكنا نحن سادتها ، في (الفردوس الاسلامي المفقود) حقاً ، ولئن كانت لنا في اسبانيا اندلس فيها عشرون مليوناً ، فلقد كان لنا ها هنا اندلس اكبر ، فيها اليوم اربعمئة مليون - خمس سكان الارض ، ولئن تركنا في الاندلس من بقايا شهدائنا ، ودماء أبطالنا ، ولئن خلفنا فيها مسجد قرطبة والحمراء ، فان لنا في كل شبر من هذه القارة دماً زكياً ارقناه ، وحضارة خيرة وشيت جنباتها ، وطرزت حواشيها ، بالعلم والعدل والمكرمات والبطولات ، وان لنا فيها معاهد ومدارس ، كم انارت عقولا ، وفتحت للحق قلوباً ، ولا تزال تفتح القلوب ، وتنير العقول ، وان لنا فيها آثاراً تفوق بجمالها وجلالها الحمراء ، وحسبكم (تاج محل) اجمل بناء علا ظهر الارض .

---

(١) اي زمام العالم او قائد العالم . (٢) اي زينة الملك .

ولو كنتم تعرفون من تاريخ المسلمين في الهند ، ولو مثل القليل الذي تعرفون من تاريخهم في الشام ومصر ، لدخلت الآن في الحديث عن اورانك زيب ، ولكنكم لا تعرفون مع الاسف تاريخ الهند ، ولا اجد بداً من ان امهدلهذا الحديث ، بشيء من التاريخ :

لقد مرت بالهند اربعة عهود اسلامية ، عهد الفتح العربي ، ثم عهد الفتح الافغاني ، ثم عهد المماليك ، ثم عهدالمغول .

كان اول من حمل الى الهند لواء الاسلام ، محمد بن القاسم الثقفي ، القائد الشاب الذي هجر منازل قومه في الطائف ، ومشى الى العراق في ركاب ابن عمه الحجاج ، الذي ظلم كثيراً وقسا كثيراً ، وكانت له هَنات غير هيّنات ، ولكنه هو الذي ابقى لنا العراقيْن وفتح لنا المشرق كله والسند ، فبعث المهلب العظيم حتى أطفأ نار الحرب الاهلية التي ضرمها الخوارج ، وأرسل قتيبة العظيم حتى فتح سمرقند وبخارى وتركستان ، واوفد ابن عمه محمداً العظيم حتى فتح السند .

ولولا الايمان الذي يصنع العجائب ، ولولا الهمم الكبار التي تزيح الجبال ، ولولا البطولة التي وضعها محمد ﷺ في قلوب العرب ، لما استطاع هذا الجيش ان يقطع خمس محيط كرة الارض ، وهو ماش على الاقدام ، اومعتل ظهور الابل والدواب ، ماعرف قطاراً ولا سيارة ، ولا رأى على متن الجو طيارة ، ولما وضع ابن القاسم الحجر الاول في هذا الصرح الهائل ، وادخل الشعاعة الاولى من هذه الشمس التي اشرقت في مكة الى هذه القارة ، وفتح السند ولم تبلغ سنه سن تلاميذ البكالوريا !

وعاد اليها لواء الاسلام مرة ثانية في القرن الرابع ، عادبالفتح على يد السلطان العظيم محمود الغزنوي ، الذي خرج من غزنة وكانت قصبة بلاد

الأفغان ، وهي الى الجنوب من كابل ، فاخترق ممر خيبر ، المضيق المهول الذي يشق تلك الجبال الشاهقة شقاً ، والذي تجزع ان تسلكه من وعورته ووحشته اسد الفلا ، وجن الليالي السود ، ثم دخل الهند ، وخاض عشرات من المعامع الحمر ، التي يرقص فيها الموت ، ويشتعل الدم ، واجتمع عليه امراء الهند واقيالها جميعاً ، فطحن أبطالهم ومزق جيوشهم ، ومضى حتى جاب البنجاب ، واستجابت له هاتيك البلاد ، فأقام فيها حكم الله ، وأذاق أهلها عدالة الاسلام .

وجاء من هذا الطريق بعد اكثر من قرن ، السلطان شهاب الدين الغوري ، فوصل من هذا الفتح ما كان منقطعاً ، واكمل منه من كان ناقصاً ، وملك شمالي الهند ، وبلغت جيوشه دهلي فأوقدت فيها منار الدعوة الاسلامية ، فضوأت بعد الظلمة ، وابصرت بعد العمى ، ودوى في أرجائها الصوت الذي خرج من بطن مكة ، صوت المؤذن ينادي في قلب الهند ذات الأرباب والآلهة والأصنام ، ان خابت آلهتكم ، وهوت أصنامكم ، انما هو اله واحد : لا اله الا الله محمد رسول الله .

وقامت في الهند حكومة اسلامية قرارتها دهلي .

وبينما كان قطب الدين ايبك قائد السلطان الغوري يفتح المدن بسيفه ، كان الشيخ معين الدين الجشتي يفتح القلوب بدعوته ، فدخل الناس في الاسلام افواجاً ، وكان هذا الفتح ابقى واخلد ، وكان منه اليوم ثمانون مليوناً من المسلمين في باكستان ، وأربعون مليوناً غيرهم في هندستان [١] ، وسيبقى الاسلام في تلك الديار الى آخر الزمان .

---

(١) هم على شر حال اليوم من الجهل فيهم واهمال الحكام لهم . والامل في جماعة التبليغ وفي جماعة المودودي وفي الجامعات والمدارس كجامعة ديوبند ودار العلوم لندوة العلماء في لكنو ، وهي خير مدارس الهند منهجاً ومسلكا .

وولي الملك بعد السلطان الغوري قائده قطب الدين ، الذي فتح دهلي وبدأ به عهد المماليك ، وكان منهم ملوك عظام حقاً ، منهم قطب الدين هذا باني منارة قطب[1] (قطب مينار) التي يقف اليوم امام عظمتها كل سائح يرد دهلي ، وشمس الدين الالتمش وغياث الدين بَلَبَان .

ثم جاء الخَلَج وكان منهم الملك العظيم علاء الدين الخلجي الذي عدل في الناس ، وضبط البلاد ، وبسط الامن ، واوغل في الهند .

وجاء من بعدهم آل تُغْلق ، وكان منهم الملك الصالح المصلح فيروز ، ثم جاء اللودهيون ، وكان في أحمد آباد ملوك ذكروا الناس بالخلفاء الراشدين كمظفر الدين الحليم الكجراتي[2] .

وكان للعلماء في دولة المماليك دولة اكبر منها ، وكان لهم سلطان اكبر من سلطان الملوك ، ولقد روى أخونا أبو الحسن علي الحسني الندوي ، أن السلطان شمس الدين الالتمش الذي دانت له البلاد كلها (وكان في القرن السابع الهجري) وخضع له ملوك الهند جميعاً ، كان يستأذن على الشيخ باختيار الكعكي فيدخل زاويته ويسلم عليه تسليم المملوك على الملك ، ولا يزال يكبس رجليه ويخدمه ويذرف الدموع على قدميه ، حتى يدعو له الشيخ ويأمره بالانصراف .

وان علاء الدين الخلجي اكبر ملوك الهند في زمانه استأذن الشيخ الدهلوي في أن يزوره فلم يأذن له الشيخ .

ولما مرض الشيخ الدوله آبادي المفسر وأشرف على الموت عاده السلطان ابراهيم الشرقي ، ودعا عند رأسه أن يكون هو (أي السلطان) فداءه من الموت .

---

(١) وقدمر ذكرها في حديث الملك الظاهر . (٢) وسيأتي حديثه

وكانت زاوية نظام الدين البدايوني ، أحفل بالقصاد ، وأزخر بالناس من قصر الملك ، وكان سلطانه الروحي أعظم من سلطان الملك المادي .

كان ذلك يا سادة ، لما تجرد هؤلاء العلماء من أثواب المطامع والرغبات ، وزهدوا بما في ايدي الملوك ، فسعى الى ابوابهم الملوك ، ونزعوا حب الدنيا من قلوبهم ، فألقت بنفسها على أقدامهم الدنيا .

وفي عهد السلطان ابراهيم اللودهي سنة ٩٣٣ هـ جاء بابر حفيد تيمورلنك من كابل وكسر جيوش اللودهي وكانت مئة ألف ، باثني عشر ألفاً من فرسان المغول المسلمين ، وأسس دولة المغول التي كانت اكبر الدول الاسلامية في الهند ، وكان من ملوكها ، الملك الصالح الذي أحدثكم عنه : اورانك زيب .

ولما مات بابر ، وولي ابنه همايون ، وثب عليه رجل عصامي لم يكن من بيت الملك ولكن كانت له همم الملوك ، فانتزع البلاد منه وأقام دولة كانت نادرة في الدول ، ونظم الادارة والمالية والجيش تنظيماً لم يسبق الى مثله ، هو السلطان شيرشاه (١) السوري ، ولما مات عاد الملك الى ابن همايون ، وهو الامبراطور اكبر وكان من اعاظم الملوك ، حكم الهند كلها إلا قليلا ، وطال حكمه فكفر في آخر أيامه بالله ، واكره الناس على الكفر ، وابتدع لهم ديناً جديداً ، وأزال معالم الاسلام ، وابطل شعائره (٢) ، وكان معه الجيش ، وكان معه الامراء ، وكانت البلاد كلها في يده ، فمن يقوم في وجهه ، ومن ينصر الاسلام ، ومن يدافع عن الدين ؟

---

(١) شيرشاه أي الملك الاسد ، او ملك الاسود .

(٢) ولذلك يعظمه المؤرخون من أعداء الاسلام من الغربيين ومن يقلدهم منا بلا علم ولا فهم .

لقد قام بذلك شيخ ضعيف الجسم، قليل المال والجاه والاعوان ولكنه قوي الايمان بالله ، كبير النفس والقلب ، قد استصغر الدنيا فهو لا يحفل بكل مافيها من مال ومناصب ولذائذ ، واستهان بالحياة فهو لا يبالي على أي جنب كان في الله مصرعه ، هو الشيخ احمد السرهندي .

ولم يكن يطمع باصلاح الامبراطور ، ولا يجد فيه أملاً ، فجعل يتصل بالقوادالصغار ، وبالحاشية ، ويعد "لانقلاب شامل ، لالانقلاب عسكري ثوري بل لانقلاب روحي فكري ، وكان يرسل الرسائل تلتهب بالحماسة الدينية والعاطفة والايمان . ولما مات اكبر وولى ابنه جهان كير (اي قائد الدنيا) استطاع الشيخ محمد معصوم السرهندي ابن الشيخ السرهندي ان يشرف على تربية طفل صغير ، هو احد حفدة جهانكير .

ولم يكن هذا الطفل كبير اخوته ، ولا كان ولي العهد ، ولم يكن يُؤمل له أن يلي الملك ، ولكن الشيخ وضع في تربيته جهده ، وبذل له رعايته كلها ، فنشأ نشأة طالب في مدرسة دينية داخلية ، بين المشايخ والمدرسين ، فقرأ القرآن وجوّده ، والفقه الحنفي وبرع فيه ، والخط واتقنه ، والمّ بعلوم عصره ، وربي مع ذلك على الفروسية ، ودرب على القتال . ولما مات جهانكير ، وولي شاه جهان ، ولى كلا من ابنائه قطراً من أقطار الهند ، وكان نصيب هذا الطفل وهو (أورانك زيب) ولاية الدكن .

وكان لشاهجهان زوجة لا نظير لحسنها في الحسن ، ولا مثيل لحبه اياها في الحب ، هي (ممتاز محل) ، فماتت ، فرثاها ولكن لا بقصيدة من الشعر ، وخلدها ولكن لا بصورة ولا تمثال ، لقدرثاها فخلدها بقطعة فنية من الرخام ما قال شاعر قصيدة اشعر منها ، فهي شعر ، وهي اغنية ، وهي صورة ، وهي أعظم تحفة في فن العمران .

هي تاج محل ، هذا البناء العجيب الذي ادهش بجماله الدنيا ، وما زال يدهشها ، والذي لانَ فيه الرخام لهذه الايدي العبقرية فجعلت منه اجمل بناء شيد على ظهر هذه الارض بلا خلاف ، ونقشته هذا النقش الذي لم يعرف قط نقش في مثل دقته وفنه وسحره .

هذا القبر الذي يأتي اليوم السياح ، من اقصى اميركا الى (اكرا) قرب دهلي ليشاهدوه ، ويسمعوا قصته ، وهي اعظم قصص الحب على الاطلاق . لقد صدع موت هذه الزوجة الحبيبة الامبراطور العظيم ، فزهد في دنياه لانها كانت هي دنياه ، وحقَّر ملك الهند لانها كانت اعظم عنده من ملك الهند ، ولم يعد له أرب بعدها الا ان يتملَّص من حاضره ، ويوغل بذكرياته في مسارب الماضي ، ليعيش بخياله معها ، يستروح رياها ، ويستجلي جمالها ، ويسمع خفي نجواها ، ويحس حرارة انفاسها ، ثم استحال حبه اياها حباً لهذا القبر الذي شاده لها ، فجن به جنوناً ، وصار يحس في برودته حرارتها ، وفي جموده خطراتها ، وفي صمته حديثها ، وانصرف عن الملك واهمله ، فوثب ابنه الاكبر فولي الملك الا اسمه ، وتصرف بالأمر وحده ، ونازعه اخوته ، وجاء كل من امارته : شجاع من البنغال ، ومراد بخش (اي مراد الله) من الكجرات ، واورانك زيب هذا من الدكن ، واستطاع ان يغلبهم جميعاً ، وينفرد بالامر ، ووضع اباه في قصر من قصور الملك ، جعل له فيه ما يشتهيه من الفرش والطعام واللباس والحاشية والجواري ، وجعل له حيال سريره مرآة اقيمت على صناعة عجيبة لا تزال تدهش السياح ، يرى منها (تاج محل) على البعد ، وهو مضطجع في سريره كأنه امامه . وكان ذلك كل ما بقي له من لذائذ دنياه !

وكان جلوسه على سرير الملك سنة ١٠٦٨ هـ (قبل ثلاثمئة سنة) وكأني

بكم تظنون أن هذا الملك الذي ربي بين كتب الفقه وأوراد النقشبندية ، سيدخل خلوته ، ويعمل من قصره مدرسة أوتكية ، يصلي ويقرأ في كتب الفقه ، ويسيب أمور الدنيا ويهملها زاهداً فيها ، كلا ياسادة ، وما هذه خلائق الاسلام ، ولاهذي طريقته ، إن العمل لاسعاد الناس ، وإقامة العدل ، ورفع الظلم ، وجهاد الكافرين المفسدين في الأرض ، كل ذلك صلاة كالصلاة في المحراب ، بل هو خير من صلاة النفل ، وصوم التطوع ، وعدل ساعة أفضل من عبادة أربعين سنة .

لذلك ترونه قد لبس لأمة الحرب من أول يوم (وكان يومئذ في الأربعين) ونهض بنفسه ، يقضي على الخارجين ، ويقمع المتمردين ، ويفتح البلاد ، ويقرر العدالة والأمن في الأرض ، ومازال ينتقل من معركة يخوضها إلى معركة ، ومن بلد يصلحه إلى بلد ، حتى امتد سلطانه من سفوح حمالايا ، إلى سيف البحر من جنوب الهند ، وكاد يملك الهند كلها ، حتى قضى شهيداً في سبيل الله في أقصى الجنوب بعيداً عن عاصمته بأكثر من ألف وخمسمئة كيل .

ومن خاض هذه المعارك ، استنفدت وقته كله ، ولم تدع له بقية لاصلاح في الداخل ، أو نظر في أمور الناس ، ولكن أورانكزيب ، حقق مع ذلك من الاصلاح الداخلي ما لم يحقق مثله إلا قليل من الملوك .

كان ينظر في شؤون الرعية من أدنى بلاده إلى أقصاها ، بمثل عين العقاب ، كما كان يبطش بالمفسدين بمثل كف الأسد ، فأسكن كل نأمة فساد ، وأقر كل بادرة اضطراب ، ثم أخذ بالاصلاح فأزال ما كان باقياً من الزندقة التي جاء بها (أكبر) أبو جده ، وكانت الضرائب الظالمة ترهق الناس ولاينال أمراء المجوس لفح من نارها ، فأبطل منها ثمانين نوعاً ، وسن للضرائب سنة عادلة ، وأوجبها على الجميع ، فكان هو أول من أخذها من هؤلاء الأمراء ، ولولا هيبته

ولولا شدته في الحق لأبوها عليه ، وأصلح الطرق القديمة ، وشق طرقاً جديدة ، ويكفي لتدركوا طول الطرق في الهند أن تعرفوا أن طريقاً واحداً مما كان فتحه شيرشاه السوري ، كان يمشي فيه المسافر ثلاثة أشهر ، وكانت تحف به الأشجار من الجانبين على طوله وتتعاقب فيه المساجد والخانات !

وبنى المساجد في أقطار الهند ، وأقام لها الأئمة والمدرسين ، وأسس دوراً للعجزة ، ومارستانات المجانين ، ومستشفيات للمرضى .

وأقام العدل في الناس جميعاً ، فلا يكبر أحد عن أن ينفذ فيه حكم القضاء ، وكان أول من جعل للقضاء قانوناً ، فكان يحكم في القضايا الكبرى بنفسه لا حكماً كيفياً بل حكماً بالمذهب الحنفي مع الاله مد للا عليه ، ونصب القضاة للناس في كل بلدة وقرية ، وكان للأمبراطور امتيازات فألغاها كلها ، وجعل نفسه تابعاً للمحاكم العادية ، ولمن له عليه حق أن يقاضيه به أمام القاضي مع السوقة والسواد من الناس .

وكان الرجل عالماً ، فقيهاً بارعاً في الفقه الحنفي ، فأدنى العلماء ولازمهم ، وجعلهم خاصته ومستشاريه ، وبنى لهم المدارس ، وجعل لهم الرواتب .

ووفق إلى أمرين ، لم يسبقه اليهما أحد من ملوك المسلمين .

الاول : أنه لم يكن يعطي عالماً عطية أو راتباً إلا طالبه بعمل ، بتأليف أو تدريس ، لئلا يأخذ المال ويتكاسل ، فيكون قد جمع بين السيئتين ، أخذ المال بلا حق ، وكتمان العلم - فما قول مدرسي الافتاء والأوقاف في الشام ؟

والثاني أنه أول من عمل على تدوين الأحكام الشرعية ، في كتاب واحد ، يتخذ قانوناً ، فوضعت له (وبأمره وبإشرافه ونظره) الفتاوى التي نسبت اليه فسميت الفتاوى العالمكيرية ، واشتهرت بالفتاوى الهندية ، ويعرفها كل من يقرأ هذا المقال من العلماء لأنها من أشهر كتب الاحكام في الفقه الاسلامي ، وأجودها ترتيباً وتصنيفاً .

وكان – بعد ذلك كله – يؤلف ، ألف كتاباً في الحديث وشرحه وترجمه إلى الفارسية ، ويكتب الرسائل البليغة ، التي تعد في لسانهم من روائع البيان ، ويكتب بخطه المصاحف ويبيعها ليعيش بثمنها لما زهد في أموال المسلمين وترك الأخذ منها ، وحفظ القرآن بعد أن ولي الملك ، وكان شاعراً موسيقياً ، ولكنه ترك ذلك ، وكرهه ، وأبطل ما كان للشعراء والموسيقيين من هبات وعطايا ،ولم يكن يراهم لازمين لأمة لاتزال تبني في الأرض صرح مجدها .

وكان يصلي الفرائض في اول وقتها مع الجماعة لايترك ذلك بحال ، والجمعة في المسجد الكبير ولو كان غائباً عن المصر لامر من الامور ، يأتيه يوم الخميس ليصلي الجمعة ثم يذهب حيث شاء ، وكان يصوم رمضان مهما اشتد الحر ، وما ادراكهم ماحر الهند ؟ ويحيي الليالي بالتراويح ، ويعتكف في العشر الاواخر من رمضان في المسجد ، ويصوم الاثنين والخميس والجمعة ، في كل اسبوع من اسابيع السنة ، ويداوم على الطهارة بالوضوء ويحافظ على الاذكار ، ويمد اهل الحرمين بالصلات المتكررة الدائمة .

وكان مع ذلك آية في الحزم والعزم ، والبراعة في فنون الحرب ، وفي التنظيم الاداري . فكيف استطاع ان يجمع هذا كله ؟

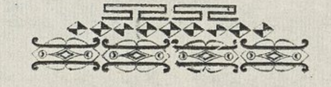
كيف قدر ان يتعبد هذه العبادة ؟ ويقضي بين الناس ؟ ويؤلف في العلم ؟ ويكتب المصاحف ؟ ويحفظ القرآن ؟ ويدير هذه القارة الهائلة ؟ ويخوض هذه المعارك الكثيرة ؟

لقد كان يقسم بين ذلك أوقاته ، ويعيش حياة مرتبة ، فوقت لنفسه ، ووقت لأهله ، ووقت لربه ، وللادارة والقتال والقضاء اوقاتها .

حكم الهند كلها خمسين سنة كوامل ، وكان أعظم ملوك الدنيـــا في عصره ، وكانت بيده مفاتيح الكنوز ، وكان يعيش عيش الزهد والفقر ، ما مد يده ولا عينه الى حرام ، ولا ادخله بطنه ، ولا كشف له ازاره ، وكان يمر عليه رمضان كله لا يأكل الا ارغفة معدودة من خبز الشعير ، من كسب يمينه من كتابة المصاحف لا من أموال الدولة !

هذا هو الملك الذي قلت انه كان بقيـــة الخلفاء الراشدين توفي في مثل هذا الشهر من سنة ١١١٨ هـ وما رأى الناس بعده وقلما رأوا قبله مثله .

رحمة الله على روحه الطاهرة .



الملك الصالح

وهذه سيرة عظيم آخر لاتعرفونه ، وما اكثر من لا تعرفون من عظماء الاسلام ، ملك آخر كان في سيرته واعماله مثلا مضروبا لما ينبغي ان يكون عليه الملك المسلم ، حلقة من هذه السلسلة الذهبية التي ضمّت حلقاتها سير ابي بكر وعمر ، وعثمان وعلي ، وابن عبدالعزيز ، ونور الدين وصلاح الدين ، واورنك زيب ، هو الملك الحليم مظفر بن محمود ، من ملوك احمد آباد في الهند .

وكانت احمد آباد حاضرة الهند ، ومدينة المدائن ، فاقت البلدان ببساتينها وحدائقها ، وحسن نظامها ، وعظيم عمرانها ، وفاقتها بأمنها وسلامها ، واقامة العدل فيها ، وفاقتها بكثرة علمائها ومحدثيها ، والصالحين من أهلها .

ولد يوم الخميس ٢٠ شوال سنة ٨٧٥ هـ في الكجرات ، ونشأ نشأة عالم عابد ، في اسرة اكثر ملوكها صالحون متعبدون ، وقرأ ما كان معروفاً من كتب العلم ، وبرع في الحديث ، وكان قد تلقاه عن المحدث جمال الدين المبارك الحميري الحضرمي ، ومجد الدين الايجي ، وشارك في العلوم والفنون كلها حتى الموسيقى ، وكان خطاطاً جيد الخط ، يتقن النسخ والثلث وخط الرقاع المعروف اليوم بالرقعي . وكان يكتب المصحف بيده ويبعث به الى الحرمين وحفظ القرآن في شبابه .

ومارس السيف والرمح والرمي ، والفروسية والمصارعة ، واتقن الفنون الحربية ، وكانت نشأته صورة عن نشأة اورنك زيب التي حدثتكم عنها ،

أو أن تلك على الصحيح صورة عن هذي ، لان اورانك زيب جاء بعده باكثر من قرن ونصف القرن .

وكذلك ترون ان في الهند المسلمة ، التي تجهلون تاريخها-كما كنت أجهله قبل أن أرحل اليها ملوكاً في ثياب فقهاء وعلماء ومحدثين ، رجالاً جمعوا الدنيا والدين ، والعلم والعمل ، ونحن لا نكاد نجد في تاريخ بلادنا ، بعد عمر بن عبد العزيز-الذي كان العلماء امامه تلامذة- الا قليلاممن جمع ، العلم والسلطان الذي سخّره للعمل بهذا العلم .

وكان أسلافه كلهم على هذا الطريق ولكنه فاق أسلافه .

ولي الملك ٣ رمضان سنة ٩١٧ وهو في الثانية بعد الاربعين ، وحكم الى ان توفي في ٢ جمادى الاول ٩٣٢ ، فكانت مدة سلطانه خمس عشرة سنة ، مرت على الناس مما رأوا فيها من عدله وسخائه ، وحزمه وتقواه ، كأنها خمسة عشر يوماً .

وكان يتبع السنّة ، ويعمل بما حفظ من الاحاديث الصحيحة ، في كل صغيرة وكبيرة ، من أمور نفسه وأهله وأمور الرعية ، ويدني العلماء ويصحبهم ويكرمهم ويرجع اليهم ، ولم يكن يحسن الظن بمشايخ الطرق ، ثم مال اليهم بعض الميل في اواخر ايامه ، وكان يخاف الله ، ويخشى ان يكون قد جانب الشرع ، وكان كثير الانفاق في الخير ، فسأل العلامة خرم خان وكانت له ثقه به ، وقال له : لقد نظرت فيما انفقه فإذا انابين افراط في صرف هذا المال ، وهو مال المسلمين ، وتفريط في منعه أهله ، فإذا سألني ربي عن ذلك فبماذا اجيب ؟

خبروني يا سادة ، كم من العلماء والزهاد والصالحين ،من يفكر في مثل هذا الذي كان يفكر فيه ويسأل عنه هذا الملِك ؟

وكان يحافظ علي الوضوء ابداً،على صلاة الجماعة ، ولم يقرب الخمر قط ، ولم

يقع لسانه قط في عرض أحـــد ، وكان يعفو ويسامح ، ويعطى ويجتنب الاسراف والتبذير . وكان مطلعاً على اخبار النـاس ، يقوم بما دقّ وجلّ من شؤون الـُملك بنفسه . وربما غير زيه ، وخرج من القصر ليلاً ونهاراً ، يخالـط الناس وهم لا يعرفونه ، ويسمع ويرى ويطلع على ما يسيئون فيه ، ومـــا يشكون منه ، وكان يحيط المـــمالك المجاورة له ، لا سيما الهندية المجوسية ، بشباك من جواسيسه وعيونه ، فلا تخفي عنه خافية من أمورهم .

وكان في الحرب قائداً عبقريا ، وان لم يكن يميل الى خوض الحروب ، ولما استنجد به السلطان محمود الخلجي ، وجاءه مستجيراً به ، وقد غلبه المجوس على دياره ، واحتلوا عاصمته وفيها أهله وأمواله ، خرج ينجده بجيش ضخم ، فخدعه العدو ، وعرض عليه تسليم القلعة وماطله حتى جاءه القـــائد الهندي الاشهر (رانكا سانـكا) منجداً ، وكاد السلطان يسقط بين حجري الرحى ، ويحيط به العدو من الجانبين ، فإذا هو بحيلة حربية بارعة ، وشجـاعة نادرة ، يفتح القلعة ، ويدحر الجيشين المعادين ، ويكون له النصر الأبلج .

ولما وصل الى بابها ، لم يدخلها بل التفت الى السلطان الخَلْجي وهنأه بالفتح ، وقال : باسم الله ، ادخلوها بسلام آمنين . وعطف عنان فرسه راجعاً ، ولكن الخلجي لم يدعه حتى ادخله قبله ، وقدم اليه أولاده الذين استنقذوا به من الاسر ، وأراه آثار آبائه ، ومعالم بلاده ، ثم دعا وجوه مملكته ، وقواد جيشه ، وقال للسلطان المظفر على ملأ منهم جميعاً : الحمد لله الذي أراني بهمتك مـــا كنت اتمناه ، ولم يبق لي الآن أرب بالملك وأنت أحقّ به مني .

قال المظفر : ان اول خطوة خطوتها الى هذه الجهة كانت لله ، لا لقصد الملك ، والله يبارك لك في ملكك على ان تقيم فيه حكم الله ، وتحكم بشرعه ، وان نكون يداً واحدة في كل أمر . قال الخلجي : لقد خلا ملكي من الرجال ،

وليس لدي جيش يحميه ولا آمن عودة العدو . قال المظفر : اما هذه فنعم . وترك عنده قائده آصف خان باثني عشر الفاً ، وقال لهم : ان جرايتكم على حالها ، ورواتبكم ونفقاتكم كلها عليّ كما كانت من قبل ، وما اعطاكم الخلجي من شيء فهو توسعة عليكم . وأمر للخلجي بخزانة مال .

ولما همّ بالرحيل . سأله أركان دولته ان يستأثر بالقلعة ، ويضمها الى ملكه ، فالتفت الى الخلجي وقال له : احفظ باب القلعة برجالك ، ولا تدع احداً يدخلها بعد نزولي ، ولو كان من اصحابي وأولادي .

واخذه الخلجي ، قبل الوداع الى دار مغلقة ففتحها له ، فبرز منها نساء ما رأت العين مثلهن ، فنثرن الزهر والجوهر على قدميه ، فغضّ بصره وأشار اليهن ان يحتجبن ، لأن النظر الى الأجنبية حرام . قال الخلجي : كلهن ملكي وأنا مالكُكَ والعبد وما ملك لمولاه . فدعا له ، وخرج ولم ينظر الى واحدة منهن .

والعجيب حقاً في هذه القصة المملوءه بالعجائب ، ان الخلجي هذا وآباءه كانوا أعداء دولة الكجرات وألدّ خصومها ، واعجب منه ان والد الخلجي هذا ، المسمى غياث الدين الخلجي ،كان قد خرج الى الكجرات لنصرة كفار الهند على ملوكها المسلمين !

* * *

وكان من دأب الملوك المسلمين (ياساده) اذا عنوا ببلادهم ، واصلحوا أمرها ، ان يعنوا بالبلد الذي هو بلد كل مسلم ، بالحرمين ، فيقفوا عليها الأوقاف ، ويرسلوا اليها المدد ، وكانت امدادات المظفر لاهل الحرمين متصلة وقد صنع مركباً شحنه باثمن القماش وارسله هدية هو وما فيه الى جُدّة ،وبنى

بمكة رباطا فيه مدرسة وسبيل ومساكن ، ووقف عليه وقفاً كبيراً ، وكانت له في كل موسم صلات ضخمة يبعث بها اليهم .

* * *

وكان خبر موته خبراً عجيباً ، يدل على حسن الخاتمة ، وعلى انـه (ان شاء الله) من اهل الجنة ، وانا اروي الخبر ، كما جاء في كتاب (نزهة الخواطر) للعلامة الطبيب الحاذق مؤرخ الهند المسلمة عبد الحي الحسني ، والد الصديـق الجليل الاستاذ ابي الحسن الندوي نقلاً عن الآصفي . قال :

قال الآصفي وفي سنة احدى وثلاثين وتسعمئة ، خرج السلطان الى مصلى العيد للاستسقاء ، وتصدق وتفقد ذوي الحاجة على طبقاتهم ، وسألهـم الدعاء ، ثم تقدم للصلاة ، وكان آخر ما دعا به ان قال : اللهم اني عبدك ولا املك لنفسي شيئاً ، فان تك ذنوبي حبست القطر فها ناصيتي بيدك فاغثنـا يا ارحم الراحمين. قال هذا ووضع جبهته على الأرض ، واستمر ساجدا ، يكرر قوله يا أرحم الراحمين ، فما رفع رأسه الا وقدهاجت ريح ، ونشأت سحابة ببرق ورعد ومطر ، ثم سجد لله شكراً ، ورجع من صلاته بدعاء الخلـق له ، وهو يتصدق وينفح بيده بالمال يميناً وشمالاً ؛

وبعد الاستسقاء بقليل اعتراه الكسل ، ثم ضعف المعدة ....

وفي خلال ذلك عقد مجلسا ، حافلا بسادة الأمة ، ومشايخ الدين ، واجتمع بهم ، وتذاكروا فيما يصلح بلاغا للآخرة ، الى ان تسلسل الحديث في رحمـة الله سبحانه ، وما اقتضاه منّه واحسانه ، فأخذ يشرح مامن الله عليه به من حسنة ونعمة ، ويعترف بعجز شكرها ، الى ان قال : ومامن حديث رويته عـن استاذي المسند العالي مجد الدين ، بروايته له عن مشايخه ، الا واحفظه وأسنده ،

واعرف لراويه نسبته وثقته ، واوائل حاله ، الى وفاته ، وما من آية الا ومن الله عليّ بحفظها ، وفهم تأويلها ، واسباب نزولها ، وعلم قراءتها ، واما الفقه فاستحضر منه ماارجو به مفهوم من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، ولي مدة اشهر اصرف وقتي باستعمال ما عليه صالحو الصوفية ، واشتغل بما سنّه المشايخ الواقفون على حدود الشرع منهم ، لتزكية الأنفاس عملا بما قيل من تشبه بقوم فهو منهم ، وكنت شرعت بقراءة معالم التنزيل وقد قاربت اتمامه الا اني ارجو ان اختمه في الجنة ان شاء الله تعالى ، فلا تنسوني من صالح دعائكم فأني اجد أعضائي فقدت قواها ، فدعا له الحاضرون بالبركة في العمر ؛

قال وفي سنة ٩٣٢ عند خروجه من جانبانير ظهرت منه مخايل المستودع بفراق الابد لها ولاهلها ، واكثر من اعمال البر فيها ، وفي طريقه الى احمد آباد ولما نزل بها كان يكثر من الخير بها .

وفي أواخر أيامه وكان يوم الجمعة قام الى القصر واضطجع الى ان زالت الشمس ، فاستدعى بالماء وتوضأ وصلى ركعتي الوضوء ، وقام من مصلاه الى بيت الحرم ، واجتمعت النسوة عليه ، آيسات باكيات يندبن انفسهن ، حزناً على فراق لا اجتماع بعده ، فأمرهن بالصبر المؤذن بالأجر ، وفرق عليهن مالاً ، ثم ودعهن واستودعهن الله سبحانه ، وخرج وجلس ساعة ، ثم استدنى منه راجه محمّد حسين المخاطب بأشجع الملك ، وقال له : قد رفع الله قدرك بالعلم ، اريد ان تحضر وفاتي وتقرأ عليّ سورة ياسين وتغسلني بيدك ، وتسامحني فيه ، فاثنى عليه بما هو اهله وفدّاه ودعا له ، وسمع اذاناً فقال : أهو في الوقت ؟ فأجاب اسد الملك : هذا اذان الاستدعاء لاستعداد صلاة الجمعة ويكون في الهند عادةً قبل الوقت ، فقال : اما صلاة الظهر فاصليها عندكم واما صلاة العصر

فعند ربي في الجنة ان شاء الله تعالى ، ثم اذن للحاضرين في صلاة الجمعة ، وطلب مصلاّه وصلّى ودعا الله سبحانه ، بوجه مقبل عليه ، وقلب منيب اليه ، دعاء من هو مفارق للقصر ، مشرف على القبر ثم كان آخر دعائه : رَبِّ آتيتني من المُلك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والارض انت وليي في الدُّنيا والآخرة توفني مسلماً والحقني بالصالحين ، وقام من مصلاّه وهو يقول استودعكم الله واضطجع على سريره وهو مجتمع الحواس ، ووجهه الى القبلة وقال : لا اله الا الله محمّد رسول الله . وفاضت روحه والخطيب على المنبر يدعو له .

رحمه الله واوسع له في دار النعيم المقيم .



شيخ من دمشق

- ١ -

هذه هي قصة شيخ من دمشق ، شيخ قال عنه السبكي : إنه لم ير مثله الناس ، ولم ير هو مثل نفسه .

شيخ لم يكد يرى تاريخ الاسلام في كل عصوره عشرين من أمثاله .

شيخ كان مفكراً كأحسن مايكون المفكرون ، وكان فقيهاً : فقيه النفس لافقيه الحفظ . وكان له في الشريعة النظر الواسع المحيط بأسرارها ، الملم بأصولها وحكمها ، والنظر الدقيق الذي ينفذ به الى بواطن المسائل ، ويدرك خوافيها ، كان يفكر بدماغ من حجيرات مملوءة بالحياة والعبقرية ، لايفكر بعقل من ورق الشروح والحواشي .

شيخ فرغ من شهوات بطنه ، وشهوات غريزته ، وشهوات المجد والغنى والجاه . وهانت عليه الدنيا فلم يطلب لنفسه شيئاً منها ، فجاءه منها كل شيء : المجد والجاه والمنزلة التي خضعت له بها الدنيا .

شيخ كان يهابه الملوك ، ويطيعه الشعب ، ويذل أمامه الجبارون .

شيخ كان له الموقف الذي أنقذ الله به الحضارة ، وحفظ الاسلام ، وحوّل مجرى التاريخ .

* * *

كانت مصر في رجّة رعب وجزع ، لقد أقبل عليها السيل الجارف ، الذي اجتاح في طريقه كل شيء من أقاصي المشرق الى أطراف الشام : المغول والتتر . الذين كانوا تائهين وراء صحاريهم ، كلما رأوا غفلة من دولة الاسلام ، اغاروا على جوانبها ، فلا تزال جيوشها تطاردهم حتى تلجئهم الى صحاراهم كما تلجأ الذئاب الكاسرة ، اذا دفعتها عن منازل القرية ، فتتركهم وتعود ، لأنها لا تجد لهم مجداً فتهدمه ، ولا بلداً فتملكه ، ولا راية فتطويها ، حتى نجم فيهم محارب من أفذاذ المحاربين ، مقاتل خطر بطاش هو جنكيز خان ، وكان المسلمون قد صاروا دولاً وانقسموا اقساماً ، فتمكن جنكيز خان منهم ، فأودى بأقرب ملك اليه منهم ، خوارزم شاه ، وفتح الباب لخلفائه ليسيروا نحو المغرب ، واساقطت أمارات الاسلام ، واحدة بعد واحدة ، بظلم أمرائها ، وخيانة ولاتها ، وانقسام شعوبها ، حتى كانت المصيبة الكبرى فسقطت بغداد ، وهوى تاج الخلافة .

وكانت بغداد أم الدنيا ، وكانت بغداد قصبة الأرض ، وكانت بغداد مثابة العلم والفن والذهب والجمال . تلتقي كلها فيها وتنتهي اليها ، كما تنتهي مياه الجداول الى لجّ البحر .

لم تجمع بلد ما جمعت بغداد من ثمرات العقل المفكر ، واليد المبدعة ، وما يصنع المال ، وتعمل القوة ، وتأتي به الحضارة .

فلم تكن إلا كرّة واحدة . فاذا عمران بغداد خراب ، وأنسها وحشة ، وجمالها تشويه ، وكتبها التي أودعت حصاد العقول وثمرات القرائح ، تلقى في دجلة حتى يسودّ حبرها ماء دجلة .

وإذا المجد والخلافة والجاه كما يطمس السطور البنان .

سقطت بغداد ، وانكسر السد ، فانطلق السيل ، وساح في كل واد ، وانبعثت النار ، وامتدت ألسنتها تضربها الرياح الاربع فتسوقها الى كل مكان . وخرج يأجوج ومأجوج ، وذهبوا يفسدون في الارض .

وانبعثت جيوش هولاكو كالجراد ، يأكل الاخضر واليابس : يأكل المدن والامجاد[1] والحضارات .

فمنذا يقف السيلَ بعد ما اجتاح المشرق كله والعراق والشام ؟

منذا يطفيء النار وقد أكلت بغداد أم الدنيا ؟.

منذا يرد يأجوج ومأجوج ، بعد ما انتشروا في الارض ؟

أي جيش يقف أمام جند هولاكو بعد ما تمزق جيش الخلافة ، وهوت راياته وديست أعلامه ؟

لم يبق من دنيا الاسلام إلا مصر ، فهل تقدر مصر على ما عجزت عنه دنيا الاسلام كلها من أقصى خراسان الى أدنى الشام ؟

مصر التي زال عنها سلطان الايوبيين ، حفَدَة صلاح الدين ، وقام عليها حكام من مماليك الاتراك . عبيد غرباء يشترون بالأموال ، عبيد أجانب يحكمون أحرار العرب ، ويا ويل أحرار العرب ان حكمهم عبيد أجانب !

وكان ملكَ مصر ولد جاهل غرير ، ما أعطي الملك لأنه أقوى الناس عزماً ، ولا لأنه اكثرهم فهماً ، ولا لأنه أشدهم علماً ، بل لأنه ابن معز الدين ايبك .

---

(١) قصروا جمع (فعل) على (أفعال) على المعتل مثل (أبيات وأسياف) وقالوا لم يأت منه صحيحاً إلا كلمات دون العشر كـ (أفراخ وأخواتها) وقد استدرك المتأخرون على المتقدمين نحواً من ثلاثين كلمة من الصحيح ، فدل ذلك على انه يطرد في الصحيح والمعتل على السواء . وان مجد تجمع على أمجاد . اهـ قاله اخي الاستاذ سعيد الافغاني وهو اليوم المرجع في هذا الشأن واليه الرياسة فيه في ديار الشام .

وكانت حكومة المماليك شر حكومة ، هم رجالها ، ملء صناديقهم بالذهب ، وملء بطونهم بالطيبات ، وملء قصورهم بالمماليك والمملوكات ...

فماذا تصنع مصر التي لم تكن تملك شيئاً ؟

ان مصر ، ياسادة ، كانت تملك شيخاً دمشقياً نزح اليها ، وسكن فيها ، وصار قاضي البلد ، وخطيب الجامع . شيخ في قلبه ايمان لو صبّ في الحجر الصلد لانبجست منه الحياة ، ولو وجه الى الجبل الراسي لأزاح الجبل .

شيخ كان يعلم أن هـذا الشعب ، الذي هزّه محمد ﷺ حتى أفاق وفتح الارض ، لاتزال في نفسه آثار البطولة التي فتح بها الارض . ان في عروقه ذكرى المعارك المظفرة التي خاضها ، والدماء الزكية التي أراقها ، والنصر الأبلج الذي انتزعه من كل عدو ، كان يعلم ان هذا الشعب ما دُعي مرة الى التضحية والجهاد إلاّ لبى ، لأن في نفسه الايمـان الذي يحوّل الهزيمة ظفراً ، والضعف قوة ، والفقـر غنى ، ويصنع من الحجر قنبلة ، ومن العصا سيفاً ماضياً ، وصرخ الشيخ بأهل مصر : يا أهـل مصر اثبتوا واستعدوا وحاربوا ، وانا أضمن لكم على الله النصر .

* * *

أيقظ الشيخ الشعب الذي نامت في صـدره البطولات ، فاستيقظ ، وجمع الامراء ، فذكّرهم كيف جاؤوا مماليك فجعلهم هذا البلد ملوكاً ، فمن حقه عليهم أن يدافعوا عنه ، عن حياتهم فيه وسعادتهم ، عن الحضارة التي أظلتهم بظلالها ، وجاء هؤلاء التتر ليقتلعوها من جذورها ، عن الاسلام الذي هداهم الله اليه ، وشرّفهم به .

فاستقادوا اليه ، وعزلوا الولد الذي كان ملكاً ، وأمّروا عليه البطل

القوي ، والمحارب المتمرّس بالحروب ، الأمير قطز وسموه الملك الظافر .

وقال الامراء ليس عندنا أموال ، فأطلب من الناس أن يتبرعوا لنا ، للجيش . قال الشيخ : لا . حتى تخرجوا ما عندكم ، وما في قصوركم من الذهب والفضة ، وما عند نسائكم من الحلي ، وأن تخلصوا في البذل لله وحده ، ليأتيكم منه النصر .

وحرّك قلوبهم فتنبه فيها الايمان ، فأخرجوا ماعندهم ، ورأى الناس ذلك فتسابقوا الى البذل والجود ، وكثرت الاموال ، فأعدّوا العدة ، وجمعوا السلاح ، وأقيمت معسكرات التدريب في كل مكان ، واهتزّت البلدة بالهتاف والتكبير ، حتى لكأن كل مصري قائد مظفّر ، وحتى صار كل مصري يشتهي الوصول الى المعركة ، كما يشتهي المحب وصال الحبيبة . والشيخ يعمل دائباً ، كلما خبت شعلة الايمان في بعض النفوس زادها من ايمانه ناراً ونوراً ، فكانت كل كلمة منه فرقة جديدة في جيش الجهاد .

وخرج الجيش المصري على أتم هيئة ، وأكمل استعداد ، تتقدمه فرسان المماليك . ولئن كان المماليك حكام سوء ، لقد كانوا والحق يقال ارباب حرب ، وأبطال قتال .

وبلغ الجيش بيسان في رمضان سنة ثمان وخمسين وستمئة ، وأراد أن ينحدر من أعالي الهضبة الى عين جالوت ، فوجد تحته السيل الذي جرف في طريقه كل شيء من صحارى تركستان وأطراف الصين ، الى عين جالوت : جيش المغول والتتر ، وكاد الجزع يخالط نفوس أجناد هذا الجيش الصغير ، لما رأوا هاتيك الجموع ، وذكروا كم اجتاحت في طريقها من جيوش كانت أجل وأعظم من هذا الجيش ، فما صنعت مع هذه الجموع صنيعاً ، ولكن

الشيخ قام يذكرهم ما ضمن لهم من النصر ، استنجازاً لوعد الله ، واعتماداً على قوله : إن تنصروا الله ينصركم .

فغلى الدم في العروق ، وضربت الحماسة أقحاف الرؤوس ، ونزل جيش مصر ، نزول الموت ، يحث جنده الخيل ، يتسابقون الى النصر والشهادة .

وكانت معركة خاف فيها الخوف ، وذعر فيها الذعر ، وانجلت عن ... عن ظفر المصريين .

يا أيها السامعون . لقد انهزم التتر الذين دكوا في طريقهم كل قوة ، واخترقوا كل جيش . انهزموا أمام الايمان الذي أذكاه في النفوس هذا الشيخ الدمشقي .

انهزموا وأنقذ الله مصر ، وأنقذ الله دنيا الاسلام ، وأنقذ الله الحضارة والتمدن والعمران ، وضمّت معركة عين جالوت الى سلسلة المعارك المقدسة ، التي خضناها دفاعاً عن الحق والخير والعدل : بدر والقادسية واليرموك وجبل طارق وحطين .

ظفرت مصر . وستظفر الآن مصر . ستظفر [1] . ما في ذلك شك ابداً .

أما هذا الشيخ فهو . . . هو . . . لقد انتهى الوقت أيها السامعون . وستعرفون قصة هذا الشيخ في مثل هذه الساعة من يوم الجمعة القادم .

- ٢ -

هو عز الدين بن عبد السلام . عالم من علماء بلدكم دمشق ، وقاض من قضاتها وخطيب من خطباء جامعها الأموي ، ولكنه ليس كمن تعرفون من العلماء

---

(١) اذيع هذا الحديث في اوائل حوادث مصر ، وقد حقق الله بحمده ماجاء فيه .

والخطباء ، وليس من امثالنا من القضاة ، وليس فينا من يشبهه او يقاربه ، ليمثل عليه به . انه من طراز نادر لاتجود الدنيا بمثله الا مرة واحدة في القرون الطوال .

ولم يكن هذا الشيخ من أسرة كبيرة ، ولا من بيت علم ، ولم يقبل على الدراسة في مطلع شبابه ، ولكنه طلب العلم على كبر ، فقد كان يبيت من فقره في مدرسة الكلاسة ، بين الاموي وقبر صلاح الدين ، وكانت تغلق ابوابها ليلاً ويبقى وحده فيها ، فاضطر في ليلة باردة الى الاغتسال ، ولم يجد الا بركة المدرسة ، فغطس فيها ونام ، فعاوده الاضطرار مرة ثانية فغطس ، فأغمي عليه من شدة البرد ، فشكا ذلك الى شيخ في المدرسة ، فأفهمه انه لو كان عالماً لما أقدم على ضرر نفسه ، ولعرف ان التيمم يغني عن الغسل ان كان الغسل يؤدي الى المرض .

كذلك (ياسادة) لا يصلح التقي الا بالعلم ، ولا يصلح العلم الا بالتقى ، فالمتعبد الجاهل ، يضر نفسه وقومه ، والعالم الفاسق يتخذ علمه وسيلة الى الدنيا ، وسلماً لبلوغ الغنى والجاه .

وأقبل من ذلك اليوم على طلب العلم بهمة ليس لها مثيل ، يسهر ليلـه كله في العلم ، فلم تمر عشر سنين حتى صار أحد افذاذ العلماء واعلام الدنيا ، وكان فقيراً ولكن بين جنبيه نفس ملك ، وكان زاهداً في الدنيا يراها أهون من ان يهتم بها ويحرص عليها ، فلم يستعبده مال ولا جاه ولا امرأة ، فمن هنا جاءت هذه الاخبار العجيبة عن جرأته على الملوك والامراء ، فاسمعوها ولكن لا تحاولوا أن تجربوها ، حتى تتخلقوا بالخلائق التي دفعته اليها ، وحملته عليها ، وحتى تعلموا انه لم يعملها تظاهراً ، ولا ارضاء للناس ، ولا اكتساباً للجاه ، بل عملها وهو يراها الشيء الطبيعي كالتنفس والطعام .

ولي خطابة الجامع الأموي مع القضاء ، بعد ما شرط شروطاً قبلوها منه ، وأخذ عليهم العهود ان يطلقوا يده في الاصلاح ، فأصلح وأبطل بدعاً كثيرة ، منها صلاة الرغائب ، وصلاة نصف شعبان ، لأن ما يفعله الناس من احياء ليلة نصف شعبان ، والدعاء فيها بهذا الدعاء المعروف ، لا أصل له في الدين ، والعلماء متفقون على انه من المحدثات .

وكان يحضر خطبته الملوك والامراء ، ويجلونه ، ويكبرونه ، فلما وقع الخلاف بين الملك الصالح اسماعيل في الشام ، وابن عمه ملك مصر ، استعان الصالح بالافرنج الصليبيين وحالفهم على ابن عمه . ومن عجائب المصادفات ان هـذا الملك الخائن كان يلقب الملك الصالح ، وان فاروق كان يلقب الملك الصالح .

وأعطى الافرنج بلدين من بلدان المسلمين ، فغضب الشيخ لله ، وقام في الجمعة التالية على منبر الأموي فخطب في ذم موالاة الاعداء ، وتقبيح الخيانة ، وانتهت الخطبة وقام للدعاء للملك كما هي العادة ، والملك حاضر في المسجد ، فما كان منه إلا أن أعلن ان الملك قد خان ، وان الخائن لا ولاية له ، وأعلن اسقاطه من الحكم !

لم يراع صداقته ، ولم يحرص على عطفه ، ولم يلجأ الى زاوية مظلمة فيتلفت حواليه ، ثم يقول بصوت خافت : اللهم ان هذا منكر لا أرضى به ، ولا أقدر على إزالته ! بل صدع بالحق على المنبر ، فقبض عليه . وضجّ الناس وتكلم العلماء ، فأرسل الملك الى الشيخ من يقول له : إن الملك يعفو عنه بشرط أن يقبل يده .

قال الشيخ للرسول : يا مسكين ، والله ما أرضى أن يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده !

فحبسه ، ثم أرسله الى الجبهة فسجنه في قسطاط قريب منه ، وكان يقرأ القرآن مرّة في محبسه وعند الملك وفود الافرنـج فقال لهم : أتسمعون هذا القاريء؟ انه أعظم قساوسة المسلمين وقد حبسته لانكاره تسليمي الحصون لكم وعزلته عن منصبه !

قالوا (واسمعوا ماقالوا) قالوا : والله لو كان قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا ماءهما !!

ثم أطلق فسار الى مصر فأكرمه ملكها ، وولاه الخطابة والقضاء ، فكان منقطعاً الى التدريس والاملاء والتأليف ، وخلف مؤلفات هي غاية الغايات في جودة البحث ، وتحقيق المقصد ، ووضوح الاسلوب ، وكان وفياً للعلم ، لايبالي في سبيل الحق ورضا الله ، مايقوله الناس ، أفتى رجلاً لا يعرفه في مسألة ، ثم ظهر له أنـه أفتى خطـأ ، ولم يكن في تلك الايام جريـدة ولا اذاعة ، فأخرج منادياً ينادي في شوارع مصر : يا أيها الناس : من أفتاه أمس عز الدين بن عبد السلام في المسألة الفلانية ، فليعلم ان الجواب غلط ، وليأت ليسمع الجواب الصحيح !

لذلك سمي سلطان العلماء .

* * *

وكانت له في مصر وقائـع مـع الامراء نسمعها اليوم فنراهـا من باب الخيال .

كان الحكم للماليك ، فنظـر الشيخ فرآهم لايزالون في نظـر الشرع عبيـداً ، لم يتحرروا هم ، فضـلا عن أن يحكموا الأحـرار ، فأعلن بوصفه القاضي ، انهم سيباعون بالمزاد العلني وكان نائب السلطنة من المماليك ، الذين حكم الشيخ ببيعهم!

وحسبوه يهزل فاذا هو جادّ ، فشكوه الى السلطان فنهاه فلم ينته ، فقال له السلطان كلمة فيها غلظة ، فما كان من الشيخ إلا أن ...

إلا ان ماذا ؟ ماذا ترونه صانعاً ، وهو لا يملك قوة ولا مالاً ، وقد اثار الحاكمين عليه ، وأراد أن يزايد على رقابهم في السوق ، ويبيعهم كما تباع الدواب !

ما كان منه إلا أن حمل امتعته على حمار ، وأركب أهله على حمار آخر. وكانت هذه دنياه كلها ، دنيا تحمل على حمارين . . . وخرج من مصر .

تقولون : ثم ماذا ؟ وماذا يصنع خروجه ؟

لقد صنع العجائب يا سادة ، لقد خرج أهل مصر جميعاً ، بالضجيج والعويل ، يسيرون خلفه ، وارتجت البلد ، وزلزلت مصر ، وأسرعوا الى السلطان يقولون له : تدارك ملكك لئلا يذهب بذهاب الشيخ !

فلحقه فأرجعه وأجابه الى طلبه .

وذهب كبير المماليك بالسيف الى دار الشيخ ليقتله ، ولم يكن على بابه حرس ولا حجاب ، وقرع الباب ، فنزل الشيخ وفتح له ، فلما رآه الأمير ، لم ير أمامه بشراً ، يخوّفه بالسيف ، ولكن رأى الشرع الذي لا تعمل فيه السيوف ، فسقط السيف من يده .

ونفذت كلمة الشيخ فنودي على أمراء مصر في سوق العبيد !

* * *

وخرج الملك الصالح أيوب يوم العيد الى الصلاة بموكبه ودبدبته وعظمته : العسكر مصطفون بين يديه ، ووجوه المملكة يسيرون وراءه ، والأعلام تلوح على رأسه ، والأمراء يقبلون الارض أمامه ، وإذا بشيخ يخرج من باب مدرسته فيناديه باسمه : يا ايوب ! فالتفت السلطان ودهش ، ووقف ،

ووقف الناس وشدهوا ، حتى كأن الطير على رؤوسهم ، فقال له الشيخ : ماحجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوىء لك ملك مصر ثم تبيح الخمور ؟ قال : هل جرى ذلك ؟ قال : الخمارة الفلانية يباع فيها الخمر ، وفيها المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة .

قال الملك : يا سيدي هذه من زمان أبي .

قال : أنت من الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا ؟

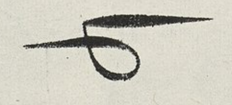
فأمر السلطان بابطالها من ساعته .

فلما دخل المدرسة سأله تلميذه (الباجي العظيم) : يا سيدي لم فعلت ذلك ؟ قال : يابني رأيته في تلك النعمة فأردت ان أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه . قال : يا سيدي أما خفته ؟ قال : تصورت هيبة الله فصار السلطان قدامي كالقط !

* * *

يا أيها السامعون هذا شيخ كان يعيش في دنيا من عقيدته وايمانه ، ترك دنيا الناس وزهد فيها ، ولم يحرص على متعها ولذائذها ، فانقادت له الدنيا ، وذل له جبابرتها ، حتى وقف هذه المواقف التي نراها أدنى الى الخيال .

ومن خاف الله يا أيها الناس خافه كل شيء ، ومن أخلص له وضع هيبته ومحبته في كل قلب ، أما من كان يطلب الدنيا ويريد المال ، ويبغى الجاه ، ويحرص على ثناء الناس ، فهيهات أن يقدر على شيء .



سلطانة الهند

انتقل معكم اليوم الى بلد بعيد ، وزمن بعيد . رحلة طويلة في الارض نقطع فيها البوادي والصحارى ، ونعبر فيها انهاراً ونركب بحاراً ، ورحلة طويلة في الزمان نطوي فيها سنين وادهاراً ، حتى نصل الى دهلي قبل ثمانية قرون .

الى المدينة التي كانت قرية فجعلها ملوك الاسلام من اعظم مدن العالم .

الى المدينة التي افتتحها السلطان قطب الدين ايبك سنة ٥٨٤ ه وكان مملوكا جاهلا ، فشراه القاضي فخر الدين الكوفي ، فخرّجه في العلم والتقوى ، ثم شراه السلطان شهاب الدين الغوري ، فنشأه على الشجاعة والقتال ، وكانت له همة ، وكانت له عبقرية ، فجعلته ملكاً بعد ان كان مملوكا ، وكتبت له شرف فتح عاصمة الارض بعدما طرق بابها في الزمان الأول الفاتح الشاب محمد بن القاسم الثقفي ، ثم جاس خلالها السلطان القائد محمود بن سبكتكين الغزنوي [١] .

وكان لقطب الدين مملوك نبيه اسمه للمش كما يضبطه ابن بطوطة ، او التمش كما يقول غيره ، ولا يهمكم بالطبع اكان اسمه التمش ام اشلميش . . . وانما ذكرت ذلك خشية ان يكون في المستمعين من وقع على قصته فهو ينتقدني ان حرفت اسمه .

(١) انظر حديث (بقية الخلفاء الراشدين) .

ولا تعجبوا من مماليك يصيرون ملوكا ، فانها سنّة ذلك العصر (مع الأسف) ، لقد مرّ على البلاد الاسلامية فترة حكمها فيها المماليك ، وقد كان منهم خـير كثير ، وكان منهم شرّ ، وليس هذا مجال الكلام عن شرورهم وخيراتهم .

اقول ان للمش هذا كان عبداً مملوكاً لقطب الدين ، فرباه على خلال الخير ، وصفات الرجولة ، فلما مات قطب الدين ، جمع للمش القضاة والمفتين ، والوجوه والاعيان ، وأعلن استقلاله بالملك ، وفتح القاضي فمه ليتكلم ففهم للمش وتبسم ، وسبقه فأخرج من تحت مصلاه ، كتاباً مختوماً ، دفعه اليـه ليقرأه على الاشهاد ، فاذا هو كتاب عتقـه وتحرره من الرق . وتمت البيعة ، وسار في الرعية مثل سيرة قطب الدين ، وكان محباً للعدل ، مقيماً للحـق ، سنّ فيه سنة خير وبركة ، هي ان لباس عامة اهل الهند البياض ، فجعل لبس الثوب الملوّن علامة التظلم والشكوى ، فمن ظلمه احد كائناً من كان ، لبسه وعرض له في اي مكان ، فأنصفه من ظالمه ، ثم خاف ألاّ يرى المظلومَ ، فجعل على باب قصره (جرساً) كبيراً يقرعه المتظلم في اي ساعة من ليل اونهار .

وكان محاربا مظفراً ، واداريا حكيما ، وسياسيا موفقا ، وحاكمـا عادلاً ، ولكن أولاده لم يكونوا مثله ولم يسلكوا طريقه بل لقد افسدهم النعيم وفتنتهم الدنيا ، فانصرفوا الى لذاذاتهم ، ورغبات نفوسهم ، وبذل في اصلاحهم جهده ، فلم يفد في اصلاحهم جهد ، فيئس منهم ، وكانت له بنت وهب الله لها جسداً يجمع متانة التركيب ، وقوة الاسر ، الى جمـال الخلقة ، وفتنـة النظر ، واعطاها قلباً ذكيا ، وفكراً نافذاً ، وذكاء يكشف بواطن الامور ، ويحل معضلات المشاكل ، وشجاعةً تقحم الموت ، ولا تبالي الاخطار ، بنتـا

اسمها رضية ، فصرف همّه اليها ، وجعل معوّله عليها ، ووكّل بها المعلمين والمربين ، ثم دربّها على فنون القتال ، وخدع السياسة ، ومرّسها بالحرب ، وكان اذا غاب ولاّها الأمر مكانه ، فسدّت ما كان يسدّه ابوها وربما زادت بفضلها عليه .

ولما مات للمش ولى السلطنة ابنه الاكبر ، ركن الدين فيروز شاه ، فأساء وظلم ، وهدم ما كان بنى أبوه من الحب والهيبة ، وبلغ من عدوانه ان قتل أخاه معز الدين ، وامتلأت قلوب الناس بغضاً له وخوفاً منه ، وتمنوا زواله ، ولم يجرؤوا عليه فلم يكن من رضية الا ان بدأت هى الثورة . . . . تراءت للناس من سطح دارها ، وقد لبست الملوّن شعار المظلومين على عهد ابيها ، فاجتمع عليها الناس ، فدعتهم الى نصرتها فأجابوا ، وقادت الثائرين فنازلت بهم أخاها وقبضت عليه وحكمت عليه بـ (الاعدام)[1] قصاصا له بقتل أخيه .

وتوّلت هي السلطة وكان ذلك في يوم ١٨ ربيع الأول سنة ٦٣٤ هـ .

وكان ذلك حدثاً في الاسلام ، وكان شيئاً جديداً وغريباً لم يعرفه التاريخ الاسلامي وهذا الحدث هو موضوع حديثي اليوم ايها السادة .

ليس الحديث عن للمش وما ذكرته الا تمهيداً ، ولكن الحديث عن السلطانة رضية التي ملكت الهند الاسلامية اربع سنوات .

وسيحظى هذا الحديث بتعليقات كثيرة ، ويثير جدالاً ، بين من يرى للمرأة الاشتغال بالسياسة ، وبين من يدعو الى اكتفائها بما خلقت له ، بأن

---

(١) الاعدام بمعنى الموت لم تعرفه العرب وهو مولد ظهر على ألسنة المصنفين والمؤلفين من القرن الثامن .

تكون ربة البيت ، (والبيت هو الوطن مصغراً) وأم الأولاد (والأولاد هم الشعب مختصراً) .

وسيجد كلٌّ دليلا منه على ما يذهبون اليه ، ويقول الأولون : هذه امرأة وليت السلطنة ، وحكمت وحاربت وجمعت من المزايا ما لم يجتمع الا لقليل من ابطال الرجال . ويقول الآخرون : ولكن انظروا مبلغ نجاحها ومدى صلاحها لما عرضت له ، واقدمت عليه ، أما اضاع عليها كونها امرأة كلّ ما جمعت من مزايا ؟

أما انا فلا اقول اليوم شيئا . انا اسرد تاريخا والتاريخ هو الذي يقول .

* * *

بويعت بالملك ، فودعت انوثتها واتخذت زيّ الرجال ، ولبست لباسهم ، وبرزت للناس ، متخذةً هيئة الجد والصرامة ، وحسبت انها تستطيع بهذا التبديل ، ان تبدل خلقة الله فيها ، وان تجعل من نفسها رجلًا ، وجمعت اطراف الامور كلها في قبضتها ، وأعادت سيرة أبيها في عدله ، وفي شجاعته ، وكانت تحل المشكلات بنفسها ، وتسوس الرعية ، وتخوض المعارك . وشهد لها المؤرخون ان عهدها كان من احسن عهد عرفته الهند .

ولكن الناس مع ذلك لم يكونوا راضين ، وكانوا يأبون ان تحكمهم امرأة ، وانطلقت ألسنة المحدثين والناقمين والطامعين ، وتكررت على المنابر الأحاديث من أمثال (ذل قوم ولوا امورهم امرأة) ، وبدأت هذه الحملات همساً ، ثم ظهرت وتبينت ، ثم استحالت الى مؤامرة محكمة ، تولّى تدبيرها اخوها الاصغر ، والوزير نظام الملك ، ورؤوس القادة والفرسان ، واصبحت يوماً فاذا هي سجينة في قصر مطوق بالاعداء ، فلم تستكن وبعثت تستثير أنصارها ، فهب لنصرتها حاكم اود ، وجاء بالجيش يدافع عنها ، ولكن الثائرين

كانوا أقوى منه ، فغلبوا جيشه ، واحكموا قيده ، وألقوه مع الأسرى ، فمات من قهره . وبقيت السلطانة بلا نصير .

هنالك عادت مرغمة إلى طبيعتها ، الى انوثتها التي زعمت انها قد ودعتها الى الابد ، واستعملت السلاح الذي هو اقوى من السيف ، سلاح المرأة الذي تقهر به الرجل دائماً [1] ، وحاربت به الامراء فشكت بسنانه قلوبهم ، وألقت به العداوة بينهم ، ثم استعانت ببعضهم على بعض ، حتى اذا لم يبق امامها الا الاقل منهم ضربتهم ضربة من لا يرحم ، فلم يبق منهم ولم تذر .

واستقامت لها الامور كرة اخرى .

ولكن هل استمر نجاحها ؟

لقد جمعت من العقل والحزم ، والشجاعة وحسن السياسة ، ما لم يجتمع مثله ، الا لأفذاذ الرجال ، ولكنها أتيت من كونها امرأة . انها سلطانة ولكنها بشر كذلك ، فان تزوجت تبعت بحكم الطبيعة زوجها واستقادت له ، وكان هو القوام عليها ، فصار هو السلطان دونها ، وان اعرضت عن الزواج كانت في حرب مع طبيعتها وغرائزها ، وان اتخذت من اللهو مثل ما يتخذ الرجال ، وكان لها بهم مثل علاقات الحاكمين بالنساء كانت المصيبة الكبرى [2] .

ان المجتمع يغفر للرجل زلّته ، ويقبل توبته ، ولا يغفر للمرأة ابدا . فيكون الغنم (ان كان غنم) لهما معا والغرم عليها وحدها ، لذلك كان على المرأة ان فكر الرجل مرة قبل ان يقدم على (ذلك الامر) ، ان تفكر هي عشر مرات ومن هنا كان الهجوم على هذه السلطانة .

كان لها عبد حبشي اسمه ياقوت ، تأنس به ، وتثق باخلاصه ،

---

(١) وهو جمالها وانوثتها .

(٢) وهذه حجة من لا يرى للمرأة السياسة والحكم .

فرفعته من مرتبته الصغيرة الى رتبة أمير الامراء ، فاطلقت بذلك السنة الناس بالكلام عليها فزعموا ان بينها وبينه اكثر من هذا ، وانها اذا ارادت الركوب تركته يحملها ، حتى يضعها على ظهر الفرس ، وأثاروا امراء الاقاليم عليها ، فكان اول من اعلن الثورة حاكم بتهندا فسير اليها الجيش فاسرعت تقود جيشها الى المعركة ، وهي واثقة من النصر ، ولكن الجيش الذي اوغرت صدره تلك الاشاعات ، لم يعد يرى فيها سلطانة ، بل امرأة قبيحة السيرة ، مهتوكة الستر ، فلم يكد يبصر راية الحاكم الثائر ، حتى انضم اليها وتخلى عن ملكته .

واسر الحاكم الملكة ، وجمع الامراء فأعلنوا اخلعها ، ونصب اخيها الاصغر ناصر الدين بهرام شاه ، وعادت امرأة كما خلقها الله ، فتزوجت بحاكم بتهندا ، أو هي ارغمت على زواجه ، وسارت معه الى اقليمه ، وهنالك سلت سلاح انوثتها مرة اخرى ، وملكت به امر زوجها ، فاسلمها قياده فوثبت به تلقاء العاصمة دهلي ، لتستعيد ملكها فكان وجودها على رأس الجيش ، سبب عصيانه من جديد ، وتخليه عنها ولم ترض ان توقع بنفسها فهربت .

ضلت أياما وهي بلا زاد ولا مأوى ، حتى نال منها التعب والجوع ، فلجأت الى حراث منفرد ، في البرية ، يحرث أرضه ، فسألته القرى فلم تجد عنده الا كسرة خبز ، فاكلتها ونامت من التعب مكانها ، وهي بلباس القواد .

وكانت نومتها الاخيرة .

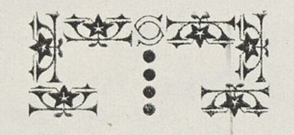
رأى الفلاح طرفاً من شِعارها (ثيابها الداخلية) فعلم بانها امرأة فاحتال عليها ... ثم قتلها ، ودفنها في الحقل ، واخذ ثيابها يبيعها في البلد ، فشك

الناس فيه ، وقادوه الى الحاكم ، فاعـترف بفعلته فقتل ، واخرجت الجثة فدفنت في قبر مهيب ، وكان ذلك في ٢٥ ربيع اول ٦٣٧ .

قال ابن بطوطة : وقبرها يزار ويتبرك به !

وكان ذلك نهاية هذه القصة . قصة لو اخرجت كما هي فلما سنمائيا لكانت في حقيقتها اروع وامتع من كثير من الافلام ، قصة فيها بطولة وفيها عبرة وفيها درس بليغ للمرأة .

هي تجربة لاشتغال المرأة بالسياسة ، فكيف رأيتم مبلغ نجاح التجربة ؟



مفتي السلطان سليم

نحن الآن في بلاط الملك العظيم الجبار ، فاتح الشام ومصر ، وناقل الخلافة الى الترك ، الذي هدم دولاً صغيرة ، فأقام في مكانها دولة كبيرة ، دولة قامت على السيف وحده [1] فلما صدئ السيف والتوى ، هوت وتصدعت ، وصارت أحاديث .

الملك الذي لقب بـ (ياوز) وكان ياوزاً حقاً : (صاعقة) منقضة لا يقف في وجهها شيء ، السلطان سليم ؛ ياوز سليم ، تاسع ملوك آل عثمان ، الملك القاهر البطاش ، سفاح الدماء ، وسلاب الارواح ، الذي قتل أربعين ألفاً من الشيعة في أطراف الاناضول ، والذي أمن اهل حلب على دمائهم وأموالهم ، ثم فرض عليهم ضريبة سماها (مال الأمان) ، كادت تستغرق عامة اموالهم ، وأرسل الى السلطان الغوري يطلب منه الدعاء ، ثم أمر بقتله ، ثم قتل الجاويش الذي تجرأ فنفذ الأمر بقتله ، والذي أباد أهل الرملة كلهم لوشاية واشٍ خبّره بأنهم قتلوا جنداً من جنده .

وكان القتل أهون شيء عليه ، خنق اخوته لما خشي أن يزاحموه على الملك ، وقتل سبعة عشر من أهل بيته ، وسبعة من وزرائه ، ردّ عليه الصدر

---

(١) ولكنها اعزت الاسلام دهراً طويلا ، وفتحت فتوحات عظاماً ، وكان منها ملوك كبار منهم الملك العظيم الصالح المصلح العبقري محمد الفاتح ، الذي فتح القسطنطينية ، ثم جاء المتأخرون من ملوكها فساؤوا واساؤوا ، ثم جاء الاتحاديون ففسقوا وافسدوا ، ثم جاء اتاتورك فكفر وفجر ، ولم يبق ولم يذر .

الأعظم يونس باشا (رئيس وزرائه) كلمة ، كان الحق فيها مع الوزير ، فأمر بضرب عنقه فضربت عنقه قبل أن يتم جملته ، ودفن في موضع مصرعه ، في خان يونس، بالقرب من غزة ، الذي بناه سميّه يونس الدوادار .

ولما ترك للشراكسة في مصر أوقافهم ، قال له رئيس وزرائه بري باشا، يامولانا، فنى مالنا وعساكرنا في حربهم ،وتبقى لهم اوقافهم يستعينون بها علينا ؟ وكانت رجل السلطان في الركاب فأشار الى الجلاد ، فقطع عنق الوزير، فصار رأسه على الأرض ، قبل أن يصير السلطان على ظهر الفرس ، حتى صار من أمثال الناس السائرة ، من أراد الموت فليصر وزيراً للسلطان سليم .

وكان الرجل اذا سمي للوزارة ، كتب وصيته ، وأعدّ كفنه وودّع أهله ، فلا يدري كلما ذهب ليقابل السلطان أيعود ماشياً على رجليه ، أم محمولاً على قفاه .

* * *

نحن الآن يا أيها السامعون ، في بلاط السلطان سليم ، واهل الديوان الملكي في اماكنهم ، وقلوبهم من خوف السلطان في وجل ، لا يدرون ، أيدعو بأحدهم فيسعده ، او يناديه فيبعده ، او تحل به نزوة من نزواته فتقعده فلا يقوم ابدا.

فلم يرع الوزراء وأهل الديوان ، إلا دخول الشيخ المفتي عليهم ، وما كان من عادة المفتي ان يدخل الديوان وليس له فيه حاجة ، فوثبوا اليه يستقبلونه حتى أقعدوه في صدر المجلس وقالوا له : أي شيء دعا المولى الى المجيء الى الديوان العالي ؟ قال : أريد أن ادخل على السلطان ، ولي معه كلام ، فاستأذنوا له على السلطان فأذن له ، وحده ، فدخل وسلم عليه وجلس ، والسلطان ينظر اليه وقد بدت بوادر الغضب على محيّاه ، وسكت تخنقاً يرقب

ما يأتي به الشيخ الذي دخل عليه بلا دعوة ، وجلس أمامه بلا اذن ، فقال الشيخ : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان ، وقد أمرت بقتل مائة وخمسين من العمال لايجوز قتلهم شرعاً فعليك بالعفو عنهم ، فطار الغضب بعقل السلطان من هذه الجرأة عليه ، ولم يعد يبصر مَنْ أمامه وكاد يأمر بضرب عنق الشيخ (والأمر بالقتل على طرف لسانه دائماً) . ثم ضبط نفسه وأراد ردعه ، من غير قتله ، وقال له : انك تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك . واعرض عنه ، وارتقب ان يكف الشيخ وينصرف . ولكن الشيخ قال له : بل اتعرض لأمر آخرتك وانه من وظيفتي ، ومهما عشت فانك ميت ، ومعروض على الله ، وواقف بين يديه للحساب ، فان عفوت فلك النجاة ، والا فان أمامك جهنم ، لايعصمك منها ملكك ، ولا ينجيك سلطانك .

أتدرون ماذا كان ؟ لقد ذلّ السلطان الجبّار أمام الشيخ الضعيف ، وهانت القوة أمام الحق ، وخضع ملك الزمان أمام سطوة الشرع ، ولم يعد الشيخ هو الذي يتكلم ، بل يتكلم أعظم موجود عرفته هذه الدنيا : الاسلام .

وكذلك يذل أكبر جبار أمام العالم الصادع بالحق ، الذي لا يبالي إلا الله . . . وعفا السلطان عنهم جميعاً . وجالس المفتي ساعة يحدثه ويكرمه . فلما قام ليخرج قال الشيخ : تكلمت في أمر آخرتك ، وبقي لي كلام متعلق بالمروءة . قال السلطان : ماهو ؟

قال : هؤلاء من خدم السلطان ، فهل يليق بعرض السلطنة أن يتكففوا الناس ؟

قال : لا .

قال : فأعدهم الى مناصبهم .

قال السلطان : نعم ؛ إلا اني أعاقبهم لتقصيرهم في خدمتهم .

قال : هذا جائز ، لأن التعزير مفوض شرعاً الى رأي السلطان ، ثم سلم عليه وانصرف .

* * *

هذا المفتي هو المولى علاء الدين علي بن احمد الجمالي ، الذي تولى التدريس والفتوى (مشيخة الاسلام) ستاً وعشرين سنة ، على عهد السلطان بيازيد والسلطان سليم وابنه السلطان سليمان القانوني (باني التكية الكبرى في دمشق أما الصغرى القديمة فهي من بناء أبيه سليم هذا) كان عالماً عاملاً، يمضي وقته كله في التلاوة والعبادة والدرس والفتوى ، ويصلي الصلوات الخمس مع الجماعة . وكان كريم النفس ، طيب الأخلاق ، عظيم المهابة ، صداعاً بالحق ، متخشعاً متواضعاً عفيف اللسان ؛ ما ذكر احداً بسوء ؛ ولا جرت على لسانه قولة الخنا ؛ وكانت انوار العبادة تتلألأ على جبينه ؛ وكان يحب العزلة فجعل مجلسه في غرفة مطلّة على الطريق وأدلى منها زنبيلاً (سلة) ربطه بحبل ؛ فمن كان له سؤال او استفتاء ؛ ألقى سؤاله في الزنبيل وحرك الحبل ؛ فأخذه وأجاب عليه ؛ وأدلى بالجواب . فعرف بلقب (زنبيلّي زاده علي افندي) .

وألقى الله هيبته في قلب السلطان سليم ؛ فكان يمتثل أمره ؛ ويجيب طلبه . ذلك حين أفهمه ان وظيفة المفتي هي المحافظة على آخرة السلطان ؛ كما ان وظيفة الطبيب المحافظة على صحته . أفيسكت الطبيب ان رأى الملك يتناول السم ؟ ألا ينهاه ، فان لم ينته أمسك بيده قسراً ، وأراق الكاس جبراً ؟ فلماذا يسكت المفتي ان رأى الملك يورد نفسه جهنم ؟

وكانت له معه مواقف كثيرة ، اختتم هذا الحديث بذكر واحد منها :

لما خرج السلطان سليم الى ادرنه خرج المفتي لوداعه وتشييعه ، فرأى في

الطريق اربعمئة رجل مشدودين بالحبال ، يسوقهم الجند ، فسأل عن حالهم ، فقالوا : انهم خالفوا امر السلطان ، فحكم عليهم بالقتل .

فذهب المفتي الى السلطان فلقيه وهو راكب ، فقال له على ملأ من الناس :

– هؤلاء لا يحل قتلهم .

فقال السلطان : ايها الشيخ الى متى تتدخل في امور السلطنة ؟ الزم حدك ، واشتغل بوظيفتك ! امالك وظيفة تقتصر عليها ؟ امالك عمل تعمله ؟

قال الشيخ :

هذه وظيفتي وهذا عملي ، فان سمعت نجوت ، والا لقيت ملكاً هو اقدر عليك ، منك عليهم .

وأدار عنق دابته ومشى بلا تسليم ، فاحمرّ وجه السلطان ، وكاد يتفجر منه الدم ، ووقف على فرسه صامتاً مدة طويلة ، وهو في غضب لم يغضب مثله ، والناس كلهم خائفون ، سكوت ، لو القيت ابرة على التراب لسمع صوتها .

ثم مشى في طريقه وأمر بالعفو عن القوم .

* * *

هذا لتعلموا ان العظمة في تاريخنا ، هي عظمة هؤلاء الرجال . هؤلاء العلماء الذين علموا ليعملوا ، وآمنوا فظهر إيمانهم على أقوالهم وأفعالهم ، وحركاتهم وسكناتهم ، فكانوا مع الناس في معاشهم ، ومع الملوك في مناصبهم ، ولكن قلوبهم كانت ابداً مع الله ، لا تعمل الا له ولا ترجو الا اياه ، وترى الدنيا ومن عليها في جنب الله اهون من ذرة في الفضاء ، فلا تحفل منها بطعام

ولا شراب ، ولا شهوة نفس ، ولا نشوة سلطان ، ولا تخاف فيها ملكا ولا جباراً ، لأنها كانت مع الله ، فكان الله معها ، وهو ملك الملوك وقاصم الجبارين .

ولو أن عصراً خلا من أمثال هؤلاء لخلا منهم هذا العصر الذي صوّرت لكم اليوم صورته ، ولكنهم موجودون ابداً ، معجزة حيّة باقية لخاتم الأنبياء محمد ﷺ وتصديقاً لقوله : لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرها من خالفها حتى تقوم الساعة .



الاحتفال بالمولد

قلت في الكلمة التي اذعتها يوم المولد ، ان اول من ابتدع الاحتفاء بـه ، هو الملك المظفر ، صاحب اربل ، فكتب اليّ كثـيرون يسألونني ، من هو الملك المظفر ، وما خبره ، فجعلت جوابي لهم هذا الحديث .

* * *

كان الملك المظفر قائداً من قواد السلطان صلاح الدين الايوبي ، وعاملاً من عماله ، اما لقب الملك فكان في اصطلاح تلك الايام يطلق على كل والٍ او حاكم ، ولو كان والي مدينة ، او حاكم قرية ، بل لقد جرت عادة الايوبيين (وهذا من قبيح عاداتهم ، التي ادّت الى الانقسام المستمر) ان يطلقوه على الولد من أولادهم ، وهو صبيّ ، كما يطلق مـلوك أوربة على ابنائهم لقب (البرنس) .

وكان أبوه من شجعـان التركمان ، وكان يلقب بـ (كجك) ومعنى كُشُك في التركية ، الصغير ، لانه كان قصير القامة ، صغير الجسم ولكنه كان قوياً مفرط القوة ، جريئاً بالـغ الجرَاءة وكان من قواد آل زنكي ، حضر الوقائع العظيمة ، وفتح الفتوح الجليـلة وولي اعالي العراق والجزيرة ، فسار فيها السيرة الحميدة ، ووقف فيها الاوقاف ، ولما شاخ وقارب المئة ، نزل عما كان يليه ، ولم يبق لنفسه الا مدينة إرْبل [1] .

---

(١) ويسمونها اليوم اربيل ، وهي ولاية الى جنب الموصل .

وكان ابنه الملك المظفر (هذا) ، يدعى كوكبوري ، ومعناه في لسانهم (الذئب الازرق) ، وكان منقطعاً الى صلاح الدين ، رحمة الله على روحه ، شهد معه المشاهد كلها ، وكان احد قواده الكبار ، وكان من أثبتهم في المعارك قدماً ، واجرئهم قلباً ، وأعرفهم بفنون القتال ، ما عرف الهزيمة قط .

ولما تضعضع الجيش الاسلامي غداة معركة حطين ، وكاد ينكسر ويتمزق ، بقي ثابتاً في الميدان مع السلطان صلاح الدين ، والملك تقي الدين صاحب حماة[1] في قطعة صغيرة من الجيش ، وتلقوا بصدورهم هجمة الافرنج ثم ردّوها ، كما تتلقى صخرة الشاطيء الموجة العالية العاتية ، ثم تردّها ، وعاد بذلك الجيش الاسلامي الى مواقعه ، وكان الظفر الأبلج ، الذى لا تزال تتحدث حديثه العصور .

وفي حصار عكا ، كان له مع السلطان اشرف موقف ، يعرفه ويعرف امثاله ، من عاد يقرأ هذه الصفحات الغرّ المحجّلات من تاريخنا ، صفحات البطولة المعجزة التي احتواها تاريخ (الابطال الثلاثة) : نور الدين ، وصلاح الدين ، والظاهر ، وانا اوجب على كل مسلم اليوم ان يقرأها مرة ثانية ، ليجدد ايمانه بالله ، وبان فلسطين ستعود الينا ، وليعرف من اين الطريق الى استرجاع فلسطين .

* * *

أما سيرة الملك المظفّر في السلم فلم تكن دون سيرته في الحرب ، هنالك النجدة والثبات والظفر ، وهنا العدل والاحسان والكرم ، وليس ذلك عجباً ولا نادراً في ذلك العصر ، فان الناس (كما قال القائلون) على دين

---

(١) اي والي حماة .

ملوكهم ، ومتى صلح الرأس صلحت الجوارح ، ومتى كان السلطان مثل صلاح الدين ، كان الامراء مثل الملك المظفر .

لقد قرأت سيرته ، وسمعت خبره من شاهد عيان ، وعصريّ [1] صادق ، هو القاضي ابن خلّكان ، فما دريت أأقرأ سيرة ملك من الملوك ، ام رئيس جمعية خيرية للمواساة والصدقات والترفيه والاحسان ، هذا هو عمله الذي يعيش له ، ويعيش منه ، ولاهمّ له غيره ، ولا عمل له سواه .

ولقد عرفت سير كرماء ضربوا بكرمهم الامثلة ، ولكنهم كانوا يعطون الشعراء والمغنين والسائلين ، ويبذرون ويضعون الاموال في غير مواضعها ، اما الملك المظفر ، فكان كرمه للناس جميعاً ، ولولا ماسنّ من سنن سيئة في يوم المولد ، من اللهو والسماع ، لشهدت بانه لم يكن له بابته [2] نظير .

* * *

لم يكن في الدنيا شيء احب اليه من الصدقة والبذل ، لا للشعراء فما كان للشعراء منه حظ ، ولكن للفقهاء والفقراء ، والوعاظ والمحتاجين ، وكان يجلُّ العلماء ، ويدني مجالسهم ، ويستسلم لهم ، ويهشّ للوعظ ، ويصغي للفوائد .

وكان له كل يوم قناطير من الخبز توزع توزيعاً عاماً على الفقراء ، في اماكن خصصها لذلك في نواحي البلدة ، فلا يطلب احد شيئاً منه الا اعطيه ، فكان العامة يأكلون خبزهم من ماله ، ولا يتكلفون له ، ولا يفكرون فيه .

وكان يرى الخبز حقاً لكل انسان . يأخذه مجاناً ، كالماء والهواء ، وهذه

---

(١) عصريه أي معاصره ، ومعاصر ومثلها مواطن لم تسمع عن العرب .

(٢) يقال : هو من بابة فلان اي من اشباهه ونظائره .

الثلاثة هي ضرورات الحياة ، وهي على درجات ، اما الهواء الذي لا يصبر عنه الحيّ لحظة ، فهو ميسور في كل مكان ، اما الماء فيصبر عنه قليلا ، لذلك كان كثيراً موفوراً ، وان خلت منه مواضع ، اما الخبز فيصبر عنه امداً أطول ، لذلك كان اقل .

وكان اذا عاد من الديوان ، وجد على بابه كل يوم طوائف من المحتاجين فيوزع عليهم الثياب الرخيصة النافعة ، التي اتخذت لدفع البرد ورد المرض ، لا للفخفخة والفخر ، ويعطى كلا عطية صغيرة : دينارين او ثلاثة .

ورأى المرضى الذين لا يرجى لهم شفاء (الزّمنى) والعميان فبنى لهم أربعة مستشفيات ، وتلك هي سنة الاسلام ، شرع بها من الملوك الوليد ابن عبد الملك ، ثم صارت شعار الملوك الصالحين من المسلمين ، وقرّر لهم كل ما يحتاجون اليه من الفرش والحمامات والمراحيض ، والخدم والممرّضين ورتب لهم المطابخ تقدم لهم الطعام والشراب ، وعيّن لهم وعاظاً يعظونهم ويعلمونهم ، ومحدثين يقرؤون لهم ويسلّونهم ، وكان يزورهم زيارات مفاجئة ، ويقف عليهم واحداً واحداً ، يسأل كلاً عن طعامه وشرابه ، وما يشكو منه ، وما يشتهيه ، ويبرّهم بالمال والفاكهة والطُرف .

وانشأ داراً للضيافة ، ينزل فيها كل مسافر ثلاثة ايام ، يتغدى فيها ويتعشى ، واذا اراد السفر اعطوه نفقة ومعونة .

وفتح مدرسة عظيمة ، جعلها قسمين : قسماً للحنفية وقسماً للشافعية وأقام لها المدرسين ، وجعل لهم وللطلبة المرتّبات والعطايا . وفتح مدرستين للصوفية !

وكان له عمال يسافرون مرتين في السنة ، الى البلاد الساحلية

التي كانت بيد الافرنج ، يفكّون اسرى المسلمين ، ويعينوهم على العودة الى ديارهم .

وجعل للحج بعثة رسمية ، تذهب كل سنة مع الحجاج ، تخدمهم وتتعهدهم وتعين الفقير والمنقطع منهم ، وارسل معها ستة آلاف دينار لفقراء الحرمين .

وكان له بمكة المآثر الجليلة ، منها انه كان اول من اجرى الماء الى عرفات ليلة الموقف ، وكان الحجاج يشكون قلة الماء ، وانفق فيه النفقات الطائلة .

* * *

وكان يؤخذ عليه ، انه كان على طريقة مبتدعة المتصوفة ، الذين يقيمون حفلات السماع ، ويتواجدون ويرقصون ، ويأتون اعمالاً ليست من الدين ، ولا يعرفها السلف ولا اوائل الصوفيين ، وكان مولعاً بها ، يزور مدارس الصوفية التي انشأها لهم فيُجمع له المغنون (المنشدون) فيسمع منهم ، مثل الذي تسمّيه اذاعة دمشق ، الاناشيد الدينية ، والدين بريء منه ، ولم يسمع مثله الرسول ﷺ ولا الصحابة ولا التابعون ، ولا عرفوه ، ومن هذه (الاناشيد) ما لا يخلو من كفر صريح ، وسؤال الرسول ما لا يقدر عليه الا الله ، ووصفه بما لا يوصف به الا الله . ومنها ما هو وقاحة وسوء ادب وغزل بالرسول ووصف جماله ، وذكر للهجر والوصال ...

والدين ما كان عليه الرسول وصحبه ، ومن زعم ان في المحدثات ما هو من الدين ، فقد نسب النقص الى الشريعة ، وادعى بانه زاد في القربة والطاعة على الرسول ﷺ ، وسيصدم هذا الكلام كثيراً من السامعين ، ويرون فيه غير ما عرفوا وألفوا ، ولكنه هو الحق ، والحق احق ان يتبع .

اعود الى الموضوع .

لقد قلت لكم ، ان الملك المظفر كان اول من سنّ الاحتفاء بالمولد ، وانا انقل اليكم وصفاً لذلك الاحتفاء ، نقلاً عن المؤرخ الثقة القاضي ابن خلكان ، وهو شاهد عيان ، لتروا انه لم يكن احتفالا دينياً ، ولم يكن مجلس عبادة وذكر ، ولا مقام طاعة وتبتّل ، وانما كان (معرضاً) كهذه المعارض التي تقيمها دول اوربة في هذه الازمان ، فيه اللهو وفيه الغناء وفيه كل شيء .

كان الناس يتوافدون الى (اربل) حتى تصير مثل ارض المحشر ، يصحب كل منهم اهله ويحمل تجارته ان كان تاجراً ، وبدائع مصنوعاته ان كان صانعاً مبتكراً ، ويعدّ خطبه ومواعظه ان كان خطيباً أو واعظاً ، وقصائده ان كان شاعراً .

ويقيم المظفر أبنية موقته من الخشب ، كل واحدة بطبقات اربع او خمس يؤجرها لمن شاء فاذا كان شهر صفر زيّنوها بأنواع الاصباغ والستائر والاوراد والصور والأعلام والاضواء ، حتى تكون اعجوبة [1] ، ويدع لنفسه وحشمه عشرين منها ، ينتقل اليها وكذلك يفعل القواد وكبار رجال الدولة .

ويكون في الباقي جَوْقات [2] المغنين ، والممثلين وأصحاب الخيال (شيء مثل كراكوز) وتبطل معايش الناس ، وتتعطل المدارس الى يوم المولد .

والملك يدور كل ليلة فيقف على المغنين واصحاب الخيال وعلى كل بناء وقبة يتفرّج ويعطي العطايا . وكان يجعل المولد سنةً في الثامن من ربيع الاول وسنة في الثاني عشر منه للخلاف الوارد في تعيين يوم مولده ﷺ .

* * *

---

(١) كما يكون في المعارض تماماً . (٢) جوقة كلمة عربية .

تبدأ الاحتفالات ليلة المولد بسَوْق عدد هائل من الابل والبقر والغنم بالطبول والاناشيد والناس وراءها بالاعلام والمزامير والصياح حتى تذبح ويعدّ لحمها للولائم ، فتقام القدور ، ويعد الطعام الكثير ثم يذهب الى المسجد فيخرج من صلاة العشاء ، ،بين يديه الشموع العظيمة والمشاعل والناس وراءه، حتى ينتهي الى (الخانقاه) فيقم تلك الليلة سماعاً عظيما (اي مايسمونة اليوم ذكراً ، وماهو بالذكر) ويأتي الصوفية بعجائب الانشاد والرقص والتواجد، فاذا كان يوم المولد ، نصب له برج كبير فيجلس عليه مع رؤساء دولته وبرج أوطأ منه للصوفية والعلماء ، ويمرّ الجيش بين يديه في عرض عظيم ، بفرسانه ورجّالته واعلامه وراياته وطبوله ، وجماعات الصوفية والمنشدين ، وطلبة المدارس ، وعامة الناس ثم يقوم الخطباء والوعاظ ، وينشد المنشدون ،ويخلع على الجميع ويعطيهم ، ثم يدعى كل من حضر، وهم آلاف مؤلفة ، الى الموائد فيأكلون جميعاً .

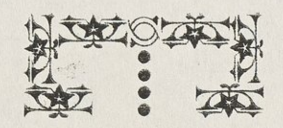
وقد ألّف له الحافظ ابن دحية رسالة في المولد ، كانت أول مولد أُلّف .

* * *

وقد اختلف العلماء في هذه البدعة التي ابتدعها ، فمنعها الاكثر ، ومنهم من قال بجواز الاحتفال بالمولد ، بشرط خلوّه من المنكرات، وانا ارى ان الاحتفال بالمولد ، بحيث تنشر في الناس سيرته ﷺ ، ويذاع هَدْيُه ، ويُدعى الى الاستنان بسنّته ، واتباع شرعته ، امر مطلوب وان لم يفعله السلف ، لأنه من الامر بالمعروف الذي يحسن في كل وقت ، اما قراءة هذه الموالد المكذوبة ، والاجتماع على اللهو والغناء واغتياب الناس وامثال هذا فلا يجوز ابداً .

هذه سيرة رجل كان من انفع الناس للناس ، ومن أعدل الملوك في الرعية ، ومن نماذج الحكم الصالح ، وكان ذلك طبعاً فيه لاتطبّعاً ، وكان يقدم اليه الطعام فيأكل منه لقمة فيستطيبه ، فيقول ، ارفعوه ، وخذوه الى فلان الفقيه او فلان الفقير . وكان يستحسن الثوب فيخلعه ويقول ، خذوه الى فلان الصالح او فلان المحتاج ، وكان قائداً من ابرع القواد ، ومحارباً من عباقرة المحاربين ، توفي ليلة الاربعاء ١٨ رمضان سنة ٦٣٠ هـ .

رحمه الله وغفر له ما اساء فيه .



بالي مراكش

هذا الحديث عن عبقري من عباقرة التاريخ الاسلامي ، وعن موقعة من أعظم المواقع الحربية في تاريخ الشرق والغرب ولا بد لي قبل الكلام على هذا الرجل العبقري ، وعلى هذه الوقعة الفاصلة من شيء من التمهيد التاريخي .

* * *

أعود بكم الى القرن الخامس عشر ، وأذهب بكم الى صحارى المغرب الأقصى .

وقد كانت هذه الصحارى يومئذ لقبائل (زناته) فزاحمتها من الجنوب قبائل جديدة ، أقوام بعدد الحصى والرمال يعرفون بالملثمين ، لأنهم يتلثمون ابداً في الحرب وفي السلم ، ويذكرون في تعليله ان العدو أغار عليهم مرة ، وكان الرجال بعيدين عن الحيّ ، فلبس نساؤهم لباس الرجال ، وتلثمن وركبن الخيل ، فحسبهم العدو رجالاً ، وخاف وهرب . فلزموا اللثام من ذلك اليوم تبركاً به ، وكانوا جنّ الحروب ، ومَرَدَة المعارك ، وكانوا عجائب في الشجاعة والاقدام .

وكانوا في الأصل على جهالة مطبقة ، فأحب زعيمهم أن يعلّمهم الاسلام وأن ينوّر به قلوبهم ، فاختار فقيهاً من القيروان اسمه الشيخ عبد الله الجزولي ، وكان هذا الشيخ وحده سبب هداية هذه الخلائق ، ونقلها من ظلمة الجهل الى نور الايمان ، ومن الصحارى الافريقية الجنوبية ، الى ملك المغرب كله

والاندلس ، وهو الذي جعل كل واحد من الملثمين ، داعية الى الله ، ومجاهداً في سبيله كلّ طاغية يقف في وجه هذه الدعوى ، ويمنعها ان تسير ، ولم يكن سبب هذا النجاح انه كان اعلم الناس علماً ، وانه كان أفصحهم فصاحة ، فلقد كان في الناس من هو أعلم منه وأبلغ ، ولكن سببه الأوحد انه كان مؤمناً حقاً ، وكان متحمساً راغباً في الاصلاح ، وانه لم يكن يطلب الجاه ولا المال ولا الضياع ولا اللذات ، بل يطلب الله والدار الآخرة .

وكانوا يعرفون بالملثمين فسماهم المرابطين ، وكان هذا الفقيه هو الحاكم بل تركها الحقيقي ، وهو الذي يصرّف الأمر ، ولكنه مع ذلك لم يدّع الامارة ، ليحيى اللّمتوني ، ولما مات ولّى مكانه أخاه ابا بكر اللمتوني وتوفي هذا الفقيه بعد ما أسس الأسس ، وأقام الدعائم لدولة المرابطين ، التي ظلّلت رايتها فيما بعد المغرب كله ، من تونس الى البحر الاطلنطي والأندلس ، وما خصّ نفسه يوماً بطيب مأكل او ليّن ملبس ، ولم يكن له أرب في النساء . ومن هنا ترون ان عالماً واحداً يدعو الى الله باخلاص ، يحيي به الله أمة كاملة .

* * *

وانفرد ابو بكر اللمتوني بعد موت الفقيه الجزولي بالامر ، فجاء بشاب من بني عمه اسمه يوسف بن تاشفين ، فولاه قيادة شطر من الجيش ابقاه في صحراء المغرب ليتم العمل الذي بدأ به الشيخ الجزولي ، وعاد هو الى الجنوب ، الى بلاد قومه من (لمتونة) . لأن امرأة من قومه ظلمت فنادت : لقد ضيعنا ابو بكر . فقال لها : لبيك . وأسرع الى بلاده . يقيم الحق والعدل فيها ويصلح من أمرها ، ويجاهد الكفار من حولها ، وبقي ابن تاشفين في الشمال .

ولا نعرف من أين جـــاء ابن تاشفين ، ولا ندري كيف نشأ ، ولا يحدثنا التاريخ عن ذلك شيئاً ، ولا نعرفه إلا يوم ولي هذه القيادة . ولي القيادة ، ولم يكن للمرابطين إلا الصحراء يعيشون فيها بدواً رحّلاً ، ويسيطرون على قبائلها فسار بهم ابن تاشفين الى المدن ، الى فاس ، حاضرة المغرب ، وكبرى مدنه ، فافتتحها ، وأقام عليها أميراً يحكم بكتاب الله وسنة رسوله . ثم توجه الى طنجة ، في طريق ما سلكها قبله جيش ، فافتتحها وأقام عليها أميراً . وما زال يفتح المدن ، مدينة بعد مدينة ، حتى فتح مدن المغرب الاقصى كلهـــا ، ثم ملك الجزائر ، ثم توجه الى تونس فغلب عليها . وكان في كل بلدة أمير ، يظـلم الناس ، وحكومة تعيث الارض فساداً ، فجعلها كلها حكومة واحدة . من تونس الى البحر ، البحر الذي بلغه من قبل الفاتح الاسلامي عقبة بن نافع فخاضه بفرسه وقال : اللهم لو لا هذا البحر لمضيت مجاهـداً في سبيلك ، حتى افتح الارض كلها او أموت .

وعاد ابن تاشفين ، فاختار موضعاً نزهاً ، حوله جبـــال تطيف به من بعيد ، اسمه مَرّاكُش ، ومعناها بلغة البربر (مرّ مسرعاً) لأنه كان مأوى اللصوص وقطاع الطرق فبنى فيه مدينة مراكش ، سنة ٤٦٥هـ ؛ وعاد ابوبكر فاستقبله ابن تاشفين وأظهر له الخضوع ، ولكنه لمـــا رأى ما بلغه من القوة والأيد ، ترك الأمر له وعاد من حيث جاء ، يجاهد في الصحارى الجنوبية حتى مات شهيداً ، وانفرد ابن تاشفين بالأمر .

* * *

وكان ابن تاشفين هذا نحيف الجسم ، اسمر الـــلون ، خفيف اللحية ؛ دقيق الصوت . يحسبه من يراه ويسمعه ، رجلاً ضعيفاً مسكيناً ، فاذا خبرَه وجده الأسد قوةً ومضاءً ، والصقر حدة بصر ، وسرعة انقضاض ؛ وكان

محارباً ليس له نظير ؛ وقائداً من الطبقة الاولى من القواد ؛ وكان خيّراً عادلاً ، يميل الى اهل العلم والدين ، ويكرمهم ويجعلهم اصحابه وبطانته ، ويحكّمهم في نفسه وفي بلاده ، ويتبع حكمهم ماداموا يتكلمون بلسان الشرع ، ويحكمون بحكم الله ، وكان يحب الصفح ، ويميل الى العفو ، مهما عظم الذنب وجلّت الخطيئة ، وكان زاهداً متقشفاً لم يستأثر بطعم ولا مشرب ، ولم يرتفع في عيشه عن عيش أفقر رعاياه ، فعاش حياته كلها لم يعرف القصور الفخمة ، ولا الموائد الحافلة ، ولا حياة السرف والترف ، لم يأكل إلا خبز الشعير ولحم الابل ، ولم يشرب الا ابن النياق ، وكان قوي الجسم مشدوداً شد الوتر ، وبقي على ذلك حتى قارب المئة . وكانت الألقاب فاشية في الاندلس ، فكل من حكم فيها بلدة ، او سيطر على ناحية من الارض ، اتخذ ابهة الملك ، وألقاب السيادة ، وهو قد أسس دولة من اكبر دول الاسلام وبنى مدينة من اجل المدائن ، ورضي بأن يكون تابعاً للامامة العظمى ، لأنه كان يرى رأي الاسلام ، وهو أنه لايجوز ان يكون المسلمون إلا دولة واحدة ، وكتب الى الخليفة العباسي يستمد منه الامارة ، فأرسل اليه بمرسوم الولاية على المغرب ، وسمى نفسه (أمير المسلمين) ، وأعلن أنه تابع للخليفة في بغداد .

* * *

يا أيها السامعون والسامعات :

في هذا الوقت الذي انتقل فيه المغرب الاسلامي ، من الفرقة والانقسام والضعف ، الى الوحدة والقوة ، وزالت على يد الفقيه الجزولي ، والقائد ابن تاشفين ، هاتيك الدويلات الصغار ، وقامت الدولة الكبيرة ، كانت الحال في الاندلس على العكس ، فقد زالت دولة الناصر ، ودولة

المنصور من بعده ، وقامت هذه الحكومات الصغيرة المتنافرة المتناحرة ، التي لا يفتأ كبيرها يغير على صغيرها ، وكل جارة منها تعتدي على جاراتها . وبلغ الامر الى ماهو شرّ من ذلكم ، الى ان صارت كل دولة منها تستعين على اختها بالاسبان ، بالعدو المشترك ، الذي يتربص بالجميع ، ويكيد للجميع . ولم يسلم من هذا الخزي أحد منهم !

وأخذ الاسبان يستفيدون من هذا الخلاف ، ويأخذون من اطراف البلاد الاسلامية ، وكلما فتحوا طريقاً للعداوة بين دولتين من هذه الدول الهزيلة ، دخلوا منه يوغلون في بلاد الاسلام ، ويتقدمون ابداً الى الامام . وجعلت المدن تَسّاقط في ايديهم واحدة بعد واحدة ، فلا ينتبه المسلمون ، حتى سقطت طليطلة ، وهي قلعة الاسلام ، فكانت سقطة لها دويّ رجّ الاندلس ، فأفاق هؤلاء الامراء وأيقنوا ان الهوة قد تفتحت تحت أقدامهم ، وانهم جميعاً ساقطون فيها ، إذا لم يتحدوا ويتجمعوا ، وكانوا جميعاً يدفعون الجزية للاذفونش (الفونسو ملك قشتالة) حتى كبيرهم المعتمد بن عباد الملك الشاعر ، فلما أخذ طليطلة لم يعد يرضى بالجزية ، وعزم على أخذ البلاد . فتوجهوا جميعاً تلقاء المغرب ، ورأوا انه لانجاة لهم إلا إذا استنجدوا بأمير المسلمين ، ابن تاشفين . وكان القائم بهذا ابن عباد ، فخوفوه من طمع ابن تاشفين في الاندلس ، واستيلائه عليها ، فقال كلمته المشهورة : انا اعرف هذا ، ولكني أفضل ان أرعى جمال أمير المسلمين ، عن ان ارعى خنازير ملك الاسبان !

وكان مرجع أمراء الاندلس لابن عباد ، فلما رأى هذا اخذوا برأيه ، وكتبوا كتاباً واحداً ، بلسانهم جميعاً يستقدمون به ابن تاشفين ، ولبّى الطلب ، وحشد جيشاً ضخماً وجاز به البحر الى الاندلس ، وكان الاذفونش

في حرب ابن هود أمـــير سرقسطة ، فلما بلغه عبور ابن تاشفين ، ترك حربه وجمع أمراء النصارى في جيش واحد ، وتوجه ليلقى به ابن تاشفين الذي انضم اليه أمراء المسلمين جميعاً ، ومشى الجيشان الى المعركة الفاصلة ، التي اجتمعت فيها جيوش النصرانية كلها في جانب ، وجيوش الاسلام في جانب ، ولم يكن الفريقان قد اجتمعا من قبل ابداً في جيش موحد . وكان اللقاء في سهل افيح بالقرب من مدينة بَطَلْيُوس سمي (سهل الزلاّقة) وكانت الوقعة يوم الجمعة في الخامس عشر من رجب سنة تسع وسبعين واربعمئة أي قبل تسعة قرون .

اصطف الفريقان ، حتى لقد نقل ابن خلكان انه لم يكن في ذلك السهل الواسع موضع قدم لم يكن فيه جندي مستعد ، ولا تزال الامداد تتوالى من الجانبين ، حتى لم يبق محارب من هؤلاء او اولئك الا حضر المعركة .

وأخطأ ابن عباد خطيئة كادت تودي بجيوش المسلمين كلها ، خطيئة دفعته اليها شجاعته ونسي ان الرأي قبل شجاعة الشجعان ، ذلك انه باشر القتال قبل ان يصل ابن تاشفين الى الميدان ، واضطرب أمر الجند الاسلامي ، وأخذ الناس على غير تعبئة وغير استعداد ، فصار أمرهم فوضى ، ودهمهم فرسان النصارى ، فحطموا كل مقاومة اسلامية ، وسحقوا كل ما كان أمامهم ، وسقط ابن عباد صريعاً ، قد اصابه جرح غائر ، وفرّ رؤساء الاندلس يائسين ، وظن الاذفونش ان ابن تاشفين مع المنهزمين ، فلما رأى ذلك ابن تاشفين ، هجم بنفسه يتلقى بصدره صدمة فرسان الاسبان يحف به ابطال المغرب ، وضرب الطبول الضخمة فارتجت الارض ، وطويت تحت اقدامهم ، ووقف الهجوم الاسباني ، ثم شق جيش الاسبان واخترقه حتى احتل قيادة الاذفونش ، فلما صار فيها عاود الاسبان الهجوم أشد وأقوى من الهجوم الاول ، فانخرقت جبهة المسلمين ، ولكنهم عاودوا الهجوم واحتلوا القيادة مرّة ثانية ، فهجم الاسبان ثالث مرة .

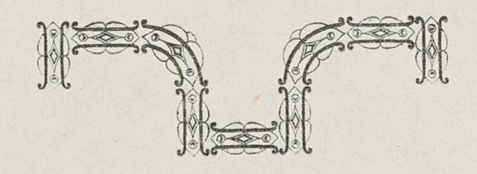
هجوم المستميت اليائس ، فترجل أمير المسلمين ابن تاشفين وهو يومئذ شيخ في نحو الثمانين ، وترجل معه نحو أربعة آلاف من حشمه السودان ، ووقفوا كأنهم جدران الصخر ، وبأيديهم الاتراس والسيوف ، وقفز واحد منهم على فرس الاذفونش ، فقبض على عنقه بيد ، وطعنه بالثانية بخنجره في فخذه فاخترق الخنجر الدرع والعظم ودخل في سرج الفرس ، وفرّ وفخذه معلقة بالسرج ، ووقعت الهزيمة الكبرى في جيش الاسبان وكان النصر الابلج .

وكانت معركة من أعظم المعارك الفاصلة في تاريخ البشر ؛ فقد اجتمعت فيها لأول مرة قوى الاسلام كلها في الاندلس والمغرب في وجه قوى النصرانية كلها في اسبانيا ، وكانت معركة شديدة أظهر فيها الفريقان من البراعة والشجاعة ، ما يجري من غرابته مجرى الامثال ، وظهرت فيها مزايا التربية الصحراوية ، فانهزم أبطال الاندلس ، حتى المعتمد بن عباد فارس العصر ؛ ولم يثبت الا بنو الصحراء ، الذين لم يفسدهم ترف الحضارة ، ولا نعيم القصور . وبدلت مسير التاريخ ، فقضت على هاتيكم الدويلات الهزيلة المتنافرة المتناحرة ، التي كانت تدفع الجزية للاسبان عن يد وهي صاغرة ؛ وتستعين بهم على حرب اخواتها في اللسان والدين ، وعادت للأندلس وحدتها تحت الراية الاسلامية الكبرى ، وكانت على وشك السقوط فأخّرت هذه المعركة سقوطها أربعمئة سنة ، كل ذلك بعمل هذا الرجل النحيف الضامر الخافت الصوت ، الذي كان يومئذ شيخاً في نحو الثمانين من عمره . هذا الشيخ البدوي البربري الذي لم ينشأ في المدن الكبار ، ولم يرها في صدر حياته ، ولم يتعلم في المدارس ولم يدخلها ، ولم يكن ينطق بالعربية ولا يكاد يفهمها ، ولم يعرف في عمره لذة النعيم ومتع العيش ؛ ولكنه مع ذلك أقام دولة من

العدم ، دولة تقيم حكم الله ؛ وتتبع شريعة الرسول الاعظم ﷺ . دولة امتدت من تونس الى الاطلنطي الى آخر الاندلس ، ولم يَدّع الاستقلال فيها ، ولا اتخذ ألقاب السلطان ، ولكنه قنع بأن يكون اميراً تابعاً اسماً للخليفة العباسي في بغداد .

يا سادتي ويا سيداتي :

ان تاريخكم فياض بالبطولات والمفاخر والمكارم ، ولكنكم لا تكادون تعرفون تاريخكم .



شارح القاموس

لو سئلت ما هو أشهر كتاب عربي ، لقلت أنه القاموس ، للفيروزآبادي . فقد بلغ من شهرته ان سُمّي كل معجم قاموساً ، مع ان القاموس اسم لهذا الكتاب وحده ، والى جنب القاموس في كل خزانة كتاب شرح القاموس ، الكتاب الجليل الذي يزيد في احاطته وشموله ، على المعجم العظيم لسان العرب .

وحديثي اليوم عن الزّبيدي شارح القاموس ، عن الرجل الذي كان طرازاً نادراً في العلماء . والذي كان نموذجاً للشيخ الذي جعل (المشيخة) تجارة ، وصورة للعالم المترف الثري ، والذي بلغ من قدره انه كان أشهر علماء الارض في زمانه ، ونال من الحظوة عند العامة والخاصة ، وعند الملوك والامراء ، ما لم ينله الا الأقل الأقل من العلماء ، والذي كان مشاركاً في كل علم ، ملماً بكل فنّ ، اماماً في اللغة وفي الحديث وفي التاريخ ، وكان اديباً شاعراً ، وكان مع ذلك وقوراً مهيباً ، بشوشاً بسّاماً ، وكان مع هيبته ووقاره ، خفيف الروح ، عذب النكتة ، مستحضراً للنوادر العجيبة ، متحدثاً قليل النظير .

* * *

ولد في اليمن سنة ١١٤٥ هـ قبل مئتين وثلاثين سنة ونشأ بها ، ثم رحل

في طلب العلم كما كان يرحل العلماء في ذلك الزمان ، وحج مراراً ، ونزل الطائف سنة ١١٦٦ فأقام بها زمناً وورد مصر سنة ١١٦٧

وفي مصر لمع نجمه وسار اسمه ، ونال المنزلة التي وصفت لكم ، وقد اتصل اول امره بالأمير اسماعيل كتخدا ، وألقى الله محبته واكباره في قلبه ، فأولاه جانباً من دنياه ، ونبّه اكرام الامير الناس اليه ، فأقبلوا عليه ، وتسابقوا الى سماع درسه ، وحضور مجلسه ، وأهدوا اليه الهدايا الفاخرة ، فحسنت حاله ، ولبس الملابس الفاخرة ، واشترى الخيل المسوّمة ، وكان نحيفاً ربعة مورّد الوجه ، متناسب الاعضاء ، يتخذ الزي الحجازي خلافاً لزيّ علماء الازهر ، ويلبس العمامة الحجازية على القلنسوة المزركشة ، ويترك لها عذبة ، فكانت غرابة زيّه من اسباب زيادة الاقبال عليه ، فانتقل الى (سويقة اللالا) ، وكانت يومئذ حيّ الاعيان والكبراء ، وفتح بيته للناس . وكان يقيم الولائم ، ويهدي الى من يهدي اليه ، وجعل ينقّل درسه من مسجد الى مسجد ، ومن حي الى حيّ ، وزار بلاد الصعيد ثلاث مرات . وكان حيثما حلّ ، احتشد له الناس وازدحم عليه طلبة العلم والعلماء ، وتسابق الى اكرامه ودعوته الأمراء والكبراء ، وعُني به شيخ العرب همام ، وهو كبير أعيان تلك البلاد ، ورحل الى مدن الوجه البحري كدمياط ورشيد والمنصورة وغيرها مراراً ، ثم تزوج وأحب زوجته حباً ما أحب مثله قيس ليلاه ، ولا العباس فَوْزَه ، وعاش معها في مثل نعيم الجنات . وشرع بشرح القاموس ، وكان كلما أتم كراريس أرسل منها الى علماء الاقطار الاسلامية . فاشتهر قبل اكماله ، فلما أكمله أولم الولائم العظيمة ، وجمع العلماء والوجهاء ، وكان احتفال ضخم ، لبث عمراً وهو حديث الناس .

ولما انشأ محمد بك ابو الذهب جامعه المعروف بالقرب من الازهر ،

أقام فيه خزانة كتب كان يشتري لها الكتب النادرة بأغلى الاثمان ، وقد اشترى أول نسخة من شرح القاموس بمئة ألف درهم فضة !

ولم يمنع الزبيدي ما نال من دنيا عريضة ، من الاشتغال بالعلم ، والعكوف على التصنيف ، والولع باقراء الطلبة ، واحياء العلوم التي اندثرت ونسيت كعلم الانساب والاسانيد وتخاريج الحديث ، وألّف في ذلك كله كتباً جليلة .

وكان مع هذا الجاه ، وهذا العلم ، يشتغل بالوعظ وبالرُّقى والتمائم (الحجب) ويجيز بالأوراد والأحزاب الصوفية الطرقية ، ويوهم انه المهدي ! . وكان هذا كله الى غريب زيّه وهيئته ، الى معرفته باللغة التركية واللغة الفارسية والكرجية ، واتقانه أساليب معاشرة الملوك والكبراء ، وأساليب التأثير على العامة كان هذا من أسباب ما نال من شهرة ، وما كان له من مكانة .

* * *

وكانت مجالس الامالي قد مضت وانقطعت من عهد السيوطي . والامالي من مفاخر تاريخ العلم الاسلامي ، فأعادها ووصلها ، وشرع يملي من حفظه على طريقة السلف مجالس في الحديث ، مبتدئاً بذكر الاسانيد والرواة والمخرجين .

وكان كلما قدم عليه قادم أملى عليه الحديث المسلسل بالاولوية ، وهو حديث الرحمة ، برواته ومخرجيه ويكتب له سنداً بذلك ويخبره به ويكتب سماع الحاضرين ، فكان الناس يعجبون من ذلك .

وكان ينظم (مسرحيات) أخرى ، أعجب تأليفاً واخراجاً ، وذلك

انه كلما دعاه احد اقام له الموائد الفاخرة ، وجمع الأهل والاخوان ، فيقبل معه خواص الطلبة ، ومعه القـــارىء والمستملي وكاتب الاسماء ، فيقعد على كرسي عال فيتلو القارىء ما تيسر من آيات الكتاب ثم يقرأ المستملي ، أي المعيد ثم يقرأ لهم الشيخ شيئاً من الاجزاء الحديثية ، كثلاثيات البخاري او الدارمي او بعض المسلسلات ، وصـــاحب المنزل وأصحابه وأقرباؤه ، والنساء والبنات من خلف الستائر ، يسمعون ولا يفهمون شيئاً بالطبـع ! وخلال ذلك يدار على الحاضرين بالبخور والعنبر ، ومـــاء الورد ، ثم يختم الدرس بالصلاة على الرسول ، على النسق المعتاد وبالنغمة المعروفة ، ثم يكتب الكاتب أسماء الحاضرين حتى النسـاء والصبيان ويكتب الشيخ تحت ذلك (صحيح) ويمضي ...

فكان الناس يرون رواية مسرحية عجيبة ، يتحدثون بها فتزيد من شهرة الشيخ (١)

وطلب منه بعض شيوخ الازهر اجازة ، فقـــال : لابدّ من قراءة اوائل الكتب ، واتفقوا على الاجتماع في جامـع شيخون ، وحضر الاجتماع أهل تلك الناحية وطلبة العلم فيها ، فالتمسوا منه بيـان المعـاني فانتقل من الرواية الى الدراية ، وكان درس عظيم ، استمر مدة طويلة . وكان يمزج الحديث بالفقه بالعربية بالرواية ولم يكن ذلك معروفـاً من مشايخ الأزهر في تلك الايام .

---

(١) وكل ذلك من المحدثات ، التي لم يعرفها علمـاء السلف ، ولا صنعها احـد من المحـدّثين .

وأحبه بعض الأمراء الكبار مثل مصطفى بك الاسكندراني ، وأيوب بك الدفتردار وسعوا الى منزله واهدوا اليه الهدايا الجزيلة ،واشترى الجواري وعمل الاطعمة للضيوف ، واكرم الواردين من الآفاق .

وانتقلت شهرته الى تركيا فطلب الى العاصمة (اسطنبول) فامتنع فرتبت له المرتبات الكبار وكاتبه امراء المسلمين من الترك والحجاز واليمن والهند والشام والعراق والمغرب والسودان والجزائر ، وكثرت عليه الوفود والهدايا العجيبة منها اغنام فزان ، وهي عجيبة الخلقة يشبه رأسها رأس العجل فأرسلها الى أولاد السلطان ، فكان لها وقع عظيم ،وكذلك الببغاء والجواري والعبيد ، فكان يرسل ذلك الى الجهات المستغرب فيها ،ويأتيه في مقابلها أضعافها ، وأتاه من طرائف الهند واليمن اشياء نفيسة ، منها العود والعنبر بالارطال .

وصارت له شهرة عظيمة عند اهل المغرب حتى ان من يحج ولا يزوره لايرون حجه كاملاً وكلما ورد عليه وارد سأله عن اسمه ونسبه وبلده واصحابه وجيرانه ، ويكتب ذلك فاذا جاءه بعدُ احد هؤلاء الاصحاب يقول له : جارك فلان حيّ ؟ واخوك فلان هل ربحت تجارته ؟ وابن عمك هل اكمل بناء بيته ؟

فيقوم المغربي ويقبل يديه ورجليه ، ويرى ذلك من الكشف !

فتراهم في ايام الحج طالعين الى داره ، نازلين منها ، وما منهم الا ومعه هدية او طرفة ، ويسأله العلماء فمن ظفر منه بجواب ، ولو على ورقة بقدر الاصبع ، فكأنما ظفر بحسن الخاتمة !

وكان يعرف كيف يحمل الكبراء على احترامه ، ولما جاء حسن باشا مصر وذهب اليه كل كبير فيها مسلّماً ، لم يذهب الشيخ ، وبعث من حمل

الباشا على زيارته فزاره في داره ، وخلع عليه الشيخ فروة ثمينة لا تقدر بمال ، وقدم له حصاناً سابقاً على سرج مُذْهب ، وعباءة ثمنها الف دينار ، وكان قد أعدّ ذلك قبل هذه الزيارة ، فكان ذلك سبباً في علوّ مكانته عنده ، حتى صارت شفاعته لديه لاترد ، وان ارسل اليه كتاباً او ورقة قبّلها قبل ان يقرأها وامر بانفاذ ما فيها [1] ، وارسل مرة الى احمد بك الجزار كتاباً ذكر له فيه أنه المهدي المنتظر ، وسيكون له شأن عظيم ، فوقع عنده موقع الصدق لميل النفوس الى الأماني ، ووضع ذلك الكتاب في عنقه مع الحجب والاحراز والتمائم ! وكان يسرّ ذلك الى بعض من يقدم عليه ممن يدعى المعرفة بالجفر والزايرجه وهانيك الحماقات التي كانت رائجة في تلك الايام ، ومن قدم عليه من جهة مصر سأله عن الشيخ الزبيدي ، فان خبره انه قد عرفه واجتمع به وأثنى عليه تقبله قبولاً حسناً ، وأجزل صلته ، وان لم يكن يعرفه او لم يمدحه ردّه وجفاه مهما كانت منزلته [2] .

ولما شرع بشرح الاحياء للغزالي ، بيضّ منه اجزاء وأرسلها الى الروم والشام والمغرب ليشتهر كما اشتهر شرح القاموس .

* * *

ووقع له حادث ، قلب حياته قلباً ، وحوله من هذه الحياة الاجتماعية التي كان مضرب المثل فيها ، الى عزلة وانطواء على نفسه ، ذلك هو وفاة زوجته التي احبها الحب العظيم ، واعطاها قلبه كله ، وقد روّعه موتها ، وانساه وهو العالم الجليل ، ما قد رواه وحدّث به من كراهية تجصيص القبور ، واقامة القباب عليها ، فدفنها عند القبر المنسوب للسيدة رقية في ظاهر

---

(١) فكانت تلك الهدية من الشيخ رشوة ظاهرة .

(٢) ويمثل عقلية هذا الباشا (انتصرت ...) الدولة العثمانية !

القاهرة ، وعمل لها مقاماً عليه قبّة ، ومقصورة أقام عليها الستور والقناديل ، ولازم قبرها مدة حتى كاد يجنّ ، وبنى بيتاً بجنب القبر اسكن فيه امها[1] ، وأخرج الأموال الطائلة فجعلها جوائز كبارا ، يمنحها لمن يرثيها او ينظم فيها .

واغلق عليه بابه ، واحتجب عن الناس ، وابى ان يدخل عليه احدا او ان يقرأ درساً . وردّ الهدايا التي كانت تجيئه ومنها هدية ايوب بك الدفتردار ، وهدية عظيمة بالغة القيمة من سلطان المغرب .

وقال فيها روائع الشعر ، واذا ألهم الله طالباً من طلاب الادب فجعل موضوع اطروحة يقدمها الى جامعته رثاء الشعراء زوجاتهم ، فعدّ من المتقدمين جريراً ، ومن المتأخرين اباظة وصدقي ، فلاينس الزبيدي شارح القاموس .

ومن قوله فيها القصيدة البائية البارعة ومطلعها .

اعاذل من يُرزأ كرزئي لم يزل	كئيباً ويزهد بعده في العواقب

وقوله في قصيدة اخرى .

مـا خلفت من بعدها في أهلها	غير البكا والحزن والايتام

وقوله في غيرها .

مضت فمضت عـني بها كل لذة	تقر بها عيناي فانقطعا مـعا

وقوله :

زبيدة شدت للرحيل مطيها	غداة الثلاثا في غلائلها الخضر
تميس كما ماست عروس بدلّها	وتخطر تيهاً في البرانس والازر
سأبكي عليها ما حييت وان امت	ستبكي عظامي والاضالع في القبر

---

(١) وذلك كله ممنوع شرعاً .

ولست بها مستبقياً فيض عبرة ولا طالباً بالصبر عاقبة الصبر

ولما جاء الطاعون سنة ١٣٥٠ وكان خارجاً من صلاة الجمعة ، طعن فحمل الى داره .

وذكر المصنف الذي نقل عنه الشيخ عبد الرزاق البيطار [١] في تاريخه المخطوط :

انه زاره فرأى اهل زوجته قد فتحوا صناديقه وخزائنه وفيها ما كان يهدى اليه ، من الغرائب العجيبة ، والتحف الثمينة ، فتناهبوها وهربوها ، من نفائس القماش ، وانواع الشال الكشميري ، والفراء والعباءات والطرائف النادرة ، ومما رآه كومة من ساعات الجيب الغالية لاتزال باغلفة بلادها ما أخرجت ولا استعملت .

وفتح الشيخ عينيه فرأى ذلك فأشار مستفهما ، ان ما هذا ؟ ثم اغمضها وقبضه الله اليه ، فمات .

مضى ، ولكنه خلف اكثر من خمسين مصنفاً ، حسبه ان يكون منها شرح احياء علوم الدين ، وان يكون منها تاج العروس في شرح القاموس .

---

(١) العالم المتفنن ، جد الاستاذ الجليل الشيخ بهجة البيطار ، وعنه نقلت اخبار الزبيدي .

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٠	٣	عنه عنه	عنه
١١	٢	تسعة نفر	تسعة عشر
١١	٣	تسعة	تسعة عشر
١٤	١١	وراء	وراءه
١٥	٩	نملك	نملكك
١٦	٢٠	قدّر	قدّر
١٩	٩	كالجميع	كالجموع
٢٤	٦	دونها	دونه
٢٥	٩	نزهها	ننزهها
٢٨	١٥	تحقق	تخفق
٢٩	٧	تمزتت	تمزقت
٣٣	١٨	مرده	مردة
٣٤	٩	ينبوغه	نبوغه
٤٠	١٨	الصبا	الصفا
٤١	١٦	ولكل محمد	ولكن محمداً
٤٣	٦	المكتشفات	المتكشفات
٤٧	١٤	سلائفنا	سلائقنا
٤٨	١٧	عاماً	علماً

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٥١	٩	فتحة	فتحه
٥٢	١٠	الحكم	اللحم
٥٣	٩	يتزغزع	يتزعزع
٥٣	٢٢	هو من	من هو
٥٦	١٩	صفافين	صفافي
٥٩	١٩	أن ، وأن	إن ، وإن
٦٠	٢،٣	أن ، وأن	إن ، وإن
٦٠	١٥	ليبنينه	ليبيّننّه
٦١	٣	إنـه	أنـه
٦٣	٧	اليوم	القوم
٦٧	٢	ان لم يكن	ان كان
٦٨	٢٣	الوليد	ابن الوليد
٧٩	١٧	المغرب	والمغرب
٨١	٢٣	الصعانيان	الصغانيان
٨٤	٧	قجند	خجندة
٨٤	١٢	لبدعته	ببدعته
٨٩	٨	الا احتاجوا الاموال	إلا إذا احتاجوا الى اموال
٩٤	١١	عن	من
٩٨	٦	ابو يوسف	ابي يوسف
٩٩	١	إن	أن
٩٩	١٦	فيها	فيها
١٠٠	١١	ثلاثون	ثلاثون الف
١١١	٢	أحس	أحسن
١٢٣	١٥	استرلنز	استرلتز

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٤١	٦	الافراء	الاقراء
١٤٤	٢٠	فأنني	فإنني
١٤٥	١١	فان	إن
١٥١	٢	بقائه	بقاءه
١٦٢	١٣	غيله	غيلة
١٧٠	٧	الفارس	للفارس
١٧٦	٦	استرداها	استردادها
١٨١	٢٠	انتفض	انتقض
١٨٢	١٠	يعبث	يعيث
١٩٠	٥	البغدادفي	البغدادي
١٩٥	١٨	المتكلين	المتكلمين
١٩٦	٥	«	«
٢٠١	٦	ينظر	نظير
٢٠٣	٥	مختصرة	مختصره
٢٠٣	١٢	تميـــة	تيمية
٢٠٧	٩	من كان ناقصاً	ما كان ناقصاً
٢٠٨	١٣	بختيان	بختيار
٢١٤	١١	ادراكهم	ادراكم
٢١٨	٣	الللك	الملك
٢٥٦	٥	محتمساً	متحمساً
٢٥٦	٨	يصرّف	يصرِّف
٢٥٦	٨	بل تركها الحقيقى	بل تركها
٢٥٦	٩	ليحى	بل تركها ليحى
٢٦٣	١٧	اليمن	الهـــند

بيان واستدراك

١ - جاء في الكتاب كلام يسير في نقد السيدة عائشة أم المؤمنين ، ونقد أمير المؤمنين معاوية ، وكلام عن غيرهم من أهل القرن الاول ، وأنا أعلم أن سير أهل هذا القرن ، لاسيّما الآل وكبار الصحابة كالصفحة البيضاء ، ان كان فيها نقطة حبر ظهر سوادها ، وسير غيرهم من ملوك الناس كالصفحة المغبرّة ان كان فيها بقعة بياض بدا نورهـــا ، لذلك كانت سيئاتهم حسنات غيرهم ، وما ينتقد فيهم يمدح ان كان في سواهم ، ولقد كانوا هم لباب البشر ، وخلاصة الانسانية ، وما رأت الدنيا ، وما أحسبها سترى (في غير الانبياء) أمثالهم ، وأنا استغفر الله إن كنت قد اخطأت فيما قلت عنهم في الكتاب .

٢ - هذه كلمات ارجو الحاقها بجدول الخطأ والصواب من كتـــاب «قصص من التاريخ»

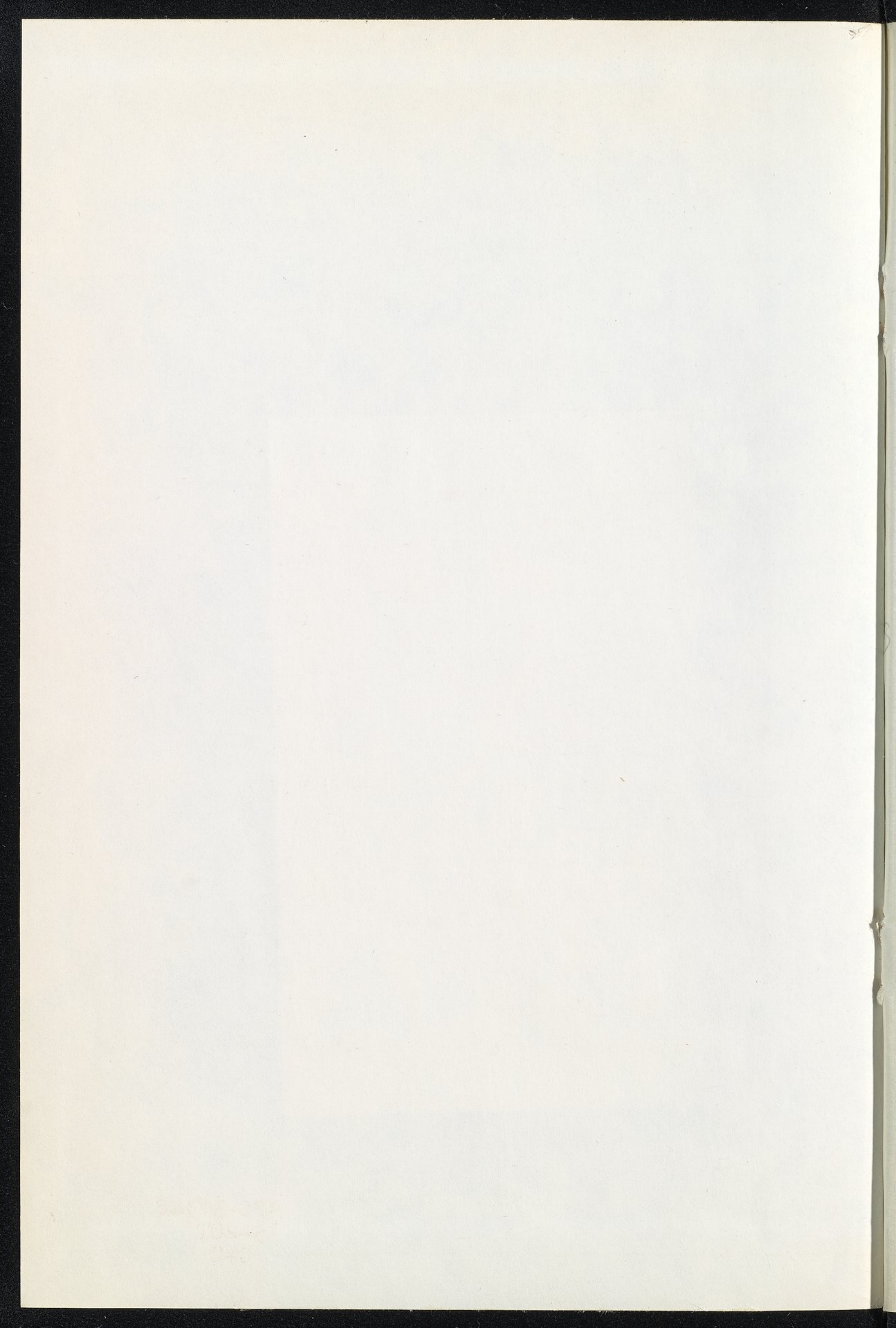
صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٦	٢	القواد	القواد (قواد الافرنج)
٧٦	١٤	بهما	بهن
١٠٢	آخر الحاشية	—	والفضل الاكبر في ذلك لدولة السيد لطفي الحفار
١١٠	الحاشية	قوم	قومـــاً

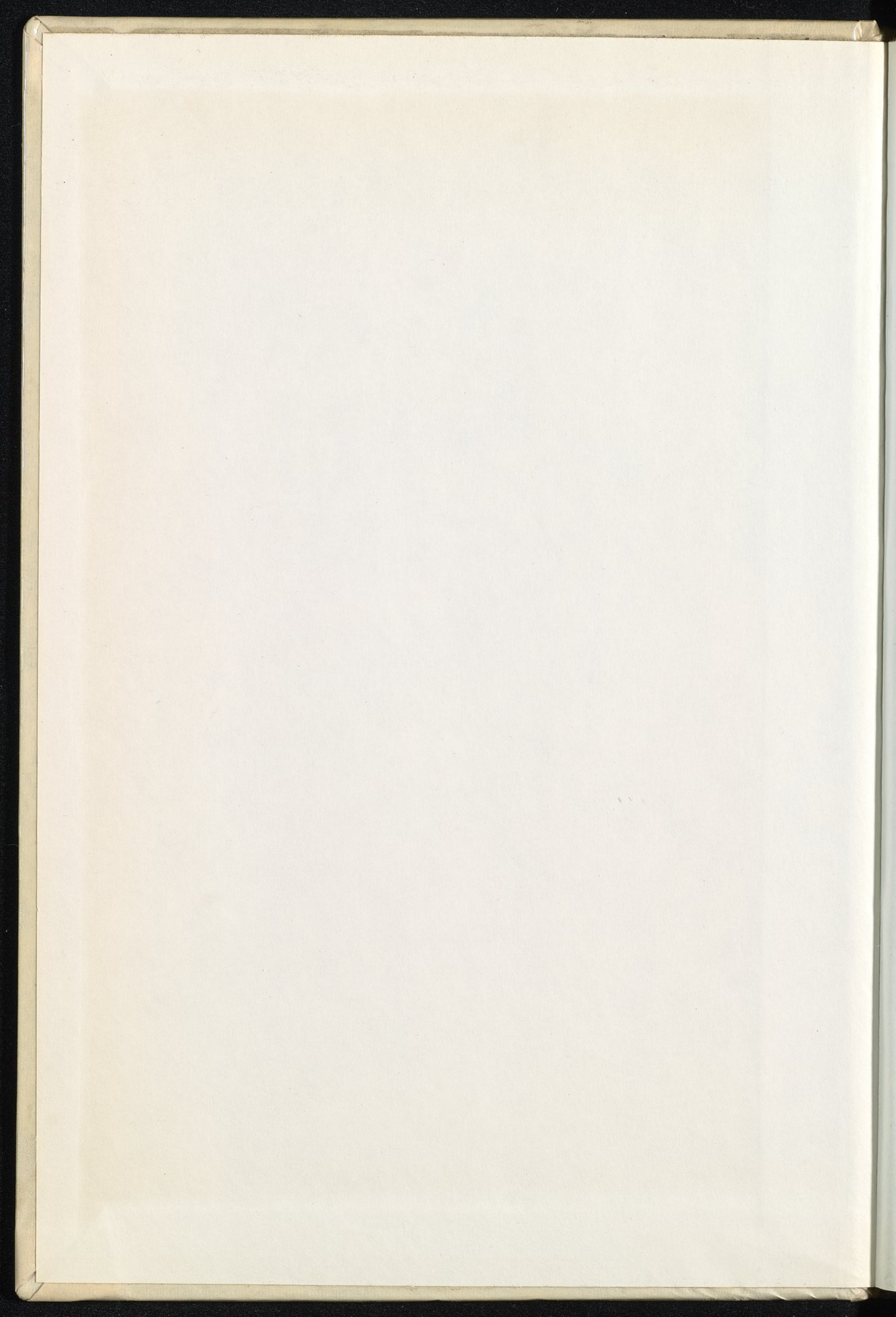
هذا هو الكتاب الثاني من السلسلة الجديدة المؤلف وفيها ثلاثة عشر كتابا ، صدر الاول منها (قصص من التاريخ) من نحو شهرين .

وهذا هو الثاني . وما بقي معد كله للطبع وسيصدر عندما يهيىء الله له الناشر ، وهو :

(١) مباحث اسلامية
(٢) في سبيل الاصلاح (مقالات اجتماعية)
(٣) مع الناس (قصص من الحياة)
(٤) صور وخواطر (قطع أدبية)
(٥) انا (ذكريات وتأملات)
(٦) هتاف المجد (مقالات وطنية)
(٧) مقالات في كلمات
(٨) في ربوع الشام
(٩) في بلاد العرب
(١٠) صور من الشرق
(١١) لمحات من السيرة

الفهرس






NYU - BOBST
31142 02768 4425
Rijal min
BP70 .T3


NYU
BOBST LIBRARY
OFFSITE

الثمن (٣٠٠) ق.س